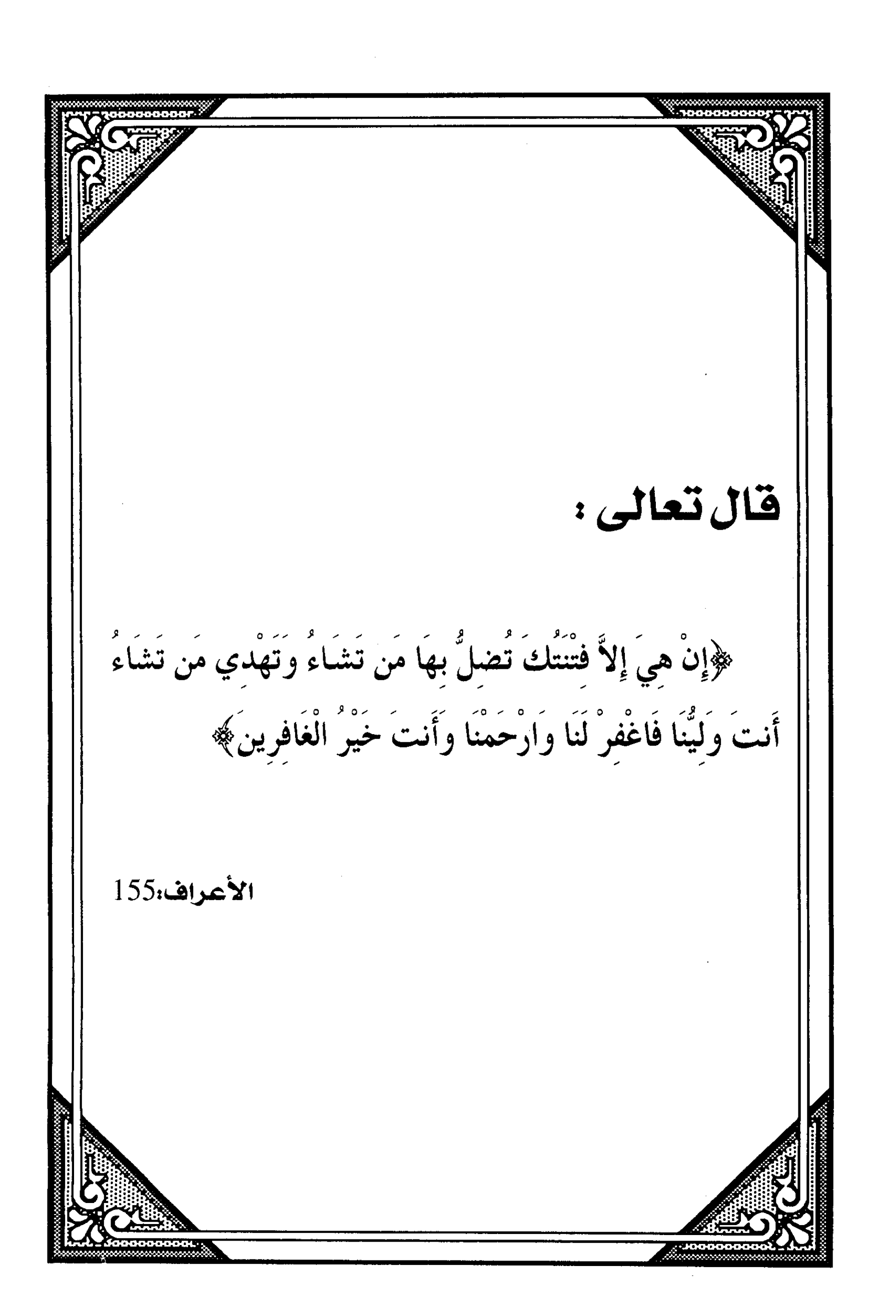
من فقه الفتن

فى ضوء السنة



تأليـف

د /عبد الله شعبان



قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

الأعراف:155

من فقه الفتن فى ضوء السنة

• الكتاب : من فقه الفتن فى ضوء السنة

• الكاتب : د / عبد الله شعبان .

• الطبعة : الأولى 1999.

• النشر والتوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا

تليفاكس: 305538 - 321744 /040

☎ 210907 - 228277 /040

أصالة للتجارة والتسويق - الزقازيق

تليفاكس : 353988 - 348654 /055

• التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى ☎ 228277

• الإيداع القانونى : 99/2715

• الترقيم الدولى : I.S.B.N 977- 278 - 102 - 6

المقدمة

الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن قضية الفتن هى قضية الماضى بغيوبه وغيومه ، والحاضر بصعوباته ومشكلاته ، والمستقبل بأحواله وأهواله ، آلامه وآماله وتطلعاته .

هى قضية المد الأفقى بشموله واستغراقاته .

والرأسى بعمقه وأبعاده .

والاتجاه فى تصرفاته وتقلباته وغاياته ، وتياراته .

والعمق فى ظلامه وأغواره .

هى قضية الكون كله ، مكانه وزمانه .

أمنه وخوفه ورجائه .

حلوه ومره ، غناه وفقره ، صحته وسقمه ، كبيره وصغيره ، رجاله ونسائه ، نباته وحيوانه ، مائه وناره .

هى قضية السر والعلن ، الحاضر والمشاهد ، الظاهر والمستتر ، الفرح والترح ، الموت والحياة ، النصر والهزيمة ، الارتفاع والهبوط ، الدنيا والآخرة .

هى قضية الخطوط المتقابلة إذاً .

الجماعة والتفرد ، الخلطة والعزلة .

السنَّة والبدعة ، الطاعة والمعصية .

الحرية والعبودية ، الكلام والصمت .

هى قضية كل شيء ، ومن ثَّم لاينجو منها شيء .

متشعبة ، ممتدة ، ذات جذور وفروع ، فنى بسببها الكبير ، وشاب من هولها الصغير ، قل أن يسلم منها أحد ، ومن سلم منها فى الدنيا فهل سيسلم منها فى القبر ، أو تراه يسلم من أهوال يوم القيامة .

ثم ماذا ؟

الموضوع لايتصل بجانب دون آخر .

ولهذا ففيه صعوبة ، وفى اقتحامه مخاطر ، وفى البحث فيه منعطفات ومنحنيات ، ومزالق ودروب ، ولافتات كذلك تتطلب التمهل ، وشارات تتطلب التبصر ، الموضوع إذاً ليس من السهولة ؛ لتعدد جوانبه .

ولأنه لم يؤلف فيه باستقلال .

ولذلك فإن المتعرض له بنحو مما قال الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : « إننى أعالج أمراً لايعين عليه إلا الله ، قد فنى عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمى ، وهاجر عليه الأعرابى ، حتى حسبوه ديناً لايرون الحق غيره »[1] .

ومع جدية البحث ، وصدق المحاولة ، والرغبة فى التنبيه والتبصير والأمل الكبير فى الله أن ينفع به ، لاأدعى أنى بلغت الغاية فى الأمر ، أو السلامة من الفتن .

بل كما قال القائل :

كل يداوي سقيماً من معائبه ◆ فمن لى بصحيح مابه سقم .[2]

والله تعالى يقول : ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾[3]

الباحث

---

1 ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم 37 .

2 ـ إيثار الحق على الخلق ، 33 ط الدار اليمنية .

3ـ سورة العنكبوت آية 2 ، 3 .

التمهيد فى:

• التعريف بالفتن

أ) فى معاجم اللغة.

ب) فى القرآن الكريم.

ج) فى السنّة النبوية.

• الفتن والغيبيات

التعريف بالفتن

أ ـ فى معاجم اللغة :

جاء فى معجم مقاييس اللغة لابن فارس [1].

فتن : الفاء ، والتاء ، والنون ، أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار ، ومن ذلك الفتنة ، وفتنت الذهب بالنار إذا امتحنته .

وأورد عن الخليل [2] قوله :

الفتن : الإحراق ، وشيء فتين محرق ، ويقال للحرة فتين ، كأن حجارتها محرقة . [3]

وأورد صاحب لسان العرب عن الأزهرى [4] قال :

جماع الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد . . .

---

1 ـ ابن فارس : إمام اللغة : أحمد بن زكريا ، العلامة المحدث ، كان رأساً فى الأدب بصيراً بالفقه ت : 395 هـ كان يقول : من قصر علمه فى اللغة وغولط غلط ،له ترجمة فى : وفيات الأعيان 1 / 118 ، سير أعلام النبلاء 17 / 103 ، طبقات الداودى 1 / 60 ، شذرات الذهب 3 / 132 .

2 ـ الخليل بن أحمد الفراهيدى ، الإمام صاحب العربية ومنشىء علم العروض (100 ـ 170) هـ ، من أقواله :

*** إذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً كصالح الأعمال .**

*** إنى لأغلق على بابى فما يجاوزه همى .**

*** إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع .**

ترجمته فى : الجرح والتعديل 3 / 80، البداية والنهاية 10 / 160 ، سير أعلام النبلاء 7 / 429 ، تهذيب التهذيب 3 / 163 ، شذرات الذهب 1 / 275 .

3 ـ معجم مقاييس اللغة 4 / 472 .

4 ـ الأزهرى : أبو منصور محمد بن أحمد، الإمام المشهور ، كان فقيهاً شافعياً (282 ـ 370)هـ ، مما رواه أن أعرابياً قال : اللهم من ظلمنى مرة فأجزه ، ومن ظلمنى مرتين فأجزنى وأجزه ، ومن ظلمنى ثلاث مرات فأجزنى ولاتجزه ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 4 / 334 ، شذرات الذهب 3 / 72 .

والفتنة : المحنة ، والمال ، والأولاد ، والكفر ، واختلاف الناس بالآراء .

وقيل الفتنة فى التأويل : الظلم .

وفتنته المرأة ، إذا ولهته وأحبها .

والفتنة : الضلال والإثم .

والفاتن : المضل عن الحق ، والفاتن ؛ الشيطان لأنه يضل العباد ، أو هو مايفتن الناس بخداعه ، وغروره ، وتزيينه للمعاصى [1] .

فدارت الفتنة فى اللغة إذاً على معنى الابتلاء ، الإحراق ، المحنة ، الكفر ، واختلاف الآراء ، والظلم ، والضلال ، والإثم . . .

ثم صار لفظ الفتنة يستعمل فى كل أمر كشف الامتحان عن سوئه ، أو تحول صاحبه من حال إلى حال أسوأ منه .

ب ــ فى القرآن الكريم:

جاء لفظ فتن فى القرآن عاماً متنوعاً .

ولعل فى هذا العموم والتنوع والتكرار دليلاً على أهمية اللفظ وتعدد مدلوله ، ومايشعر بعناية القرآن بالفتن ، وكشفه لأسبابها ، ومايترتب عليها من نتائج .

* ومن ذلك : مايكون بمعني الوقوع فى البلية أو الصد عن الدين والصرف عن الحق قال-تعالى-: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ [2] .

المعنى : يوقعوك فى بلية وشدة ، بسبب صرفهم إياك عما أوحى إليك ، أو صدك عن السبيل المراد ، كما يشير إلى ذلك ماورد فى سبب النزول [3] .

---

1 ـ لسان العرب مادة فتن ، لسان العرب المحيط 2/ 1049 .

2 ـ سورة المائدة : آية : 49 .

3 ـ ورد فى سبب النزول مارواه ابن جرير عن ابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ، أنه قال : قال جماعة من أقيال اليهود وعلمائهم ، فلنذهب إلى محمد لعلنا نستطيع فتنته عن دينه ، فلما جاؤه قالوا : إنك تعرف أنا أحبار اليهود وأشرافهم فإذا آمنا بك اتبعك اليهود ، ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة وسنختصم إليك فاقض لنا عليهم وحينئذنؤمن بك ونؤمن لك يهود فأبى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك ، وأنزل اللّه عليه الآية =

كذا قوله-تعالى ـ: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [1] أو قعتموها فى بلية وعذاب وصرفتموها عن الهدى. [2]

* ومنه مايكون بمعنى تعذيب المؤمن ليرجع عن دينه.

قال الله-تعالى ـ : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [3] ومامن شك فى أن محاولات الفتنة سواء كانت فى بدايتها من تخويف وتهديد وترويع للمؤمنين الآمنين ، وتجويع وتشريد ومصادمات ومصادرات. . أم فى نهايتها التى ترمى إليها من تحويل إلى الشرك ، أشد وأكبر عند الله من أى قتل ، لأن المؤمن يمثل الحق قولاً وعملاً واعتقاداً .

فانظر فيما يتعرض له المؤمنون الآن من أعداء الإسلام فى مختلف قارات الأرض من الفتن !

* ومنه مايكون فى مقابل الدين كله . وإليه يشير قوله-تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [4].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[5] ، فكل من الدين والفتنة مناقض للآخر ، مناف له وفى مقابله ، ولهذا فسرت الفتنة (بالشرك) .

فما حصلت به فتنة القلوب إما شرك ، وإما بسبب الشرك ، إذ يندرج تحتها أنواع الشبهات والشهوات.

قال الله-تعالى ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[6] هى الشرك.

=الكريمة ـ : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ سورة المائدة الآية (49). تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير 2/ 316.

1 ـ سورة الحديد آية 14 .

2 ـ فى ظلال القرآن 6 / 3486 ، المفردات للراغب الأصفهانى 372.

3 ـ سورة البقرة آية 191.

4 ـ سورة الأنفال آية 39.

5 ـ سورة البقرة آية 193.

6 ـ سورة النور آية 63.

قال الإمام أحمد [1] : « نظرت في المصحف فوجدت طاعة الله وطاعة رسوله ـ ﷺ ـ في ثلاثة وثلاثين موضعاً ثم جعل يتلو قول الله ـ تعالى ـ : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [2] وجعل يكررها ويقول وما الفتنة ؟ الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه . » [3]

ففي هذا دليل على أن الفتنة والإيمان متقابلان .

فإما فتنة وإما إيمان .

* ومنه مايكون بمعنى الاختبار والامتحان الذي لم يفتتن صاحبه ، بل خلص من الافتتان ونجح في الامتحان .

ـ ليله قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ . [4]

والآية خاصة بنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ : حين امتلأت نفسه بالغم على فعلته ـ القتل الذي لم ينوه ـ وهو المصنوع على عين الله ـ وتحرج ضميره من اندفاعه ، فذكره ربه بنعمته عليه إذ هداه إلى الاستغفار ـ فشرح صدره ، ونجاه من الغم ، ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد ، فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ، وامتحنه بالخدمة ومفارقة الأهل والوطن ، وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم ، وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض . . .

---

1 ـ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، إمام أهل السنة والجماعة (164 ـ 241) هـ أحد من حفظ على الأمة أمر دينها ، وأحد من أدخل كير الفتنة فخرج منها نقياً ، ذهباً أحمر ، ولما قيل لبشر بن الحارث حين ضرب الإمام أحمد ، لو أنك خرجت فقلت إني على قول أحمد فقال : أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟ وصفه عمير بن النحاس فقال : رحمه الله ، عن الدنيا ماكان أصبره ، وبالماضين ماكان أشبهه ، وبالصالحين ماكان ألحقه ، عرضت له الدنيا فأباها والبدع فنفاها ، وعن محمد بن مصعب قال : لسوط ضربة أحمد بن حنبل في الله ، أكبر من أيام بشر بن الحارث ، ترجمته في : طبقات ابن سعد 7/ 354 ، تاريخ بغداد 4/ 412 ، طبقات الحنابلة 1/ 4 ، تذكرة الحفاظ 2/ 431 ، سير أعلام النبلاء 11/ 177 غاية النهاية 1/ 112 ، شذرت الذهب 2/ 96 .

2 ـ سورة النور آية 63 .

3 ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول 96 .

4 ـ سورة طه آية 40 .

وفى الوقت المقدر عندما نضج واستعد وابتلى فثبت وصبر ، وامتحن فجاز الامتحان . . . فى هذا الوقت يأمره ربه بالقيام بمهمة الدعوة بعد أن هُئ وأُعد لها . (1)

* ومنه عكسه وهو مايكون بمعنى الاختبار والامتحان الذى حصل معه افتتان وسقوط فى الهاوية التى أحاطت بهم من كل جانب وأخذت عليهم المنافذ فلا يفلتون جزاء كذبهم ، وهبوطهم ،وتقريراً لكفرهم ، وإن تظاهروا بالإسلام .

وإليه يشير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾(2)

فما وقع فيه بعد فراره من الجهاد والخروج لغزوة تبوك ، أعظم وهو الشرك والعشق ، ومحبة النساء ، والتخلف عن رسول اللّه ـ ﷺ ـ والرغبة بنفسه عن نفسه ، والنفاق ، والمعاذير المفتراة وماانطوت عليه صدورهم .

وفى الآية تصوير الفتنة ببئر سقط فيه المفتون ، وكأن جهنم قد أحاطت بهم وأخذت عليهم المنافذ فلايستطيعون هرباً ، ومافى هذا ظلم ، فاللّه.سبحانه.يعلم حقيقة القلوب قبل الافتتان والابتلاء ، وهو-سبحانه-يعامل الناس على حسب مايصدر منهم لاعلى حسب علمه فقط ، وذلك فضل من اللّه وعدل وتربية ، فلم يترك الناس لدعواهم حتى ابتلاهم ، فيظهر فى عالم الواقع ماهو معلوم للّه مغيب عن الناس .

*ومنه مايكون متضمناً للأمرين ، شاملاً للمعنيين جميعاً، وعليه يتنزل معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ .(3)

---

1 ـ فى ظلال القرآن 4 / 2336 بتصرف .

2 ـ سورة التوبة آية 49 ، أورد ابن كثير فى تفسيره عن ابن اسحاق ، عن الزهرى ، ويزيد بن رومان ، وعبد اللّه بن أبى بكر ، وعاصم بن قتادة ، وغيرهم ، قالوا : قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ ذات يوم وهو فى جهازه ـ للجد بن قيس أخى بنى سلمة ـ « **هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر ، فقال يارسول اللّه أو تأذن لى ولاتفتنى ، فو اللّه لقد عرف قومى مارجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لاأصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول اللّه ـ ﷺ ـ ، وقال قد أذنت لك** » . . وهكذا روى ابن عباس وغير واحد أن الآية نزلت فى الجد بن قيس ، تفسير القرآن العظيم 2/ 180

3 ـ سورة العنكبوت آية 2 ، 3 .

فهى فتنة مقصودة لتحقيق الإيمان ، وكشف الصادقين من الكاذبين ، صادرة فى صورة استفهام استنكارى لتصور الناس لحقيقة الإيمان .

هذه الفتنة على الإيمان أساس ثابت وسنة جارية من سنن الله فى كونه ، إن الإيمان أمانة الله فى الأرض لايحملها إلا من هم أهل لها ، وفيهم على حملها قدرة ، وفى قلوبهم تجرد وإخلاص .

كذا قوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ .(1)

امتحانك وابتلاؤك تضل به من وقع فيه ، وتهدى من نجا منه .

إن الله وحده عالم بحقيقة القلوب قبل الافتتان والابتلاء ، وهو-سبحانه-بفضله وعدله إنما يعامل الناس على حسب مايصدر منهم لاعلى جسب علمه هو فقط ، وذلك فضل من الله عدل وتربية .

*ومنه ماهوأعم من ذلك كله ، قال الله-تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ .(2)

قال ابن القيم (3) : «وهذا عام فى جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض »(4).

وقال ابن كثير : (5)« أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض ، لنعلم من يطيع ممن يعصى » .

1ـ سورة الأعراف آية 155 .

2ـ سورة الفرقان آية 20 .

3ـ محمد بن أبى بكر بن أيوب (691 ـ 751) هـ الإمام صاحب المؤلفات النادرة : أقواله كلها حكم ، ومنها : علمت كلبك فهو يترك شهوته فى تناول ماصاده احتراماً لنعمتك ، وكم علمك معلم الشرع وأنت لاتقبل ؟ حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه، فما ظن الجاهل الذى أعماله غوى نفسه ؟ ترجمته فى : البداية والنهاية 14 / 234 ، ذيل طبقات الحنابلة 2 / 447 ، طبقات الداودى 2/ 93.

4ـ إغاثة اللهفان 2 / 160 .

5ـ ابن كثير : اسماعيل بن عمر (700ـ 774) هـ الإمام الحافظ المفسر من أقواله :

تمر بنا الأيام تترًا وإنما ◆ نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ◆ ولا زائل هذا المشيب المكور

له ترجمة فى : طبقات الداودى 1 / 111 . ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطى 57 ، 361 .

ولهذا قال-تعالى-: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[1].

ونقل قول ابن اسحاق : [2] فى الآية يقول الله-تعالى-لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن ابتلى العباد بهم وأبتليهم بهم .[3]

ويشهد لهذا ماروه عياض بن حمار [4] أن النبى -ﷺ- قال ذات يوم فى خطبته : "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا ، قال الله : **كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم الذى أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، ونزلت عليك كتاباً لايغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً**" . . . الحديث[5].

ومما يدخل فى دائرة العموم أيضاً قوله-تعالى-: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[6].

قال مقاتل : [7] بلاء وشغل عن الآخرة .

1-- سورة الفرقان آية 20 .

2- محمد بن إسحاق بن يسار ، ت 151هـ إمام المغازى وأعلم الناس بها ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 321 ، الجرح والتعديل 7/ 191 ، وفيات الأعيان 4/ 276 ، سير أعلام النبلاء 7/ 33 ، شذرات الذهب ، 1/ 23 .

3- تفسير القرآن العظيم 4/ 279

4- عياض بن حمار المجاشعى صحابى ، عاش إلى خلافة على - رضى الله عنه - له عند مسلم هذا الحديث ، تهذيب التهذيب 8/ 200 .

5- الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه 2/ 2197

6- سورة التغابن : آية : 15 .

7- مقاتل بن سليمان ، كبير المفسرين ، قال ابن المبارك : ماأحسن تفسيره لو كان ثقة ، قيل إن المنصور ألح عليه ذباب ، فطلب مقاتلاً فسأله ، لم خلق الله الذباب ؟ قال:ليذل به الملوك ، وقيل إنه قال : سلونى عما دون العرش ، فسألوه عن أمعاء النملة ، فسكت ، وسألوه لما حج آدم من حلق رأسه ؟ فقال : لاأدرى ، ت : 150 هـ له ترجمة فى طبقات ابن سعد 7/ 373 ، المجروحين 3/ 14 ، وفيات الأعيان 5/ 255 ، تهذيب التهذيب 10/ 279 .

فالأولاد والأزواج قد يكونون مشغلة عن الآخرة وملهاة عن ذكر الله، ومدعاة للتقصير فى مقامات الإيمان . . وقد يحتمل الأب عنتاً فيبخل ويجبن ليوفر ، فهم صدوه عن الخير ، وثبطوه عن أداء واجبه .

لذا قال ابن عباس : [1]« فلا تطيعوهم فى معصية الله-تعالى-» .

وقال الزجاج عالم اللغة [2] : « أعلمهم الله-عز وجل-أن الأموال والأولاد مما يفتنون به ، وهذا عام فى جميع الأولاد ، فإن الإنسان ، مفتون بولده لأنه ربما عصى الله بسببه، وتناول الحرام لأجله ، ووقع فى العظائم ، إلا من عصمه الله تعالى » .

عقب ابن القيم على هذا قائلاً : ويشهد لهذا ماروى أن النبى - ﷺ - « **كان يخطب فجاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يعثران ، فنزل - ﷺ - إليهما ، فأخذهما فوضعهما فى حجره على المنبر وقال : " صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما . .** »[3]

وقال ابن مسعود - رضى الله عنه [4] : « لايقولن أحدكم : اللهم إنى أعوذ بك من

1- ابن عباس : عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - كان مهيباً ، كامل العقل ، ذكى النفس ، من رجال الكمال، وهو القائل : إن كنت لآتى الرجل منهم - من الأنصار - فيقال هو نائم ، فلو شئت أن يوقظ لى فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك قلبه ، إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبى - ﷺ - له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 5 / 365 ، تاريخ بغداد 1 / 173 ، سير أعلام النبلاء 2 / 331 .

2- الزجاج : ابراهيم بن السرى ، من أهل العلم والأدب ، صنف فى معانى القرآن . ت 311 هـ ، وهو القائل :

إذا قل ماء المرء قل حياؤه ولاخير فى وجه إذا قل ماؤه

له ترجمة فى : تاريخ بغداد 6 / 89 ، وفيات الأعيان 1 / 49 .

3- الحديث أخرجه أصحاب السنن ، وانظر جامع الترمذى ، كتاب المناقب 5 / 658 وقال : حسن غريب ، وسنن ابن ماجه ، كتاب اللباس 2 / 1190 ، وأحمد فى مسنده 5 / 354 .

4- ابن مسعود عبد الله بن مسعود بن حبيب ، الإمام الفقيه ، أحد السابقين المهاجرين البدريين ، كان نظيفاً فطناً ، من أذكياء الصحابة ، من أقواله : «لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً ، وإنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس فى عمل آخرة ولادنيا » وخرج ذات يوم فتبعه ناس فقال لهم : ألكم حاجة ؟ قالوا:لا ، قال: ارجعوا فإنه فتنة للتابع زلة للمتبوع ، وقال:لو تعلمون منى ماأعلمه من نفسى لحثوتم التراب على رأسى، له ترجمة فى تاريخ بغداد 1 / 147 ، طبقات الشيرازى 43 ، سير أعلام النبلاء 1 / 461 ، تذكرة الحفاظ 1/ 31 ، طبقات القراء للذهبى 1 / 33 ، الإصابة 1 / 209 ، تهذيب التهذيب 6 / 27 .

الفتنة؛ فإنه ليس منكم أحد إلا وهو يشتمل على فتنة ، لأن اللّه تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾فأيكم استعاذ فليستعذ باللّه تعالى من مضلات الفتن » .

* ومنه مايكون بمعنى ظهورالكافر على المؤمن ، فيظن الكافر أنه على الحق قال اللّه تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1]

المعنى لاتظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك .

قال الفراء [2] : «لاتظهر علينا الكفار فيروا أنهم على حق وأنّا على باطل » .

وقال مقاتل : « لاتقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم فيكون ذلك فتنة لهم» . [3]

لما في ظهورهم من إعجاب ، فيتوهمون معه أنهم على حق وأنهم خير منا . ففتنتهم بإعجابهم بكفرهم ، قال اللّه ـ تعالى ـ : ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4]

وقيل المعنى : لاتبتلينا بأمر يوجب افتتان الكفار بنا ، فإنه إذا خذل المتقى ونصر العاصى ، فتن الكافر وقال : لو كان مذهب هذا صحيحاً ماغلب . [5]

* ومنه مايكون بمعنى الإمالة عن الحق والصرف عنه .

قال الله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ . [6] يميلونك عن الحق ويزيلونك .

قال الراغب [7] : يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفهم إياك عما أوحى إليك[8]وهى

1ـ سورة الممتحنة آية 5 .

2ـ الفراء : يحيى بن زياد بن عبد اللّه ، له ترجمة فى : تاريخ بغداد 14 / 149 ، وفيات الأعيان 6 / 176 ، تهذيب التهذيب 11 / 212 ، شذرات الذهب 2 / 19 ، غاية النهاية 2 / 371 .

3ـ إغاثة اللهفان 2 / 164

4ـ سورة يونس آية 85 .

5 ـ ذيل طبقات الحنابلة 1 / 270 .

6 ـ سورة الإسراء آية 73 .

7ـ الراغب : الحسين بن محمد الأصفهاني ، صاحب المفردات فى غريب القرآن ت 520 هـ، على خلاف كبير فى ذلك ، الإعلام للزر كلى 2 / 255 ، مقدمة الذريعة ، ط دار الصحوة .

8ـ المفردات 372 .

واحدة من محاولات شتى قصد بها صرف الرسول ـ ﷺ ـ عما أوحى إليه ، وإن لم تذكر الآية تفصيلاً ، ليذكر فضل اللّه على نبيه فى تنبيهه على الحق ، وعصمته من الفتنة» .

* ومنه مايكون بمعنى الإضلال ، ويدل على ذلك قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ** . ﴾[1]

المعنى : إنكم وما تعبدون ، لاتفتنون على اللّه إلا من هو محسوب من أهل الجحيم : الذين قدر عليهم أن يصلوها ، وماأنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين ، فللجحيم وقود من نوع معروف طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة ، ويستمع للفاتنين .[2]

بفاتنين إذاً ـ بمضلين إلا من أضله اللّه .

* ومنه مايكون بمعنى الفضيحة ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ .[3]

فضيحته بعد أن سلك طريق الفتنة وولج فيها .

* ومنه مايكون بمعنى القتل ، وعليه يدل قول اللّه تعالى ﴿**إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿**عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ**﴾ [5]

* ومنه مايكون بمعنى الاختبار والمرض ، قال اللّه تعالى : ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [6]

يختبرون بدعوتهم إلى الجهاد .

1ـ سورة الصافات آية 161 : 163
2 ـ فى ظلال القرآن 23 / 3001 .
3ـ سورة المائدة آية 41 .
4ـ سورة النساء آية 101 .
5ـ سورة يونس آية 83 .
6ـ سورة التوبة آية 126

* ومنه مايكون بمعنى القضاء - قال الله تعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾[1] .

* ومنه مايكون بمعنى المعذرة - قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[2]

لقد تجلت الحقيقة وتقررت ، وأقر المشركون بوحدانية الله رب العالمين ، ولكن الإقرار صدر بعد فوات الأوان ، فاليوم يوم الجزاء ، لا للعمل ، ولتقرير ماكان ، لا لاسترجاع ماكان - : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .[3]

* ومنه مايكون بمعنى الفوضى ، والوقيعة ، والتخذيل ، والتفرقة ، ويدل عليه قوله سبحانه - : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ .[4]

فأمثال هؤلاء لو خرجوا مع الجيوش مازادوهم قوة ، بل لزادوهم فوضى واضطراباً وضعفاً ، وفرقة وتفريقاً وتخذيلاً ، ولأسرعوا بالوقيعة والفتنة بين المسلمين .

وليس هذا بآخر الممكن إذ يمكن أن تكون للكلمة معان غير ماذكر ، مما لم ينكشف لأحد سره ، أو الوقوف عليه ، ويعرف المراد حينما ورد بالسياق ، والقرائن وحدها هى التى تدل عليه .

قال الراغب : أصل الفتن ، ادخال الذهب فى النار لتظهر جودته من ردائته واستعمل فى إدخال الإنسان النار قال الله - تعالى - ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾[5] عذابكم ، وتارة بمعنى مايحصل عنه العذاب فيستعمل فيه ،نحو - قوله

1- سورة الأعراف آية 155 .

2- سورة الأنعام آية 23

3- سورة الأنعام آية 24

4- سورة التوبة آية 47 ، 48

5- سورة الذاريات آية 13 ، 14 .

تعالى ـ : ﴿ألا في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[1] .

وجعلت الفتنة كالبلاء فى أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء ، وهما فى الشدة أظهر معنى ، وأكثر استعمالاً ـ وقد قال اللّه تعالى ـ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2]

وقال تعالى فى الشدة : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [3]

ثم قال الراغب : «والفتنة من الأفعال التى تكون من اللّه ومن العبد كالبلية ، والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، وغير ذلك من الأفعال الكريهة ، ومتى كان من اللّه يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر اللّه يكون بضد ذلك ، ولهذا يذم اللّه الإنسان بأنواع الفتن فى كل مكان» [4] .

جـ: فى السنة :

ظهر من استعمال الكلمة فى اللغة ، ومفردات القرآن الكريم أنها قد اتسعت فشملت عدة معان بينها تلازم وترابط فى أصلها ووضعها ، وكثير من ألفاظ اللغة والقرآن دال على معنيين فأكثر ، واللفظ الواحد يتناولها جميعاً .

وسعة اللغة وكونها حمالة أوجه يساعد على ذلك ويقويه ، بل قد تجمع الكلمة بين معنيين بينهما تضاد ، وعليه يكون الحكم للمعانى لاللألفاظ ، وهذا أمر يمكن اطراده فى جميع الأحوال .

* وفى السنة دارت كلمة " الفتن " على معان ، وقد كثر استعمالها فى الاختبار ، والابتلاء ، والإثم ، والكفر ، والقتل ، والإزالة ، والصرف عن الشىء .

* وعلماء السنة اهتموا بأمر الفتن ، واعتنوا بها عناية خاصة ، فأفردوا لها فى مصنفاتهم كتباً أوردوا تحتها مايتصل بدلائل الفتن ، والجهة التى تصدر منها ، وواجب

1ـ سورة التوبة آية 49 .
2ـ سورة الأنبياء آية 35 .
3ـ سورة البقرة آية 102 .
4ـ المفردات 372 .

المسلم نحوها ، وكيفية نزول الفتن واقترابها ، وكيف يكون الرجل فى الفتنة ، والتثبت فى الفتن ، وكف اللسان ، وتكسير القسى ، والعزلة والخمول ، والوصية عند نزولها ، وقتال المسلمين بعضهم بعضاً .. إلخ.

* ومن الأئمة من اكتفى بالكلمة مجردة ، ومنهم من أضاف إليها كما هو صنيع الإمام مسلم [1] حيث ترجم لكتابه " الفتن وأشراط الساعة " وإن لم يكتف من اقتصر على الفتن من ذكر مايتناول أشراط الساعة ، والدجال والمهدى ، ونزول عيسى عليه السلام ، والملاحم ، إلى غير ذلك من أبواب مندرجة تحت الفتن.

ومنهم من أفردها بمؤلف خاص [2].

ولما كان البحث موضوعاً لمناقشة الفتن فى ضوء السنة فإنى سأعمل على تقييد كل فكرة بنص من نصوصها ، ممهداً لذلك بهذا التمهيد.

* لابد من وجود مبررات وتعليلات تراءت لعلماء السنة قوت لديهم فكرة الجمع والمزج بين الفتن وماأضيف إليها من أبواب وفصول جمعها كتاب واحد.

قد يدرك هذا من تأمل دواوين السنة فوقف على مدى الترابط والتلازم بين الفتن وما أضيف إليها ، بلا عناء أو تكلف.

---

1 ـ الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، صاحب الصحيح (204 ـ 261) هـ ، حدث أحمد بن حمدون قال : سمعت مسلم بن الحجاج ـ وجاء إلى محمد بن إسماعيل ، فقبل بين عينيه وقال : دعنى أقبل رجليك ياأستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث فى علله ... له ترجمة فى : الجرح والتعديل/8 182 ، تاريخ بغداد 13 / 100 ، طبقات الحنابلة 1 / 337 ، اللباب 3 / 38 ، وفيات الأعيان/5 194 ، سير أعلام النبلاء 12 / 557 ، تذكرة الحفاظ 2 / 588 ، تهذيب التهذيب 10 / 126 ، طبقات الحفاظ 260 .

2 ـ فعل ذلك : نعيم بن حماد بن معاوية ت 229 هـ وإن قال الذهبى أتى فيه ـ فى كتاب الفتن ـ بعجائب ومناكير ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7 / 519 ، تاريخ بغداد 13 / 306 ، سير أعلام النبلاء 10 / 595 ميزان الاعتدال 4 / 267 ،

وأبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى (450ـ520) هـ ، انظر مقدمة كتابه " الدعاء المأثور وآدابه " ط دار الفكر المعاصر.

من ذلك:

الفتن والغيبيات ، والقتال والملاحم ، حمل السلاح ، وظهور البدع والعصبيات ، تقارب الزمان .. اختلاف الآراء ، تعدد المذاهب ...

ولنخص واحداً من هذه المفردات بمحاولة إبزار هذا التلازم بينهما.

الفتن والغيبيات :[1]

قد تبدو العلاقة بين الفتن والغيبيات من جهة ؛ أن الوقوف عليهما قد علم بخبر الوحى ، والأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنبوة ، إذ لاسبيل للعلم بها إلا ذلك.

كما أن من الفتن مالا يقع تحت دائرة الحس الآن ، ولاسبيل إلى مدافعته ورده ، وإلا وقع الإنسان تحت دائرة الشك والارتياب والالحاد والانكار .

ومع أنها أمور وصلت إلينا عن طريق الوحى ، وأن منها ماتحقق ووقع ، ومنها ماينتظر ، إذ لاتزال محجوبة عنا ، فإنه لاتحول حواجز الحس دون الإيمان بها.

ثم إن فى كثرة الفتن وذيوعها وانتشارها دلالة على كثرة الضلال ، والكفر ، والفضيحة ، مما هو عذاب أو سبب فيه ، وكلها ناشىء عن المعصية ، وهجر الدين ، والانحراف عنه ، والصرف ، والإمالة بالتأويل الفاسد ، والانتحال الباطل ، مما يؤذن بزوال العالم وقيام الساعة.

كذلك الانحراف عن الجادة ـ الكلى والجزئى ـ الفردى والجماعى ـ بمسخ الحجة .

وانحراف النفس وتسمية الأشياء من محرمات وغيرها ، بغير اسمها ، والتحايل على الحرام ، وكثرة التقلبات من إيمان إلى كفر ، ومن كفر إلى إيمان ، كل صباح ومساء.

والتنازل السهل عن الدين فى مقابل عرض من الدنيا يسير ، بل بثمن العنز.

---

1 ـ الغيب : كل مااستتر عن العين ، واستعمل فى كل غائب عن الحواس ، وعما يغيب عن علم الإنسان ، ويقال غيب وغائب ، وقد يراد به هنا كل مالا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقينى . المفردات 366 ، كبرى اليقينيات245 .

قيام الساعة وظهور أشراطها مرتبط ومقترن بهذه الظواهر إذاً ، ولاأعنى بالاقتران اقتران السبب بالمسبب ، إنما أعنى أن ظهور هذه الأمور مناف للغاية من خلق الناس ، وأن الله سبحانه يكرم الإنسانية بحظاظها على وظيفتها ، وقيامها برسالتها ، فإذا لم تكن رسالة تؤديها فقد خسرت مبرر وجود ها ، ونواميس حفظها ، وأصول بقائها ، وإذا خلت الأرض من قائمين لله بالحجة ، أو من العناصر الطيبة الكريمة ، فإن الساعة تقوم.

وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة...

ومعنى خلو الأرض من العناصر الكريمة ، ومن قائمين لله بالحجة ؛

ذهاب الأخيار وبقاء الأشرار (الغربلة).

القبض على الجمر.

العبادة فى الهرج.

مروج العهود ، وذهاب الأمانات.

الحثالة :

قبض العلماء ، وذهاب الفقهاء والحكماء ، ومجيىء أقوام يقيسون الأمور بآرائهم ، ويحدثون فى دين الله ماليس منه .

وأن يكون العلم فى الرذالة .

قال عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما [1] : «لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق

1 ـ عبد الله بن عمرو بن العاص ، الإمام الحبر العابد ، صاحب الفضائل والمقام الراسخ فى العلم

هم شر من أهل الجاهلية ، لايدعون الله بشيء إلا رده عليهم » .[1]

وقال ـ ﷺ ـ **" لاتقوم الساعة حتى لايقال فى الأرض : الله الله "**

" لاتقوم الساعة على أحد يقول الله الله "[2].

وقال ـ ﷺ ـ **« كيف بكم وبزمان تغربل فيه الناس غربلة ؟[3] ثم تبقى حثالة[4] من الناس قد مرجت[5] عهودهم وأماناتهم»**[6].

إن هذا كله مقدمات لقيام الساعة ، وهو كذلك من الفتن .

وترك السنن ، وشيوع البدع وإكسابها حق الوجود الشرعى بالعكوف عليها ، والعجز عن تغييرها ، وتلبيسها على الناس ، من دلائل ذلك أيضاً .

وإذاً الغيب كل مالاسبيل إلى الوصول إليه ، والإيمان به إلا من طريق الخبر اليقينى ، سواء فى ذلك ماتحقق ، أو ماينتظر تحققه ووقوعه ، فإن مما يدخل فى ذلك : أشراط الساعة ، ومايحدث بعد الموت فى القبر ، والجنة والنار . . . إلخ .

=ت63 هـ : كان يكثر من البكاء ، يغلق عليه بابه حتى رمضت عيناه ، وكان يقول لأن أكون عاشر عشرة مساكين يوم القيامة ، أحب إلى من أكون عاشر عشرة أغنياء ، فإن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا ، يقول : يتصدق يميناً وشمالاً . . ترجمته فى : طبقات الشيرازى 50 ، تذكرة الحفاظ 1 / 39 ، سير أعلام النبلاء 3 / 79 ، تهذيب التهذيب 5 / 337 .

1 ـ أخرجه مسلم فى الصحيح ، كتاب الإمارة 3 / 1524 برقم 1924 .

2ـ المصدر السابق كتاب الإيمان 1 / 131 برقم 148 .

3 ـ غربلة : فى النهاية 3 / 352 ، أى يذهب خيارهم ويبقى أرذلهم ، والغربل : المنتقى كأنه نقى بالغربال ، وجاء فى جامع الأصول 10/ 7 غربلة الناس : إماتته الأخيار ، وبقاء الأشرار ، كما ينقى الغربال من حثالة مايغربله ورديئه .

4ـ حثالة : الحثالة الردىء من كل شيء ومنه حثالة الشعير ، والأرز ، والتمر ، وكل ذى قشر ، النهاية 1 / 339 وانظر جامع الأصول 10 / 6

5 ـ مرجت : المرج الاختلاط والاختلاف ، والمعنى اختلفت عهودهم ، النهاية 4 / 314 ، جامع الأصول 10/ 7 .

6 ـ الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن 2 / 1307 برقم 3957 ، وأحمد فى مسنده 2/ 162 ، 220 .

ـ انظر جامع الأصول 10/ 6 ، وإسناده صحيح ، وأبو داود فى سننه ، كتاب الملاحم 4/ 123 .

فكل ذلك من الفتن ، وفى السنة قال ـ ﷺ ـ « **إنكم تفتنون فى قبوركم قريباً أو مثل فتنة الدجال** »[1]، [2].

تدل على أن القبر موضع فتنة كما أن الدجال كذلك .

وماالدجال والآيات التى يجريها الله على يديه إلا فتنة للناس .

كما أن الإيمان بالغيب فى ذاته ابتلاء وفتنة ، إذ الفتنة فى أخص معانيها ابتلاء وامتحان ، فبينهما من هذه الناحية توافق من حيث المعنى أيضاً .

إذاً ترتبط الغيبيات بالفتن ويجمع بينهما أمور :

منها : طريق معرفتهما " الوحى " والأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بأنوار النبوة .

من الفتن ماهو غيب ـ غير واقع الآن تحت دوائر الحس ـ الساعة غيب ، وقيامها مرتبط مقترن بظواهرالفتن ، وأعراضها ، ثم ومن مبررات الإيمان بالغيب الذى هو عتبة يجتازها المؤمن ، وتجتاز بها نفسه مرحلة الابتلاء ، والفتن جميعها ابتلاء .

وبأنوار النبوة علمنا ماينتظرنا مما هو حادث الآن ، ومايحدث فى مستقبل الزمان ، مماأخبر ـ ﷺ ـ به ، من ويلات وحروب ، وأثره بالملك ، وطغيان بالعلم وفتنة بالمال ، والنساء ، والولد ، والاختلاف والتشتت والتفرق ، والتحزب ، والحط على المخالفين فى الرأى ـ وإن كان اختلافاً محموداً ـ ، وتجريح وتهويل يصل أحياناً إلى حد التكفير والاخراج عن الملة . . وكل ماهو واقع الآن بعد أن كان أمر الأمة جميعاً ، هذا وغيره ثابت منصوص عليه فى السنة ، وهو غيب ومن مظاهر الفتن .

ثم والذين صنفوا فى أهوال القبور وأحوال أهلها ، ومايتعلق بأحوال الموتى وأمور الآخرة قرنوا بين مفردات هذا كله ، وبين مايتعلق بالفتن وأشراط الساعة ومقدماتها .

---

1 ـ أورد العلماء فى بيان معناه عشرة أقوال منها : الكذاب من الدجلة ، وقيل مأخوذ من الدجل ، طلاء البعير بالقطران ، سمى بذلك لأنه يغطى الحق ويستره بسحره وكذبه ، انظر الأقوال فى التذكرة 744.

2 ـ الحديث أخرجه البخارى فى الصحيح ، كتاب العلم 1 / 2، 3، ووضوء 1/ 57 ، وجمعة2/ 12 ، وكسوف2/ 46 ، وأخرجه مسلم فى الصحيح ، فى عدة أماكن منها فى كتاب الكسوف2/ 621، 624 ، بلفظ " إنى قد رأيتكم تفتنون فى القبور كفتنة الدجال " .

كذا ظهور الفحش ، وقطيعة الرحم ، وسوء الجوار ، وتداعى الأمم على المسلمين ، ومايكون من خسف وزلازل . كل هذا غيب وفتن ، وللسنة فيه إسهامات وتوقعات ، وترغيب وترهيب.

* * *

الفصل الأول

عصر الجاهلية العربية

- وقد خلت من قبلهم المثلات.
- إذا كـــثـــر الخـــبـــث.
- الهـلاك واحـــد والمصـادر شـتى.
- مـلامـــح جـاهـليــــة.

• "إن من يفقد القدرة على الصعود لايملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض."

وقد خلت من قبلهم المثلات [1]

الزمان أنصح المؤدبين وأفصح المؤذنين ، فانتبهوا بإيقاظه ، واعتبروا بألفاظه .

ومن لم يعتبر بعينيه لايعتبر بأذنيه .

ومن لم يعتبر بالقرآن والموت ، فلو تناطحت الجبال بين يديه لن يعتبر ،

قال اللّه تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[2] .

والاعتبار : المضى والنفوذ فى الشىء والتجاوز من حال إلى حال .

والاعتبار : العبرة بالحالة التى يتوصل بها من معرفة مشاهد إلى ماليس بمشاهد .

قال ابن فارس : " فإن قلت اعتبرت الشىء فكأنك نظرت إلى الشىء ، فجعلت مايعنيك عبراً لذلك ، فتساويا عندك ، قال اللّه تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ كأنه قال انظروا إلى من فعل مافعل فعوقب به ، فتجنبوا مثلَ صنيعهم ، لئلا ينزل بكم مانزل بأولئك "[3] .

على هذا فقد أمر اللّه بحمل ماهو معلوم على ماليس بمعلوم لعلاقة بينهما فى إثبات حكم ، أونفيه ، فإذا وقع أمر لأسباب معلومة ، عرفت نتيجتها ، ثم وجدت واقعة أخرى تساوى الأمر الأول فى الأسباب ، فإن الحكم يكون واحداً ، ولابد وهذا مايعرف بقانون التماثل ، والتشابه ، والتناظر . . . ومعناه : أن النظير يأخذ حكم نظيره ، وأن مايجرى على الشىء يجرى على مثليه ، ويستحيل أن يفترق المتساويان فى الحكم ، كما يستحيل أن يتساوى المختلفان فى الحكم [4]

---

1 ـ المثلات : جمع مثلة : النقمة التى تنزل بالإنسان فيكون مثالاً لغيره يعتبر به . المفردات 463 .

2 ـ سورة الحشر آية 2 .

3 ـ معجم مقاييس اللغة 4/ 210 .

4 ـ المنطلق للأستاذ محمد أحمد الراشد 81 .

هذا القانون من سنن اللّه الكونية العامة ، لايعرف المحاباة ، ولا التفريق ، أو التخلف .

إن شأن الاعتبار شأن الميزان يعرف به مايوازى الحكم ليأخذ حكمه ، ومالايوازيه فلا يأخذ حكمه .

وبيان ذلك : أن اللّه بعد أن قص ماكان من يهود بني النضير ، وبين مانزل بهم من حيث لم يحتسبوا ، قال تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ وسواء كان الاعتبار مفسراً بالعبور ، أو الاتعاظ ، فهو تقرير لسنة كونية من سنن اللّه تعالى فى خلقه .

قال ابن تيمية [1]: " الاعتبار أن يقرن الشىء بمثله فيعلم حكمه مثل حكمه " .

قال ابن عباس : " هلا اعتبرتم ؟ الأصابع مثل الأسنان " . [2]

والقرآن الكريم شاهد على صدق هذا القانون فى تماثل الأسباب والنتائج جميعاً .

وهذا من تمام الإنصاف والعدل ، فالعدل تسوية ، وتمثيل ، وقياس ، واعتبار ، وتشريك ، وتشبيه ، وتنظير ، وكلها من جنس واحد .

وكونه من تمام الإنصاف والعدل هو مايتفق وفطرة الإنسان ، ولذلك وقع منه ـ ﷺ ـ فى كثير من الوقائع التى عرضت عليه ، ولم ينزل بحكمها وحى ، الاستدلال بطريق التشبيه والتمثيل ، وهذا منه ـ ﷺ ـ ، تشريع ، وتعليم للأمة .

والفقهاء من عصر الرسول وفى سائر العصور قد استعملوا القياس .

وعليه ، فالنظر والتأمل فيما أصاب الأمم قبلنا بما أحدثوه ، وبالأسباب التى

1 ـ هو شيخ الإسلام : أحمد بن عبد الحليم عبد السلام الحرانى الدمشقى ، الإمام الناقد المجتهد (661 ـ 728 هـ) من أقواله : " إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة " وقال مرة : مايصنع أعدائى بى أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أين رحت فهى معى لاتفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وأخراجى من بلدى سياحة ، وكان يقول وهو فى سجن القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ماعدل عندى شكر هذه النعمة ، أو ماجزيتهم على ماتسببوا لى فيه من الخير . له ترجمة فى : البداية والنهاية 14 / 163، تذكرة الحفاظ 4/ 1496 ، ذيل طبقات الحنابلة 2 / 387 ، طبقات الداودى 1 / 45 .

2 ـ مجموع الفتاوى 13/ 20 .

نقلت عنهم يحتم علينا الكف والاحتراز عما أحدثوه ، احترازاً عن الجزاء والنتيجة .

قال اللّه تعالى : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1]

ونظائر هذا فى القرآن كثير ، بل ليس فى الشريعة من أولها إلى آخرها شيء بخلافه .

والقرآن الكريم واسع الدلالة فى إحالة ذوى الأبصار وأصحاب العقول ، على الاعتبار كدليل لاستنباط الحكم ، والتوصل من معرفة المشاهد ، إلى ماليس بمشاهد . وأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل ، وأن الجمع بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين ، من العدل ، وهو أمر مركوز فى الفطرة السليمة ، التى فطر اللّه الناس عليها .

ولكونه مما فطر اللّه عباده عليه ، قال ابن القيم : " ولهذا فهمت الأمة من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [2]. جميع وجوه الإنتفاع من الملبس، والمركب، والمسكن ، وغيرها ، وفهمت من قوله تعالى : ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾[3] . إرادة النهى عن جميع أنواع الأذى " . [4]

وقال الشوكانى : [5] " وقد وقع منه ـ ﷺ ـ ، قياسات كثيرة ، حتى صنف الناصح الحنبلى جزءاً فى أقيسته ـ ﷺ ـ " [6]

1ـ سورة الجاثية آية من 20 : 22 .
2ـ سورة النساء آية 10 .
3ـ سورة الإسراء آية 23 .
4ـ أعلام الموقعين 1/ 218 .
5ـ محمد بن على بن محمد الفقيه الأصولى المجتهد ت 1255 هـ ، الرسالة المستطرفة114 .
6ـ ارشاد الفحول 203 .

وقد عقد البخارى[1] رحمه الله تعالى ، فى صحيحه باباً هو : " من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين ، وقد بين النبى - ﷺ - ، حكمها ليفهم السائل " أورد تحته حديث الأعرابى الذى أتى النبى - ﷺ - ، فقال إن امرأتى ولدت غلاماً أسود وإنى أنكرته ، فقال له رسول الله - ﷺ - : " **هل لك من إبل** ؟ " قال : نعم . قال " **فما ألوانها** ؟ " قال : حمر " **هل فيها من أورق**؟ "[2]

قال : إن فيها لورقاً ، قال : " **فأنى ترى ذلك جاءها** " ؟ " قال : يارسول الله : عرق نزعها ، قال : " **لعل هذا عرق نزعه ؟** " **ولم يرخص له فى الانتفاء منه** " .[3]

إنه لما كانت الواقعة مساوية لمثيلتها حكم فيها بحكمها ، وقد أحال النبى - ﷺ - ، الأعرابى على الإبل لاستنباط الحكم ، وهذا هو الاعتبار ، فقد ثبتت المساواة ، ولم يرخص له النبى - ﷺ - ، فى الانتفاء من الولد .

قال ابن بطال[4]: " التشبيه ، والتمثيل ، هو القياس عند العرب "[5].

وترجم الإمام النسائى[6] فى سننه للحديث المتقدم بقوله : باب التشبيه والتمثيل[7] أى التأمل فى موارد النصوص لاستنباط المعنى كالتأمل فيما أصاب من قبلنا كيلا يقع بنا ماوقع بهم ، ومن ثمَّ احتراز الجزاء ، ولم يقل أحد من العلماء

1- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم - شيخ الإسلام (94 - 256) هـ من أقواله : ماوضعت فى كتابى " الصحيح " حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين ، أرجو أن ألقى الله ولايحاسبنى أنى قد اغتبت أحداً له ترجمة فى : تاريخ بغداد 12/ 4 ، وفيات الأعيان 4/ 188 ، سير إعلام النبلاء 12 / 391 ، تذكرة الحفاظ 2/ 555 ، تهذيب التهذيب 9 / 47 ، مقدمة فتح البارى ، طبقات الحفاظ 248 .

2- الأورق : الأسمر : والورقة السمرة - النهاية 5/ 175

3- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الاعتصام 9 / 125 . ومسلم فى صحيحه ، كتاب اللعان 2 / 1137 ، وأبو داود فى سننه ، كتاب الطلاق 2/ 278 ، والترمذى فى سننه ، كتاب الولاء 4 / 439 والنسائى فى سننه ، كتاب الطلاق 6 / 178 جميعاً من حديث أبى هريرة .

4- ابن بطال : على بن خلف بن عبد الملك - شارح صحيح البخارى ت 449 هـ من أهل العلم والمعرفة والعناية التامة بالحديث ، له ترجمة فى : سير أعلام النبلاء18/ 47 ، شذرات الذهب 3 / 283 .

5- فتح البارى 13/ 297 .

6- أحمد بن شعيب بن على ، الإمام الناقد (215 - 303) هـ ترجمته فى : سير أعلام النبلاء 14 / 125 ، تذكرة الحفاظ 2/ 698 ، تهذيب التهذيب 1/ 36 - شذرت الذهب 2/ 239 .

7- سنن النسائى 6 / 178 .

بخصوصية هذا الأمر بأحد ، أو بعصر من العصور ، بل هو للمسلمين فى سائر الأزمان .

والمنقول عن الصحابة فى ذلك يبلغ حد التواتر المعنوى ، ذلك أنهم اتفقوا على استعمال القياس من غير نكير من واحد منهم .

وقد ذكر الأئمة صوراً من المسائل الدالة على أقيستهم واجتهادهم فى النوازل وقياسهم بعض الأحكام على بعض ، وهذا دليل على أن الصحابة مثلوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها وردوا بعضها إلى بعض فى أحكامها . . . وأنه مامن أحد من أهل النظر والاجتهاد منهم إلا وقد قال بالرأى والقياس ، ومن لم يوجد منه الحكم بذلك فلم يوجد منه فى ذلك إنكار فكان إجماعاً سكوتياً ، وهو حجة . . [1]

وقال على ـ رضى الله عنه ـ[2] : " يعرف الحق بالمقايسة عن ذوى الألباب "[3]

وقال المزنى[4] " الفقهاء من عصر الرسول ـ ﷺ ـ ، إلى يومنا وهلم جرا استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم . . قال : وأجمعوا بأن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلايجوز إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور ، والتمثيل عليها " [5]

بعد هذا أقول:

لماذا تختلف التفاسير والاجتهادات والتحليلات والتبريرات للأحداث ؟

ولماذا ينظر الناس أفراداً وجماعات أشياء قد اتحدت فى مقدماتها وأسبابها على

1ـ الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى 4/ 52 ـ أعلام الموقعين 1/ 203 ، إرشاد الفحول 203 .

2 ـ أمير المؤمنين : على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ، لم يسبقه إلى الإسلام إلا أم المؤمنين خديجة ـ رضى الله عنها ، ت 40 هـ ، تذكرة الحفاظ 1/ 9 ، معرفة القراء الكبار 1/ 25 .

3ـ أعلام الموقعين 1/ 203

4 ـ المزنى : اسماعيل بن يحيى بن إسماعيل ت264 هـ ناصر مذهب الشافعى ، كان زاهداً مجتهداً ـ طبقات الشيرازى 97 ، وفيات الأعيان 1/ 196 ، طبقات السبكى 1/ 238 .

5ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 66 .

أن نتائجها لابد وأن تختلف !

إن خلف كل سبب قريب أسباباً بعيدة ، وإنه لمما يشق على ذوى الضمائر مايقوم به البعض من بتر للمعلول عن العلة ، والنتيجة عن السبب .

إن من الحقائق المذهلة ، بل والمرة أن ينشغل الناس عادة بالنتائج دون النظر فى المقدمات ، والمقدمات لم تأت من فراغ .

إن ترتيب النتيجةعلى المقدمة ، والجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والسبب على المسبب أمر حتمى لايختلف عليه العقلاء ، وهو فى القرآن يزيد على ألف موضع . . . إن النتيجة بنت المقدمة ، والجزاء من جنس العمل ، فلماذا تختلف التبريرات ، والتعليلات والاجتهادات ؟

ولماذا يظن الناس أن القانون يمكن أن يتخلف ؟ وأن السنة الكونية يمكن أن تتعطل ؟ أو تحابى أحداً على حساب أحد ؟ أو أن يختلف المتساويان ، أو يتساوى المختلفان فى الحكم ؟ إن مايجرى على الشىء يجرى على مثيله ، ذلك منطق الفطرة ، ومقتضى العدل ، وتشريع الإسلام ، وتعليم النبى ـ ﷺ ـ لأمته ، وبه قال الصحابة والمجتهدون فى مختلف العصور ، وعليه دل الدليل من العقل والنقل ، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته وتحقيق منهجه ، والتقرب إليه بمعرفة حقه والشفقة على خلقه .

قال الشيخ الإمام ابن القيم : " وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وحصول السرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع " .

* فتارة يرتب الحكم الخبرى الكونى ، والأمر الشرعى على الوصف المناسب له كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1]

1 ـ سورة الأعراف آية 166 .

وهذا كثير جداً

* وتارة يرتبه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾ [1] ونظائره .

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل فى ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه فى هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً ، وتفريطاً وإضاعة ، فيكون توكله عجزاً أو عجزه توكلاً .[2]

وأخيرا . يجب ألا ندور فى وهم ، أو فى حلقات مفرغة من التبريرات والتعليلات والتماس الأعذار فيما نزل بالأمة متجاهلين حقيقة الأسباب المفضية إلى تلك النتائج .

يجب أن تكون للمسلم بصيرته النافذة بما يشهد ويعلم ويجرب .

يجب أن تبادر جماعة من العباد الأبرار لإصلاح الواقع ، ومخاصمة الفجار ، إبراءً للذمة ، والتماساً للعذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

ومن أنفع ذلك؛ تدبر القرآن والسنة ، والحفاظ على اللغة العربية ، ودراسة التاريخ وصرف الهمة إليهم ، وتأمل أخبار الأمم ، وسنن الله فى كونه ، وحكمه فى أهل طاعته ، وأهل معصيته ، فالتاريخ فيه تفصيل ماورد فى القرآن والسنة من جزئيات .

فمن يدرك هذا ؟ ومن يفهمه ؟ قبل أن يحال بينه وبين الإدراك والفهم .

قال ـ ﷺ ـ " *يخرج فى أخر الزمان رجال يختلون [3] الدنيا بالدين ، يلبسون جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم وقلوب الذئاب ، يقول الله عزوجل : (أبى يغترون ؟ أم علىَّ يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة*

1 ـ سورة الأنفال آية 29 .

2 ـ الداء والدواء 17 .

3ـ ختل طلب ، والمعنى يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يقال ختله إذا أخذه وراوغه ، وختل الذئب الصيدإذا اختفى له ، والختل المراودة والطلب من حيث لايشعر المطلوب ـ النهاية 2 / 9 .

تدع الحليم منهم حيرانا) .[1]

فوجب تدارك الأمر بدراسة أسباب العجز والضعف والهوان والمسخ ، ومقاومة تلك الأسباب مقاومة جادة وإحلال أسباب القدرة والقوة والعزة واكتمال الحقيقة ، وإلا فإن أمر الله كائن « **فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانا** » وأظن أنها كادت إن لم تكن .

إذا كثر الخبث:

جواب لسؤال مبعثه الدهشة والاستغراب ، وذلك لما لاحظت أمنا أم المؤمنين زينب[2] قلق النبى ـ ﷺ ـ وفزعه من نومه وهو يقول " **ويل للعرب من شر قد اقترب** " قالت أم المؤمنين : أنهلك وفينا الصالحون .؟ قال " نعم إذا كثر الخبث " [3].

خلاف الطيب ، وأصله الردىء ، الجارى مجرى خبث الحديد ، كما قال الشاعر :

سبكناه نحسبه لجيناً ❖ فأبدى الكير عن خبث الحديد .

ويتناول الباطل فى الاعتقاد ، والكذب فى المقال ، والقبيح فى الفعال .[4]

قال ابن العربى [5] : « فيه ـ الحديث ـ البيان بأن الخيّر قد يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغير عليه خبثه ،وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لايجدى ذلك ، ويصر الشرير على عمله السيىء ، ويفشوا ذلك ، ويكثر ، حتى يعم الفساد ، فيهلك حينئذ القليل والكثير

1ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الزهد 4/ 604 من حديث أبى هريرة ، قال : وفى الباب عن ابن عمر ثم ساقه وقال : حديث حسن غريب من حديث ابن عمر لانعرفه إلا من هذا الوجه .

2ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش و ابنة عمة الرسول ـ ﷺ ـ ، من سادات النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً، ت 20 هـ قال النبى ـ ﷺ ـ : « **أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً** » وإنما عنى طول يدها بالمعروف لها ترجمة فى : طبقات ابن سعد 8/ 101 ، سير أعلام النبلاء 2/ 211، تهذيب التهذيب12/ 420.

3ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ،كتاب الفتن 9/ 60، 76 ، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفتن 4/ 2207 ، 2208 والترمذى فى سننه ،كتاب الفتن 4/ 479 ، 480 وابن ماجة فى سننه ،كتاب الفتن 2/ 1305 ومالك فى الموطأ 70 ، وأحمد فى مسنده 6/ 428، 429 والحميدى فى مسنده 1/ 148 .

4ـ المفردات 141 .

5ـ ابن العربى : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد (464ـ 543) هـ ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 4/ 296 ، تذكرة الحفاظ 4/ 1294 ، سير أعلام النبلاء 20/ 197 ، البداية والنهاية 12 / 228 ، طبقات الداودى 2/ 162 .

ثم يحشر كل أحد على نيته» .[1]

وقال القرطبى [2] : قال علماؤنا فى الحديث دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون . . فأما إذا كثر المفسدون وقل الصالحون ، هلك المفسدون والصالحون معهم إذا لم يأمروا بالمعروف وينكروا مايصنع المفسدون ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾[3] بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها ، هذابفساده ، وهذا برضاه وإقراره» [4]

كثرة الخبث إذاً سبب كل هلاك وفوضى واضطراب وخراب جماعى ، هلاك الخير والشرير ، إذ لايخلوا كل خبيث من أن يكون أسير هواه وشهواته ناشراً خبثه بين الناس، يود لو أن كل واحد مثله ، كما قال الله تعالى : ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾[5] . أى هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وماذاك إلا لشدة عدواتهم وبغضهم لكم . [6]

وكثرة الخبث لم تولد فجأة أو تظهر من فراغ أو بدون مقدمات ، أو كان وجودها عرضاً ، بل أصبح عرفاً سائداً وعملاً جماهيرياً ، ونمطاً عاماً بالسكوت عليه والأرض لم تخلو من قائمين لله بالحجة وصالحين يبادرون أهل الفساد بالنكير والإصلاح والتغيير خشية الدمار الجماعى ، بيد أن تمادى الكثرة فى خبثها وعدم جدوى المحاولة سبب علو الكثرة واستظهارها وارتفاعها ، فإذا علا أهل الفساد والخبث وهم كثرة فقد لخص أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ[7] النهاية ، وحدد النتيجة فى صياغة قانونية ، ذلك أنه لما

1ـ فتح البارى 13/ 109 .

2ـ القرطبى : المفسر الجليل محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى ت 671 هـ طبقات الداودى 2/ 69

3ـ سورة الأنفال آية 25 .

4ـ التذكرة 609 .

5ـ سورة النساء آية 89 .

6 ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/ 533

7 ـ الأمير المجاهد : عمر بن الخطاب ، فاروق الأمة ، ومن أيد الله به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ، ومن سن للمحدثين سنة التثبت فى النقل حتى قالوا : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، ت 23 هـ ترجمته فى : تذكرة الحفاظ 1/ 5 ، الإصابة 2/ 518 ، الاستيعاب بهامش الإصابة 2/ 458 ، شذرات الذهب 1 / 33 .

سئل أتوشك القرى أن تخرب وهى عامرة ؟ قال : « نعم ، إذا علا فجارها على أبرارها ، وساد القبيلة منافقوها » .[1]

هذه من عمر ـ رضى اللّه عنه ، كتلك التى كانت من نبينا محمد ـ ﷺ ـ ، الرمز واضح والعلاقة بينه ، والربط بين كلا الجوابين ظاهر .

ولاغرابة فالحق يخرج من مشكاة واحدة ، وعليه نوره ، وليس على الحق دليل أبين من هذا مهما نأت بأهله البلاد ، وتباعدت الديار ، فإنهم يجرون على طريقة واحدة ، لايميلون ولايحيدون .

ولو جمعت ماجرى على ألسنتهم وجدته كأنه جاء من قلب واحد وجرى على لسان واحد .

لكن هل كثرة الخبث نتيجة ذيوعه وشيوعه فتكون الكثرة فى الكم ، وأنه يقع من الغالبية؟

أم يمكن أن تكون الكثرة بفعل القلة من الناس صار هذا ديدنها ، ودأبها وطبعها السائد؟

وكذا الأمر فى علو الفجار وسيادة المنافقين قد يثير هذا الإشكال ، فقهر الفجار واستيلاء المنافقين وتجبرهم وارتفاعهم ، هل هو رغم قلتهم ! أم أن الغالبية صار هذا وصفها؟

الظاهر ـ والعلم عند اللّه ـ أن الأمر لايرتبط بكثرة عددية ، ولازيادة فى الكمية بل يمكن أن تكون كثرة الخبث بإكسابه حق الوجود الشرعى ، ووسمه بسمة الاستقرار والتأصيل ، بسبب السكوت عنه وعدم مقاومته تلك المقاومة الجادة ولو كان الممارسون له قلة ، كما فى علو الفاجر وتوليته لأمثاله ، فالخبث خبث فى كل الأحوال، إلا أن ضرره يكون أقل إذا لم يظهر ، أو ظهر وعمل الناس على مقاومته كما فى تمادى الفاجر فى فجوره واستخفاء الأبرار ، وأهل الصلاح وخوفهم وسكوتهم عند وقوع الشر منهم .

الأمر إذاً لايقاس بعدد الموجودين له ، وهذا مايشهد له وبه الواقع ، فالخير موجود

---

1 ـ الداء والدواء 45 .

وفى الناس حب له ، وحرص عليه ، وهو أمر مركوز فى الطباع والفطر ، كما فى الناس نفور من الشر ورفض له ، وتأب عليه ، وهو كذلك مركوز فى الطباع والفطر ، وعدد الخيرين ونسبهم فى ازدياد مستمر ، لكنها زيادات عديمة الفاعلية قليلة الجدوى ، إذا قورنت بما يحدثه المسيطرون على الأمور ، الموجهون لها ، المالكون لزمامها .

ولعل فى ترجمة الإمام مالك بن أنس [1] رحمه الله للحديث فى الموطأ مايساعد على ذلك ، إذ قال باب : « ماجاء فى عذاب العامة بعمل الخاصة »[2] وهو مادلت عليه الآيات قال الله تعالى : **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾**[3] .

هذا الفسق واقع من البعض وهم المترفون ، إلا أن الدمار لحق بالكل ، ومافى هذا ظلم فالأمة تؤاخذ وينالها العقاب إن سكتت عن وقوع المنكر من بعض أفرادها .

1 ـ الإمام مالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى (93 ـ 179هـ) كان يقول : " بلغنى أنه مازهد أحد فى الدنيا واتقى الله إلا نطق بالحكمة " وقال : " إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه وحق على طالب العلم أن يكون له وقار وخشية ، والعلم خير لمن رزق خيره وهوقسم الله تعالى ، فلا تمكن الناس من نفسك ، فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير ، وإن من شقوة المرء أن لايزال يخطىء ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لايطيقه.له ترجمة فى : الحلية 6/ 316، طبقات الشيرازى 67 ، وفيات الأعيان 4/ 135 ، سير أعلام النبلاء 8/ 48 ، تذكرة الحفاظ 1/ 207 ، تهذيب التهذيب10/ 5 .

2 ـ الموطأ 70 .

3 ـ سورة الإسراء آية 16 .

وكون العامة تعاقب بعمل الخاصة ، لأن الأمة جسم واحد ، ولأن ترك إنكار المنكر من العامة على الخاصة قد يجعلهم فى سلك الآثمين لتركهم واجباً وإن كانوا غير آثمين باعتبار عدم المشاركة فى ارتكاب فى مايحصل به الفسق .

قال اللّه تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ . [1]

المعنى : أنها لاتختص بالظالمين وحدهم ، بل تشملهم وتشمل غيرهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقرأ طائفة من السلف [2] : ﴿لَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾وكلا القراءتين حق ، فإن الذى يتعدى حدود اللّه هو الظالم ، وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه ، وقد يجعل ظالماً باعتبار ماترك من إنكار الواجب ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[3] فأنجى اللّه الناهين ، وأما أولئك الذين كرهوا الذنب ومن قالوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فالأكثرون على أنهم نجوا أيضاً لأنهم كانوا كارهين للذنب وأنكروا بحسب قدرتهم ، وأما من ترك الإنكار مطلقاً فهو ظالم لنفسه وغيره ، فوجب أن يعذب كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « *إن الناس إذا رأو المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم اللّه بعقاب منه* »[4]

والحديث مطابق للآية موافق لها ، والمقصود هنا أنه يصح النفى والإثبات فى الآية باعتبارين كما أن قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ، لايختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره ، ومن ثمَّ يعم بلاؤها من وقع ومن رضى ، هذا لوقوعه وفساده ، وهذا برضاه وسكوته وإقراره ، ومن قرأ من السلف ﴿لَتُصِيبَنَّ﴾ يكون المعنى أنها تختص بالظالم وحده فقط ولاتتعداه إلى غيره . [5]

هذا العذاب قد يكون فى الدنيا ،ثم يبعث اللّه الناس على نياتهم ، كما فى حديث

1 ـ سورة الأنفال آية 25 .

2 ـ هى قراءة لزيد بن ثابت ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد اللّه بن مسعود رضى الله عنهم جميعاً ، التذكرة 610 .

3 ـ سورة الأعراف آية 165 .

4 ـ الحديث أخرجه ابن ماجة فى سننه ، كتاب الفتن 2/ 1327 ، وأحمد فى مسنده 1/ 2 ، 5، 9 .

5 ـ مجموع الفتاوى 7/ 382 .

الجيش الذى يغزو الكعبة . . . وفيه قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث* ، *فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم* » فقلت [1] يارسول الله فكيف بمن كان كارهاً ؟ قال : « *يخسف به معهم* ، *ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته* » [2] .

فبدرجة الكره والإنكار يؤدى المرءما عليه إن لم يستطع غيرهما ، وبشرط الإخلاص فيهما لله والتبرؤ من ذلك ، وهجر المكان ماأمكن كما هو صنيع بعض السلف[3] .

قال مالك : « تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها » .

وقال : « لاينبغى الإقامة فى أرض يكون العمل فيها بغير حق ، والسب للسلف » [4] .

فإن هم سكتوا ولم يحدث تغيير وإنكار بأقل درجاته ، فالكل آثم والكل معاقب بهذا الإثم .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : «أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب» .

وقال الحافظ ابن حجر[5] : «ولهذا الأثر شاهد من حديث عدى بن عميرة [6]

---

1 ـ التى فى سندِ الحديث ، أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها ، وقد ذكر مسلم بعد هذه الرواية حديثاً من رواية حفصة وقال : عن أم المؤمنين ولم يسمها ، فالحديث إذاً محفوظ عن السيدة حفصة ، وعن أم سلمة ، وقد قيل : إن أم سلمة توفيت قبل فتنة ابن الزبير فى خلافة معاوية ، فذكرها إذاً غير مستقيم ، ومن قال إنها توفيت أيام يزيد فالأمر مستقيم ، قال الدارقطنى : هى عائشة ، انظر صحيح مسلم ، بتحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى 4/ 2209 .

2 ـ الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفتن 4 / 2280 ، والبخارى فى صحيحه تعليقاً فى كتاب الحج 2/ 183 ووصله فى البيوع 3/ 86 ، وأحمد فى مسنده 6/ 105 ، 109 .

3 ـ هكذا كان الحكم فيمن قبلنا ، هجر أماكن الفتنة كما فى قصة أصحاب السبت ، وبه قال مالك ـ رضى الله عنه ـ ، واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاوية .

4ـ التذكرة 612 .

5 ـ أحمد بن حجر بن على ، شيخ الإسلام (773 : 852هـ) ترجمته فى : أذيلة تذكرة الحفاظ 380 ، طبقات الحفاظ 552 ، شذرت الذهب 7/ 270 .

6 ـ عدى بن عميرة من بنى فزارة الكندى ، صحابى معروف ت 40 هـ ، الإصابة 2/ 470، تهذيب التهذيب7/ 169 .

سمعت رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقول : « *إن اللّه عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فإن فعلوا ذلك عذب اللّه الخاصة والعامة* »[1] .

فيكون هلاك الخاصة والعامة عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي والمجاهرة بها طهرة للمؤمن ونقمة للفاسق لقوله ـ ﷺ ـ « *ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته* » .

وعليه فإن شؤم المعصية يعم من وقع فيها ومن رضيها ، الأول بفعله ، والثاني برضاه وإقراره ، ومافي هذا ظلم ، أو تعارض مع النصوص الأخرى ، تلك التي توجب ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ذلك أن الواجب عند رؤية المنكر تغييره ، فإن هو فعل فقد أدى ماعليه ، وإن هو عجز عن التغيير أنكر بقلبه ، وليس وراء ترك الإنكار حبة خردل من إيمان ، ولهذا لايعذر أحد بتركه .

فأما إن سكت ولم يعمل على بلوغ تلك الدرجة فهو عاص برضاه وسكوته ، كما أن الفاعل عاص بفعله ، وقد جعل اللّه بحكمه وحكمته الراضي بمنزلة الفاعل فانتظما في العقوبة معاً ، دليله قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ** ﴾[2]، ففيم تكون المثلية؟

إنه يجب أن تتولد عند الناس غيرة ، مقاومة لكل منكر مهما كان ، فالمنكر منكر قليله وكثيره سواء ، وإلا لزم الجميع عاره ، وكان كل من رضي به كمن فعله .

قال وهب [3]: لما أصاب داود الخطيئة قال يارب اغفر لي ، قال : «**قد غفرتها لك وألزمت عارها بني إسرائيل**» ، قال : كيف يارب وأنت الحكم العدل الذي لاتظلم أحداً ، أعمل أنا الخطيئة ويلزم عارها غيري ؟ فأوحى اللّه تعالى إليه : ـ «ياداود إنك لما اجترأت

---

1 ـ أخرجه أحمد في مسنده 4/ 192 ، وأبو داود في سننه ، ملاحم 4/ 124 ، وإسناده حسن فتح الباري13/ 4 .

2 ـ سورة النساء آية 140 .

3 ـ وهب بن منبه بن كامل ، أحد التابعين الثقات ، حدث عن جملة من الصحابة ، كان يقول : العلم خليل المؤمن ، والحكم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق أبوه ، واللين أخوه ، وقال المؤمن ينظر ليعمل ، ويتكلم ليفهم ، ويسكت ليسلم ، ويخلو ليغنم ، وقال : استكثر من الإخوان مااستطعت فإن احتجت إليهم نفعوك ، وإن استغنيت عنهم لم يضروك ، ترجمته في : طبقات ابن سعد 5/ 543 ، الحلية 4/ 23 ، طبقات الشيرازي 74 ، وفيات الأعيان 6/ 37 ، سير أعلام النبلاء 4/ 544 تهذيب التهذيب 1/ 166 .

على بتلك المعصية لم يعجلوا عليك بالنكرة» .[1]

ومن هذا أنه لما حسَّن رجل عند الشعبى[2] قتل عثمان بن عفان[3] قال الشعبى : قد شركت فى دمه .

ومنه الحديث« *إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة ـ فانكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها .* »[4]

غاية الأمر أن التصدى للمنكر فرض حتم على كل مسلم ، حفاظاً للأمة وحرزاً لها ، وليس هذا من فروض الكفايات التى يعفى بتركها بعض الناس ، فكل حسب طاقته ، فاحرص على النطق بكلمة الحق ، واعمل على رفض الباطل ومقاومة الضلال **﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** ، واستكمل إيمانك وطاعتك بقوتك الإيمانية والعلمية ، ثم كمل غيرك بوصيته بذلك ، وأمره بملاك ذلك كله وهو الصبر ، ولاتكن من الخاسرين الغافلين عن نفع نفسه ونفع غيره ، بل اعرف الحق واشتغل بدلالة الخلق عليه ، فلانجاة حتى يوصى بعضنا بعضاً ويرشده ـ فكل من عدا هؤلاء ـ من كمل نفسه وكمل غيره ـ فهو من الخاسرين .

هذا ـ وللفتن علاقة وثيقة ، وارتباط محكم بانتشار المنكر وذيوعه ، وظهوره ، والمطالع لدواوين السنة يدرك عمق هذا الارتباط .

---

1 ـ التذكرة 611 .

2 ـ عامر بن شراحيل ، الإمام العلامة ت 104 هـ من أقواله : مابكيت من زمان إلا بكيت عليه ، إنا لسنا بالفقهاء ولكن الفقيه من إذا علم عمل ، مااختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ترجمته فى : طبقات ابن سعد 6/ 246 ، تاريخ بغداد 12/ 227 ، طبقات الشيرازى 81 ، وفيات الأعيان 3/ 12 ، سير أعلام النبلاء 4/ 294 ، تذكرة الحفاظ 1/ 74 .

3 ـ من السابقين الصادقين ، قتل شهيداً مظلوماً فى داره ، قاتل الله قاتله ، سنة 35 هـ له ترجمة مشهورة وقد قام بدراسة حياته دراسة علمية الشيخ الفاضل محمد الصادق فى كتابه« عثمان بن عفان الخليفة المفترى عليه» وانظر تذكرة الحفاظ 1/ 8 ، معرفة القراء الكبار 1/ 24، طبقات الحفاظ 13 ، شذرات الذهب 1/ 40 .

4 ـ الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ، ملاحم 4/ 124 وعنده أيضاً " لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم " وانظر طرقاً للحديث فى تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/ 311 .

الهلاك واحد ... والمصادر شتى :

متى ظهر المنكر ، وجاهر الناس بالمعاصى وعالنوا بها . . . يكون إهلاك الناس جميعاً ، ثم يبعث الله الناس على نياتهم .

فيكون الهلاك واحد بلا تفريق أو تمييز . . . دل على هذا الحديث المتقدم فكيف بمن كان كارهاً ؟ **قال : " يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته . "**

وفى بعض طرقه « *إذا أنزل الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم* » [1] ويشهد له ماأورده ابن حبان [2] أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « *إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب* » .

وعنده أيضاً « *مامن رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيروا ، إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا* » [3]

ويجمع بين هذه النصوص عموم الهلاك والعقاب للطائع والعاصى ، ويجازى كل إذا بعث وعمله ، والعمل مختلف ، والنوايا لايطلع عليها إلا الله ـ قال تعالى : ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً**﴾ [4]

لقد تنوعت الأعمال ومن قبلها تنوعت النوايا ، ولايلزم من الاشتراك فى صفة العقاب الجماعى الدنيوى بالموت ، لايلزم منه الاشتراك بعد ذلك فى العاقبة والجزاء الأخروى ، وإنما ينال كل بمقدار ماقدم وعمل .

فإذا تساوى الناس فى تحسى كأس المنون ، لافرق بين غبى وألمعى ، وأن الموت قدر محتوم لاينجى منه فرار أو حذر ، وأن الكل سيموت الموتة التى كتبها الله تعالى له ، وفروق هائلة بعد ذلك فى المنزلة والحياة البرزخية ، ومايلى ذلك من مواقف ومشاهد ،

---

1 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الفتن 9/ 71 من حديث ابن عمر .

2 ـ ابن حبان : محمد بن حبان بن أحمد ، أبو حاتم البستى أحد فقهاء الدين وحفاظ الأثر ، ومن أوعية العلم (270 ـ 354) هـ ترجمته فى : معجم البلدان 1/ 415 ، سير أعلام النبلاء 16 / 92 ، تذكرة الحفاظ 3/ 920 ، ميزان الاعتدال 3/ 506 ، لسان الميزان 5/ 112 ، شذرت الذهب 3/ 16 .

3 ـ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 1/ 261 .

4 ـ سورة الإسراء آية 84 .

من هنا فإذا عجز المرء عن مقاومة المنكر بمراتبه المختلفة استحب له أن يهرب من مواطن الفتنة ، فقد جوز العلماء الهرب من الظلمة والفسقة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة ، هذا إذا لم يعنهم ويرضى بفعالهم ، فأما إذا أعان ورضى فهو منهم مشارك لهم.

معنى هذا : أنه متى وجد المرء سبيلاً إلى هجر أماكن الفتنة فلا يتردد فى تركها فقد أذن النبى - ﷺ - بالإسراع فى الخروج من ديار ثمود .

فإذا كانت الديار كلها ثمودية - فما العمل - ؟

يصور لنا ذلك ماأثر عن عمر بن عبد العزيز (1) - رضى اللّه عنه ، قال : « فلان بالمدينة وفلان بمكة ، وفلان باليمن ، وفلان بالعراق ، وفلان بالشام امتلأت الأرض جوراً » . (2)

وهذا عين الفتنة ، أن تكون بمكان يعمل فيه بالبلاء فتريد الانتقال إلى مكان آخر لايعمل فيه بالبلاء فلا تجده .

وأخيراً ، فإن بعث الناس على نياتهم وأعمالهم من مقتضيات العدل ، لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيراً لما قدموه من عمل سيىء ، فكان العذاب المرسل فى الدنيا من الذين ظلموا ، يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم ، فكان ذلك جزاء على مداهنتهم ، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله . (3)

---

1 - الأمير الزاهد ، والإمام المجتهد عمر بن عبد العزيز ، قال عنه جده عمر بن الخطاب : إن من ولدى رجلاً بوجهه شطر يملأ الأرض عدلاً ، ومن أقواله : من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، إن لى نفساً تواقه وإنها لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه ، فلما أعطيت مالا أفضل منه تاقت إلى ماهو أفضل منه " يعنى الجنة " إنى لأدع كثيراً من الكلام مخافة المباهاة " ترجمته أفردها ابن عبد الحكم بكتاب مستقل " سيرة عمر بن عبد العزيز ، وانظر طبقات ابن سعد 5/ 330 - حلية الأولياء 5/ 253 ، طبقات الشيرازى 64 - سير أعلام النبلاء 5/ 114 ، تذكرة الحفاظ 1/ 118 ، تهذيب التهذيب 7/ 475 .

2 - التذكرة 612 .

3 - فتح البارى 13/ 61 .

تأمل ، من كان معهم ولم ينكر عليهم ، فكيف بمن زين لهم ؟ وأعانهم على ظلمهم؟ وفى هذا تظهر جوانب المعارك الدائمة بين القائمين لله بالحجة وبين المعاندين.

وهذى الليالى كلها أخوات.

الأيام بنت الليالى ، والليالى تلدن كل عجيب .

لابد من بيان حالنا وحال زماننا الذى نعيش فيه ، وإثبات أن المسلم المتمسك بدينه يعيش غربة مابعدها غربة ، وأن محن الإسلام ، وابتلاءات المسلمين لم تكن فى أى وقت كما هى الآن ، وأن حرمان المسلم من العيش فى ظلال الإسلام لم يحدث فى التاريخ كله كما هو حادث فى هذا الزمان ، وأن أوجها من الشبه عدة تربط بين واقعنا المعاصر اليوم ، وماكان عليه العرب فى جاهليتهم الأولى قبل الإسلام.

ملامح جاهلية:

من ينظر فى واقعنا المعاصر ، وفى واقع العرب قبل الإسلام يجد أوجهاً من الشبه عدة، وكأنى بالعالم حين واجهه الرسول ـ ﷺ ـ ، كما هو الآن .

فهل علينا أن ندرك أو نراعى هذا التشابه؟

ولماذا؟

لنصل إلى القيمة التى قررها الإسلام للإنسان.

ولنتأمل معالم الهبوط والارتقاء ، فنعرف معالم تلك النقلة البعيدة المدى فى شتى جوانب الحياة .

ولندرك عمق الفارق بين تلك المعالم ، وبين حالات التردى والتراجع ، فنعلم جميعاً أننا بالإسلام نكون ، فإذا لم نكن بالإسلام فلن نكون ، وإذا لم يكن الإسلام بنا فسيكون بغيرنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[1]، وإذا صح أن يوصف عالم اليوم بأنه يعيش مرحلة التيه ، أو مرحلة المقت، لما كان فى الأمر غرابة ، إذ لم يمر العالم بتجربة أمر ولا أقسى مما هو عليه الآن.

---

1 ـ سورة محمد آية 38.

ومن ملامح ذلك.

* تلك الاتجاهات المتناقضة والمتتابعة ، التى تستولى على الإنسان ، توزعه ، وتشتته ، وتوسع الفجوة بينه وبين مايصبو إليه من أمن وأمان وسكينة واستقرار.

*التدمير النفسى والروحى للشخصية الإنسانية ، وانتكاس فطرة الإنسان قديماً وكذلك اليوم ، إذ لو ألقى الإنسان نظرة متأنية فى حياة العرب قبل الإسلام لرأى مايفطر الأكباد ويزلزل العقول ، ذلك أن العرب قديما خاضوا فى الشهوات والشبهات ، ووقعوا فى الأدناس. .

ومثل هذا تجده اليوم ؛ همة أحدهم بطنه ودينه هواه.

* ظهرت فى الناس سكرتان : سكرة الجهل ، وسكرة حب العيش.

*أصيب البناء النفسى والروحى بزلزال هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شىء فى غير محله هانت على الإنسان إنسانيته ، فسد عقله وذوقه ، وضاع نظام تفكيره ، انقلبت الأمور ، تغيرت الأوضاع ، فصدق فى موضع الكذب ، وكذب فى موضع التصديق ، وآمن فى موضع الشك ، وارتاب فى موضع اليقين.

* اختلت الموازين ، وتداخلت الخطوط ، وفسدت الأذواق ، وانعكست العواطف فلم توظف التوظيف الملائم.

فانقلبت إليه ، وعادت وبالاً عليه.

ومثل هذا كائن الآن.

*سيطر على الناس الهوى ، فعنه يصدرون ، وإليه يردون ، وإذا كان هذا حالنا فقد سقطنا وخسرنا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين.

*أصبح الإنسان نموذجا للتناسى ، نسيان الهدف ، الغاية من الوجود ، نسيان النفس ، ومن ثمَّ فقد تغير فيه كل شىء بحكم التناسي ، تحولت الفضيلة رذيلة والسنة بدعة ، والشجاعة فتكاً وتهوراً ، وهمجية.

* اختلت الموازين والمعايير ، وانطلق الناس مع الأهواء ، وأصبح البشر نوعاً من السوائم حتى فى رقيهم وتقدمهم المادى والعمرانى ، فلو ذهبت تحلل التقدم الذى أحرزه

البشر العصريون فلن تجد إلا طباع الحيوان ، فصائل السباع ، مخالب الطيور ، مناسر اللصوص .

* انتكست الفطرة ، كان هذا هو الواقع قبل الإسلام ، وهو الواقع السائد الآن ، وسيزداد سوءاً ، مما يغمر القلب كآبة ثقيلة ، ولعله مما يشق أمره استقصاء الأحوال وتتبعها، ومأأهدف إلا إلى :ـ

أ) الربط الواقع بين العهدين فى كل شىء تقريباً ، ثم مايترتب على ذلك من انحطاط وضياع وسقوط .

ب) سرعة العودة إلى الأصل ، وضرورة أن تفيىء البشرية إليه ، وأن تعود إلى قواعدها الربانية .

وبدون هذه العودة إلى ـ الكتاب والسنة ـ فإن كل شىء لايبقى فى مكانه اللائق به ، بل سيفارقه إلى غير رجعة .

ولعل مما يبعث على العجب والاستغراب أن الناس قديماً لم يكن قد بعث فيهم رسول ، أو جاءهم نبى كما أخبرنا ربنا ـ سبحانه ـ : **﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾**[1] ، **﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[2]

لكن ماعذر البشرية الآن؟

وماعذر المؤمنين من البشرية الآن ؟

إنه بمقدار مايتساهل المسلمون فى تحقيق إسلامهم بمقدار مايضيعون فى الحياة .

وبمقدار مايضيعون بمقدار مايتواجد غيرهم

إن العالم المادى إنما يتقدم بعوامل تأخرنا ، وبحكم نسياننا لوظيفتنا ، وحقيقة أنفسنا وعجزنا عن أن نخطو خطوة فى دائرتنا الإنسانية ، " ومن يفقد القدرة على الصعود لايملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض " .[3]

---

1 ـ سورة يس آية 6

2 ـ سورة السجدة آية 3 .

3 ـ وجهة العالم الإسلامى ـ مالك بن نبى 25 .

ثم ماذا ؟ تكون النتيجة أن يتقدم العالم بالوفاق ونتأخر نحن إلى الوراء .

إذا لم نجد إلا أخانا.

قديماً كانت الأمة مهلهلة ، منقسمة حتى على نفسها ، موزعة فرقاً وشيعاً وأحزاباً ، لم تكن لها إمامة أوقيادة واعية حكيمة توجهها أو تأخذ بيدها .

لم تكن لها قوانين تضبطها أو تكبحها ، تقوم الحروب بينها لأتفه الأسباب وربما بدون أسباب ، فإذا لم يجدوا من ينابذوه العداء أو يحاربوه ، حاربوا أنفسهم .

بغــــاة ظــالمين ومــاظلمــنـــــا ولكـنا سنبـــدأ ظالمـــــــين

وأحيــانــــــا عـلى بكر أخينــــا إذا لــــم نجـــد إلا أخانــــا

ترى الناس إن سرنا يسيرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

هذه مآثرهم ، وماخلفوه من مناقب ، كما تحفظها سجلاتهم ودواوين أشعارهم .

فهل يختلف الآمر الآن ! وهل حال الأمة اليوم يفترق عن حالها قبل الإسلام؟

بطر يتملك المرء كلما شعر بتفوق .

تحكم في إرادة الآخرين .

لم يعد الصغيريأمن الكبير ، ولا الجار جاره ، ولا الأخ أخاه .

وعندما يبلغ مجتمع ماهذه الحالة وتتوقف رياح الدفع التى حركته نحو الوعى والقيم والخير ، عن تحريكه تفقدالأمة أعز مالديها بإهماله وإهداره ، وثمن هذا الإهمال والإهدار العذاب من حيث لاتشعر .

لقد كان للعرب قديماً وجود أتت عليه عوامل الفناء والدمار ، فعاقبهم اللّه ، وأنزل بهم قانونه العادل الذى لايرد عن القوم الظالمين : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[1] ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا

1 ـ سورة سبأ آية 17 .

أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [1]

ذبذبة بين قوتين:

في القديم كان العالم يسوده قوتان : الفرس والروم ، والعرب لأيهما تبع .

أكاسرة الفرس يدعون الناس لتقديس الدماء التى تجرى فى عروقهم ، فهى دماء آلهة ليست من نوع دماء العامة ، وعلى الناس أن ينظروا إليهم كآلهة لاتجرى أسماؤهم على ألسنتهم ، وأنهم فوق القانون والانتقاد ، وأن لهم حقوقاً على كل الناس وليس للناس حق عليهم .

ولم تكن الأمم فى ظل الحكم الرومانى إلا خادمة ، تستهين الدولة بكل حق ومبدأ ، ولايمنع من هذا الاشتراك فى دين أو عقيدة ، والاخلاص والوفاء للملكة .

والأمم ناقة ركوب فى بعض الأحيان ، حلوب فى بعضها ، لايقدم لها من العلف إلا مايقيم صلبها أو يدر ضرعها .[2]

باختصار كانت النظم لاتحس بشيء من العطف نحو الشعوب الخاضعة لها .

فماذا كانت نظرتها إلى أمة العرب ؟

كان العالم لايأبه بالعرب ، ولايقيم لهم وزناً ، كان العرب كما حكى القرآن : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]

أرأيت ؟ إنهم قليل ، وماذا بعد قليل ومستضعفون فى الأرض ؟ بعمومها واختلاف أماكنها ، لاعدد ولاقوة ، بل ضعف ، قلق ، خوف ، فزع ، وجل ، زيغ .

تخافون ، ومن أى شيء ؟ إنهم أشبه بقطعة لحم صغيرة فى يد طفل .

أعلمت دلالات هذه الكلمات وماتلقيه فى الحس من ظلال وإيحاءات ؟

قليل ، ومن القلة لاترى ولو بالمجاهر المكبرة .

1 ـ سورة الزمر آية 54 ، 55 .
2 ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين 49 ـ 77 .
3 ـ سورة الأنفال آية 26 .

مستضعفون فى الأرض ، كل الأرض .

لاقوة ، ولاعدد .

هذا قدر العرب كما صوره القرآن ، فانظر قدرهم عند عدوهم وعند أنفسهم .

" لما كان يوم القادسية ذهب المغيرة بن شعبة [1] فى عشرة إلى صاحب الفرس فقال : إنا قوم مجوس ، وإنا نكره قتلكم لأنكم تنجسون علينا أرضنا " . [2]

فتأمل هذا ، نكره قتلكم ، ولماذا ؟ وأى هوان بعد ذلك ؟

ثم لندع واحداً من الأصحاب يصور لنا وضع العرب قبل الإسلام .

قال عبد الله بن مسعود : " لقد كنا كالغنم فى الليلة الشاتية " .

وقال أبو برزة الأسلمى [3] وقد سأله أبو المنهال : [4] ألا ترى ماوقع فيه الناس ؟ قال : إنى احتسبت عند اللّه أنى أصبحت ساخطاً على أحياء قريش ، إنكم يامعشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة ، والقلة ، والضلالة ، وإن اللّه أنقذكم بالإسلام ومحمد ـ ﷺ ـ ، حتى بلغ ماترون وهذه الدنيا قد أفسدت بينكم . [5]

كان هذا أمراً سائداً ووضعاً قائماً قبل الإسلام .

ثم تأمل بعده معالم النقلة البعيدة المدى ، والوثبة الفسيحة الواسعة ، أسبابها ، آثارها ، خطواتها ، ضوابطها ، مجالاتها ، مدى مافيها من عموم وشمول . . . لنصل

1ـ المغيرة بن شعبة بن أبى عامر ـ الأمير ، من كبار الصحابة وذوى الشجاعة والمكيدة ، ويقال له مغيرة الرأى ، اختلف فى سنة وفاته فقيل 50 هـ ترجمته فى : طبقات ابن سعد 4/ 184 ، تاريخ بغداد 1/ 191 ، سير أعلام النبلاء 3/ 21 ، شذرات الذهب 1/ 56

2ـ سير أعلام النبلاء 3/ 32 .

3ـ أبو برزة : نضلة بن عبيد الأسلمى ، أسلم قديماً وشهد فتح مكة ت 60 هـ ، قيل كانت له جفنة من ثريد غدوة ، وجفنة عشيه للأرامل واليتامى والمساكين . له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 4/ 298 ، الجرح والتعديل 3/ 355 ، تاريخ بغداد 1/ 182 ، سير أعلام النبلاء 3/ 40 ، تهذيب التهذيب 10/ 446 .

4ـ سيار بن سلامة الرياحى ، من ثقات التابعين ت 129 هـ له ترجمة فى : تهذيب التهذيب 4/ 290 ، تقريب التهذيب 1/ 343 .

5 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 9/ 72 ، وأورده ابن سعد فى طبقاته 4/ 300 ، وأبو نعيم فى الحلية 2/ 32 ، والذهبى فى سير أعلام النبلاء 3/ 43 مختصراً .

معاً إلى أنه لابتر للمفهوم التاريخى .

ولا إبطال للماضى ولاانسلاخ عنه ، ولاتمرد ، أو عصيان عليه .

وتتضح أهمية هذا فى أنها تتيح لنا رصد عوامل الإنحطاط والتقهقر ، إلى جانب عوامل النماء والتقدم رصداً موزوناً فى الآن الواحد والوقت الواحد ، بلا بتر ولاتجزئة أو انفصال .

" إن ظاهرة التقدم غير منفصلة عن ظاهرة التأخر ، وإن العالم الإسلامى لفى مسيس الحاجة فى هذه النقطة إلى أفكار واحدة تهدى سعيه نحو النهضة ، ولهذا فإن مما يهمنا فى المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التى حتمت تقهقره وانحطاطه "[1] .

ثم ليكون بمثابة التنبيه لنا إلى أن مانزل بغيرنا نازل بنا ولايظلم ربك أحدا ، فمعاملة رب العالمين للأمم لاتدخلها المحاباة ، وقانون اللّه تعالى واحد ، ومن صفى صفى له ، ومن خلط خلط عليه ، ومن أحسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفىء فى ليله .[2] .

وفوق هذا كله وزيادة على ماتقدم من أوجه للربط بين الجاهليتين ، فإن ثمة أمر آخر هو : رفض التحاكم إلى شرع اللّه تعالى وحده ، والتحاكم إلى شرائع بشرية وضعية .

ولئن كان للناس قبل الإسلام عذرهم ، فليس لهم من عذر الآن .

ليس من عذر يتمسك به أبناء الإسلام فى تغييبهم للإسلام .

وليس من عذر فى غياب الوعى والفهم العملى للإسلام .

وليس من عذر فى تعطيل شرع اللّه .

وليس من عذر فى استيراد وانتشار الأفكار والثقافات الوافدة ، الغريبة .

إنها لظاهرة مفتنة ، وإنها لجديرة بالملاحظة ، تلك هى السرعة الهائلة فى اتجاهنا نحو الغرب ، خاصة فى مجال الثقافة والفكر ، واللّه تعالى يقول : **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[3]

---

1 ـ وجهة العالم الإسلامى 26 .   2 ـ صيد الخاطر 34 .
3 ـ سورة العنكبوت آية 51 .

عصر الجاهلية العربية:

وأخيراً ماذا يمكن أن نسمى عالمنا العربى بأهواله ؟ وأى وصف يمكن أن يوصف به؟ ماذا بقى من أوصاف بعدما قيل : نكبة ، كارثة ، نكسة ، ضباب حسم ، عنق الزجاجة ، النفق المظلم ، الصمود ، الانفتاح ، أوراق الحل بيد . . . ، التطرف، الأصولية ، الجمود، الجيل لمخدوع ، بلادة الحس؟

عشرات الأسماء ، وإن جبلنا على اختراع الألقاب والعناوين الضخمة، والمظاهر الكبيرة فما من شك فى أننا نحب أن تخترع لنا الألقاب.

ثم ماذا ؟ كانت المحصلة لهذا كله ماجاء فى هذا التقرير :

" لقد شهدت تقارير لجان حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية سنة 1990 ميلادية بألف واقعة ودليل على أن مؤشرات إهدار كرامة الإنسان العربى فى تصاعد وبصورة لافتة للنظر ، وأن التقدم الذى أحرزه العالم اقترن بتراجع محزن فى العديد من أقطار العالم العربى " ![1]

1 ـ جريدة الخليج 1 / 1/ 1991 .

الفصل الثانى

بداية الفتنة تبديل

- معنى التبديل.
- التبديل سمة من ...؟
- جنايات المبدلين.
- الاعتصام بالميثاق.

- من الأدب إجراء الأحاديث التى خرجت مخرج الزجر والتنفير على ظاهرها من غير تأويل ، فإنها إذا أولت خرجت عن مراد الشارع.

- " إن من يفقد القدرة على الصعود لايملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض."

بداية الفتنة تبديل....

إن بلاء الإسلام ومحنته عظمت من المبدلين والمحدثين فى دين الله ماليس منه .

فما من فساد إلا ومنشؤه التبديل ، ولقد جرى على الإسلام منه ماجرى .

بل هو أعظم الجنايات على الدين ، وأصل فساد الدنيا والآخرة وخراب العالم .

فما التبديل؟

قيام الشيء مقام الشيءالذاهب .

بدل : غير ، جعل شيء مكان شيء آخر بعوض أو بدونه ، فهو التغيير مطلقاً .(1)

هذا الأمر عام فى كل تبديل وإحداث لا يحض أمرا دون آخر ، ولاتتخلف محدثة دون أخرى فى حكم الفساد كما لايستثنى من أفرادها شيء أو يخرج جنس وإلى هذا يشير قول النبى - ﷺ - « ***من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهورد*** »(2) .

وقوله« ***من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد*** »

وتحذيره - ﷺ - من المحدثات ، « ***وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة*** »(3)

على سبيل العموم والإطلاق .

والحديث الأول واحد من أصول الإسلام العظيمة ، وموازين الأعمال الظاهرة ،

---

1 - معجم مقاييس اللغة 1/ 210 ، المفردات 39 .

2 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود 3/ 241 ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور 3/ 1343 ، وأبو داود فى سننه 4/ 200 ، وأحمد فى مسنده 6/ 270 ، وابن حبان فى صحيحه ، انظر الإحسان 1/ 14، 116 .

3 - الحديث أخرجه أبو داود فى سننه 4/ 201 ، وابن ماجة فى سننه 1/ 15/ 16 ، والدارمى فى سننه 1/ 44 ، والترمذى فى سننه 4/ 44 ، وأحمد فى مسنده 4/ 126 .

وأحد مدارات قواعد الدين الإسلامى .

عده الإمام أحمد ثلث الدين .

وعن اسحاق بن راهويه [1] قال : « أربعة أحاديث هى أصول [2] الدين وعده منها »

فأمر التبديل والتغيير مهما قل ، عظيم خطير .

وهذا أمر مجمع عليه ومحل اتفاق بين سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم ، إجماع ثابت، عموم وإطلاق ، ذلك أن التبديل مغايرة ومعاكسة ، طرح شىء وإحلال آخر مكانه .

ففيه مضادة للشرع ، ومشاقة للشارع ، ولذلك ترى المبدلين يؤولون كل مايخالفهم ويتبعون كل شبهة توافقهم ، طلباً للفتنة ، وهوماصرحت به الآية من سورة آل عمران ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ . [3]

فذم متبعى تأويل المتشابه ، وقرنه بمبتغى الفتنة فى الذم ، ثم أخبر أن المتشابه لايعلمه إلا اللّه ، وقد دلت الآية على وصفهم بالزيغ الذى هو الميل عن حد الاستقامة، فلما فارقوا الاستقامة ومالوا عنها ، عاملهم بذلك . [4]

قال اللّه تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ . [5]

والزيغ يوصف به القلب والبصر كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ** ﴾[6]

---

1 ـ سيد الحفاظ ، الإمام الكبير اسحق بن إبراهيم بن مخلد (161 ـ 238 هـ) له ترجمة فى : تاريخ بغداد 6/ 345، طبقات الشيرازى 78 ، طبقات الحنابلة 1/ 109 ، وفيات الأعيان 1/ 199 ، ميزان الإعتدال 1/ 182 ، سير أعلام النبلاء 11/ 358 ، تهذيب التهذيب 1/ 216 ، شذرات الذهب 2/ 89 ، الرسالة المستطرفة 65 .

2 ـ وحديث : إنما الأعمال بالنيات ، وحديث : **إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً** ، **وحديث : الحلال بين والحرام بين .**

3 ـ سورة آل عمران آية 7 .

4ـ المفردات ـ 217

5 ـ سورة الصف آية 5 .

6 ـ سورة الأحزاب آية 10 .

وكما وصفهم بالزيغ الذى هو الميل عن الاستقامة ، وصفهم باتباع المتشابه ، وهو قسيم المحكم ، الواضح الذى يعلمه الكثير من الناس لصفائه [1] ففى طبعهم عناد وشذوذ، قد شذوا فى اتباع الشرع ، وذلك باتباعهم المتشابه الذى تحار العقول فى فهمه ، وتختلف فى تحديد مقصوده ، لغموضه ، ودخوله فى شكل غيره ، ولتفرد أهل الرسوخ فى العلم بعد اللّه بفهمه ومعرفته ، وذلك برده إلى المحكم ، أو بالتفسير الصحيح الذى لابد منه عند احتماله أوجهاً كثيرة ، وعدم استقلاله بنفسه .[2]

ولظهور الربط بين التبديل والفتن ، ترجم البخارى لأول حديث فى الفتن بقوله " باب : ماجاء فى قوله تعالى : ﴿**واتَّقوا فتْنَةً لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصَّةً**﴾ وماكان النبى - ﷺ - يحذر من الفتن .

قال ابن حجر : يشير إلى ماتضمنه حديث الباب من الوعيد على التبديل والإحداث، فإن الفتن غالباً إنما تنشأ عن ذلك . .

ثم ذكر حديث أسماء بنت أبى بكر [3] مرفوعاً « *أنا على حوضى أنتظر من يرد على فيؤخذ بناس من دونى أقول أمتى فيقال لاتدرى ، مشوا على القهقرى* » .[4]

قال ابن أبى مليكة [5] : " اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن "[6] .

---

1 - انظر البرهان للزركشى 2/ 68 ، مناهل العرفان 2/ 270 .

2 - صحيح البخارى 9/ 58 .

3 - أسماء بنت أبى بكر - والدة عبد اللّه بن الزبير - تلقب بذات النطاقين ، كانت أصغر من السيدة عائشة ببضع عشرة سنة ، عاشت إلى أوائل سنة 73هـ ، قالت لابنها : يابنى عش كريماً ومت كريماً ، لايأخذك القوم أسيراً، طبقات ابن سعد 8/ 249 ، سير أعلام النبلاء 2/ 287 ، تهذيب التهذيب 12/ 398 ، الإصابة 4/ 229 .

4 - المشى إلى الخلف من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه ، وقيل : هو ضرب من الارتداد عما كان عليه . النهاية4/ 129 .

5 - ابن أبى مليكة عبد اللّه بن عبيد اللّه ، كان قاضياً لابن الزبير ت 117هـ وكان عالماً مفتياً ، صاحب حديث وإتقان له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 5/ 473 ، تذكرة الحفاظ 1/ 101 ، سير أعلام النبلاء 5/ 88 ، تهذيب التهذيب 5/ 306 ، طبقات الحفاظ 41 .

6 - صحيح البخارى 9/ 58 .

فانظر كيف قرن بين الرجوع على الأعقاب والفتنة . . .

حكيم الأمة يخاف:

لما حيل بين المبدلين وبين النبى ـ ﷺ ـ ، ربما بسبب ردتهم ، أو بما أحدثوه ، وابتدعوه وبدلوه ، ولأنهم لم يموتوا على ظاهر مافارقهم النبى ـ ﷺ ـ ، وتركهم عليه ، قال النبى ـ ﷺ ـ فأقول : " **سحقاً لمن غير وبدل . .** "

قال أبو الدرداء[1] : " فقلت يارسول اللّه ادع اللّه أن لايجعلنى منهم قال : " **لست منهم** " . [2]

فسبيل ورودك الحوض ، وعدم الحيلولة بينك وبين النبى ـ ﷺ ـ ، أن تكون على الطريق ، بلا تبديل ، ولاتغيير ، فإن كنت كذلك فأنت على الأثر ، قد كانوا يرون أنهم على الطريق ماداموا على الأثر ، وأمر الثبات واللزوم مقيد بالكتاب والسنة .

أمران لاثالث لهما

جعل اللّه إتباع الوحى مضاداً للتبديل وقسيماً له ، وحيثما تعين إتباع الوحى ، وجب رد ماعداه .

فإما الوحى وإما التبديل .

قال اللّه تعالى : **﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[3]

1ـ أبوالدرداء الإمام القدوة ، حكيم الأمة وسيد القراء ، مختلف فى اسمه ، فقيل : عامر ، وقيل عويمر ، مات قبل مقتل عثمان رضى الله عنهما ، من أقواله : أعوذ باللّه من تفرقة القلب ، قيل وماتفرقة القلب ؟ قال : أن يكون لى فى كل واد مال ، وقال : لولا ثلاث ماأحببت البقاء ؛ ساعة ظمأ الهواجر ، والسجود فى الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . طبقات ابن سعد 7/ 391 ، سير أعلام النبلاء 2/ 335 ، تذكرة الحفاظ 1/ 24 ، معرفة القراء 1/ 38 .

2ـ فتح البارى 11/ 385 ، وعزاه إلى الطبرانى وحسن اسناده .

3ـ سورة يونس آية 15 .

ففى الآية أمران متضادان .

القرآن .

قرآن آخر ؛ بدلاً من الأول ، مخترع أو مستحدث .

وتتكرر كلمة بدله ، ومايطلب إحلاله محل القرآن .

ثم الإصرار على اتباع الوحى ، وهذا كله واضح فى أن القصد ترك التبديل ، وفى الآية إشعار بأن المبدلين متبعون لأنفسهم يجرون وراء ذواتهم ، يضعون النفس فى مقابل الوحى ، غير عابئين بيوم الحساب ، متصورون أن القرآن يمكن أن يخترع .

سيد يشرح :

يقول رحمه الله :

وهو طلب عجيب لايصدر عن جد ، إنما يصدر عن عبث ، وهزل ، وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن ، وجدية تنزيله ، وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لايظنون أنهم سيلقون الله ! لايتوقعون لقاء الله ، كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية ، فما على محمد إلا أن يقبل التحدى ويؤلف قرآناً آخر أو يؤلف جزءاً مكان جزء . . .

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(1)

إنها ليست لعبة لاعب ولامهارة شاعر ، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان ، وهو أعلم بما يصلحه فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه ، وإن هو إلا مبلغ ، متبع للوحى الذى يأتيه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب أليم . (2)

---

1 ـ سورة يونس الآية 15 .

2 ـ فى ظلال القرآن 11/ 1771 .

التبديل سمة من ؟

فى معرض حديث القرآن عن المبدلين نعتهم بالمخلفين من الأعراب وبالظلم ، فحرموا معية الرسول - ﷺ - واستحقوا العذاب .

قال اللّه تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1]

هم إذاً مخلفون - تأخروا عن الركب لنقصان أو قصور شأن كل متخلف . .

همهم تحصيل غنم ليس إلا .

لايفقهون إلا قليلا ، فالفقه عصمة وقد حرموه .

قال اللّه تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .[2]

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ .[3]

وهاتان الآيتان فى معرض الحديث عن اليهود ، وماأحدثوه غير خاف على أحد .

لايظهر الود المستقيم من القلب السقيم:

الدين الإسلامى ليس موكولاً لأحد من الناس إذ كل موكول إلى الناس عرضة للضياع ، ورهينة للفساد ، والتبديل ، وقد أخبرنا ربنا أن الوحى مرتبط به ، غير مرتبط بالأشخاص ، وأن حظ الأشخاص منه علم وعمل ، واستقامة ولزوم وثبات . . وأن من لزمه وثبت عليه أكرمه اللّه تعالى ، وتكفل له بالهداية فى الدنيا وسعادة الآخرة .

1 - سورة الفتح آية 15 .
2 - سورة البقرة آية 59 .
3 - سورة الأعراف آية 162 .

أما من تنكب وأعرض وزاغ وراغ ، فقد أبعد نفسه عن الخير وأبعده الله .

فقد كانوا يرون أنهم على الطريق ماداموا على الأثر .

فالزمه زاداً وصيانة عن الضلال .

قال القاضى شريح [1] : لن تضلوا ماأخذتم بالأثر .

وكانوا يتواصون بالسنن فإنها قوام الدين ، والمخالف فيها على خطر عظيم .

والوفاء لمثلنا يجب أن نتعلمه ونترجمه سوراً من الحفاظ على السنن والدين ونماذج من الاتباع والاقتداء ، والرد إلى الحق والحمل على الصواب ، لاسيما عند تباعد الزمان ، وتشعب الناس ، وكثرة الاختلاف ، عندها أمر النبى ـ ﷺ ـ ، بلزوم السنة " **عليكم بسنتى** " . [2]

فعالج قلبك ، يظهر ودك ، وجاهد نفسك بأسياف الرياضات ، وألزمها الثبات على الأمر ، والعزيمة على الرشد ، فما فيك يظهر على فيك .

واحملها على ترك آراء المبدلين فقد كانوا يرونها دغل القلوب . [3]

ولاتقبل إلا على الشرط ـ شرط العرض على الكتاب والسنة ـ " فكل أمر لاح لك ضوءه بمنهاج الحق فاعرضه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة " . [4]

وزن جميع الأقوال ، والأحوال ، والأفعال بميزانها ، واتهم خواطرك تكن فى عداد

---

1 ـ شريح القاضى ـ الفقيه شريح بن الحارث بن قيس ت 78 هـ ، قال ميمون بن مهران : لبث شريح فى الفتنة ـ يعنى فتنة ابن الزبير ـ تسع سنين لايخبر فقيل له : قد سلمت : قال كيف بالهوى ؟ وقال إنى لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات : أحمد إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمد إذ رزقنى الصبر ، وأحمد إذ وفقنى للاسترجاع لما أرجو من التوبة ، وأحمد إذ لم يجعلها فى دينى . تذكرة الحفاظ 1/ 55 طبقات الحفاظ 20 ، شذرات الذهب 1/ 85 .

2 ـ الحديث تقدّم تخريجه/ 54 .

3 ـ أصله الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه ، أو هو من قولهم : أدغلت فى هذا الأمر إذا أدخلت فيه مايخالفه ويفسده ، النهاية 2/ 123 .

4 ـ رسالة المسترشدين 82 .

الرجال .

والأصل الأصيل فى ذلك أن ندور مع القرآن والسنة حيثما دارا ، لامع المبدلين المغيرين ، ولامع المفتونين بآرائهم وأهوائهم ، فإن صنيع السلف دوماً اتهام الرأى ، وهم أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً ، ورحمة ، وأبعدها عن الهوى والشيطان .

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

فليس بين أصحاب هذه القلوب والحق إلا أن يعلموه فيحبوه ويؤثروه وينقادوا له ويقبلوه ، وهو معنى الإخبات فى الآية إذ هو قرين التواضع ومرادف له ، قبول الحق ممن جاء به مع الرضا والتسليم .

والإخبات أول مقامات الطمأنينة كالسكينة واليقين والثقة بالله ، وهو ورد المأمن من الرجوع والتردد ، والواردات وكل مامن شأنه أن يقطع الطريق على القلوب فتمنعها من مطالعة الحق وقصده ، وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه ، أخذته أمواج الشبه ، ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .[2]

جنايات ؟؟

التأويل بالباطل يتضمن تعطيل ماجاء به القرآن والسنة ، والكذب على الله تعالى ، وعلى رسوله ـ ﷺ ـ ، بتحميل الكلام مالا يحتمله ، وصرفه عن مراد الله ، ومراد رسوله ـ ﷺ ـ وهو بداية الفتنة .

كما فيه إبطال للحق ، ونسبة المتكلم إلى مالايليق به من التلبيس ، والتقول بلاعلم .

من هنا يختل تماماً الترابط العضوى والموضوعى ، الفكرى والسلوكى ، بين ماهو ثابت فى الشرع وبين التطبيق ، ومن ثَمَّ يتكون لدينا كم هائل من النصوص المعطلة المهدرة

1 ـ سورة الحج آية 54 .

2 ـ مدارج السالكين 2/ 6 .

البعيدة عن الاستعمال .

وعندما يصبح أمر النص هكذا تفقد الأمة أعز مالديها .

هذا وقد أخذ التأويل صوراً ، ودعت إليه أغراض ، والتمست له تبريرات ومعاذير فى بعضها سذاجة ، وقلة اكتراث وحمقة ، وفيه ضرب من الكذب - إخبار بالشىء على خلاف ما هو عليه ، سواء كان عمداً أم لا ، وفيها محاولة إلباس الباطل ثوب الحق ، والكذب ثوب الصدق ، وايهام الناس أن فى هذا الصنيع خدمة للدين ، ومساعدة لصاحب الشرع ، حيث زعموا أنهم يكذبون له ، لاعليه .

وفى معرض رد العلماء على أصحاب هذا الزعم يقول ابن حجر :

" ومادروا أن تقويله - ﷺ - : مالم يقل ، يقتضى الكذب على الله تعالى ، لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية ، سواء كان فى الايجاب أو الندب ، وكذا مقابلهما ، وهو الحرام والمكروه " .(1)

ويترتب على هذا ، تعبيد الناس لربهم بغير مالم يأذن به ، وأن يعملوا بما لم يشرعه الله لهم أو يكون سبباً فى ترك ماأذن به وشرع ، وهذا مذموم باطل وتحريف للكلم عن مواضعه وابتداع وتأويل بغير دليل يوجبه .

ولاشك أن الإثم يلحق العالم العامد له ، ويزداد الإثم كلما زادت المفسدة المترتبة عليه .

ولاشك أيضاً أنه كلما ازداد التأويل ضعف التمسك بالأصول ونقص الإيمان ، وعوض المبدلون أنفسهم بما أحدثوه من بدع فحلّت محل السنن ، فإذا عمل الناس على تغييرها قالوا غيرت السنن ، والأمر عظيم .

فتأمل هذا التدرج وعمليات الإحلال ، والانتقاص من جانب بالتأويل والتبديل وقيامهما مقام الأصل . . . وانظر معها حجم المشكلة ، وكيف أن الناس مع تقادم

1- فتح البارى 1 / 200 .

الأزمان على أمر ، يختلف عما كانوا عليه زمن النبى - ﷺ - ، حسبوه حقاً بل لايرون الحق خلافه .

يصور لنا ذلك الحسن البصرى [1] حين يقول : " سأل رجل أبا الدرداء - رضى الله عنه - فقال : رحمك الله ، لو أن رسول الله - ﷺ - ، بين أظهرنا ، هل كان ينكر شيئاً مما نحن عليه ؟ فغضب واشتد غضبه وقال : وهل كان يعرف شيئاً مما أنتم عليه؟ "

وقال المبارك بن فضالة [2] : " صلى الحسن الجمعة وجلس فبكى ، فقيل له مايبكيك يا أبا سعيد ؟ فقال تلومننى على البكاء ، ولو أن رجلاً من المهاجرين اطلع من باب مسجدكم ما عرف شيئاً مما كان عليه على عهد رسول الله - ﷺ - : أنتم عليه اليوم إلا القبلة " .

هذا من الحسن وهو فى صدر القرن الثانى ، فماذا يمكن أن يكون رأيه على فرض وجوده الآن ؟

إنها الفتنة العظمى التى قال فيها ابن مسعود - رضى الله عنه - : "كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل غيرت السنة ، أو هذا منكر " .

فانظر صعوبة العودة إلى الأصل الذاهب بحكم النشأة على خلافه وطول أمد الناس على غيره وجريان البدع على الناس مجرى السنن ، وكيف عظم أمر العامة والجهال وكل من جعل نفسه قاضياً وحاكماً على السنن ، ومن شبه عليهم الأمر فظنوا البدع سنناً ، إذا

---

1 - الحسن بن يسار ، سيد أهل زمانه علماً وعملاً ، أدرك جماعة من الصحابة ت 110هـ ، كان من رؤوس العلماء فى الفتن والدماء ، وكان يقول : ماحليت الجنة لأمة ماحليت لهذه الأمة ثم لاترى لها عاشقاً ، ويقول : ابن آدم ترك الخطيئة أهون عليك من معالجة التوبة ، مايؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة فأنت فى غير معمل " أهينوا الدنيا فو الله لأهنأ ماتكون إذا أهنتها ، " ضحك المؤمن غفلة من قلبه ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 156 ، طبقات الشيرازى 87 ، وفيات الأعيان 2/ 69 ، سير أعلام النبلاء 4/ 563، تذكرة الحفاظ 1/ 66 ، تهذيب التهذيب 2/ 263 ، شذرات الذهب 1/ 136 .

2 - المبارك بن فضالة بن أبى أمية البصرى ، جالس الحسن مدة ، ت 166 هـ تهذيب التهذيب 10/ 28 .

غيرت قالوا غيرت السنن ، كما صور ذلك مرة عبد الله بن الحسن [1] وكان يكثر الجلوس إلى ربيعة [2] وتذاكروا يوماً السنن ، فقال رجل كان فى المجلس : ليس العمل على هذا ، فقال عبد الله : " أرأيت إن كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام ، فهم الحجة على السنة " ؟ .

فقال ربيعة : " أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء " . [3]

فانظر كيفية الإقدام والجهل بمواقع السنة ، مع أنه لم يستشر ويطلب رأيه ، وقد قال العقلاء : إن رأى المستشار أنفع لأنه برىء من الهوى ، بخلاف من لم يستشر فإنه غير برىء ، ولاسيما فى الدخول فى المناصب العليا والرتب الشرعية كرتب العلم .

وإذاً الأمر على ماوصف ، فإننا ندرك أبعاداً منها :

حتمية وجود الأمر والإبقاء عليه دون تبديل ، أو تأويل ، والحفاظ عليه كما هو .

وإنها لحتمية ماضية إلى يوم القيامة ، وآية الحق وجود الأمر كما هو ، والحق الثابت قوام الوجود .

وعلى الناس أن يخضعوا له كما جاء دون أن تلعب به الأهواء ، فلو لم يخضعوا له على تلك الكيفية ، وأخضعوه بكيفيات مختلفة ، وأهواء فاسدة ، فسد نظام الكون ، واختل الوجود .

قال الله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ

---

1 - عبد الله بن الحسن بن على الهاشمى ، - رضى الله عنه - ، ثقة جليل القدر . ت 145 هـ كان صاحب شرف وهيبة ولسان شديد ، الجرح والتعديل ، 5/ 33 ، تهذيب التهذيب 5/ 186 ، تقريب التهذيب 1 / 409 .

2 - ربيعة بن أبى عبد الرحمن - فروخ - المعروف بربيعة الرأى . فقيه أهل المدينة ت 136 هـ ، مما قال : العلم وسيلة إلى كل فضيلة ، وبكى يوماً فقيل له مايبكيك ؟ قال : رياء حاضر وشهوة خفية ، والناس عند علمائهم كصبيان فى حجور أمهاتهم ، إن أمروهم ائتمروا وإن نهوهم انتهوا ، له ترجمة فى : تاريخ بغداد 8/ 420 ، وفيات الأعيان 2/ 288 ، تذكرة الحفاظ 1/ 157 ، سير أعلام النبلاء 6/ 89 ، ميزان الاعتدال 2/ 44 تهذيب التهذيب 2/ 258 .

3 - إغاثة اللهفان 1/ 206 ، 207 .

أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(1)

وقد حذر الله من مخالفة الأمر ، فقال سبحانه : **﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾**(2)

والأمر فى الآية أعم من الأقوال والأفعال ، والمخالفة كذلك .

وفى الحديث : « *من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد* »(3)

ولأهمية الأمر فقد أبى الله أن يجعله لأحد غيره .

قال الله تعالى : **﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**(4)، **﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾** (5) ، **﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾** (6) **﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾** (7) . فجعله خاصاً به سبحانه دون خلقه .

ولما كان الأنبياء مظنة أن يجعل الناس لهم من الأمر نصيباً ، قال الله لنبيه : **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**(8) .

ولهذا سلم الأنبياء جميعاً للأمر : **﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾** (9) فتمثل هذا ، وليكن لك بهم أسوة ، ولاتتخلف أو تتردد ، وبادر وانهج نهج نبى الله اسماعيل ، أو كن وريثه ، فإنه لما قال له نبى الله ابراهيم عليه السلام : " **إن الله أمرنى بأمر .**

قال : فاصنع ماأمرك ربك .

قال : وتعيننى!

قال: وأعينك " !(10)

كن وريثه ولاتنازع ولو كان فى الأمر ذبح .

---

1 ـ سورة المؤمنون آية 71 .
2 ـ سورة النور آية 63 .
3 ـ تقدَّم تخريجه / 54 .
4 ـ سورة آل عمران آية 154 .
5 ـ سورة هود آية 123 .
6 ـ سورالأعراف آية 54 .
7 ـ سورة الروم آية 4 .
8 ـ سورة آل عمران آية 128 .
9 ـ سورة الصافات آية 102 .
10 ـ أخرجه البخارى فى صحيحه 4/ 175 .

بل بادر ولاتتردد أو تميل فتعاقب كما قال الله ـ تعالى ـ : **﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾** .(1)

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (2)

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾(3)

ولخطورة الميل عن الأمر ، أو التنازع فيه وجدنا من السلف من يتورع عن القول فى الدين مع غلبةالظن بصدقه ، شفقة منه على نفسه ، وعلى غيره متى جاءه من يستفتيه ، مبالغة منه فى حساسية النفس المؤمنة ـ وود أن غيره قد كفاه أمر القول ، فإذا لم يكن بد وأرغم ، جمع عقله وبذل جهده ، كيف لا وهو موقع عن الله ، داخل بينه وبين خلقه فلينظر كيفية الدخول وليطلب لنفسه مخرجاً قبله .

ومنهم من ندم على ماحدث به ، ومنهم من كان عامة جوابه لاأدرى .

وعدوا من الجنون من يفتى الناس فى كل مايستفتى فيه .

ومنهم من يعمل جاهداً على التمييز بين قوله ، وأنه خاص به ، وبين النص من الكتاب والسنة ، ويقول : هذا رأيى فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى وأستغفر الله .

مع نعيهم على من يتعجل الفتوى أو يقدم عليها ، أو يكثر منها ويسارع إليها .

حدث الشعبى قال : " إن أحدكم ليفتى فى المسألة ، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر ، والمفتى موقع عن الله" .(4)

ومن ثمّ كانوا يتدافعونها ، ويود كل واحد منهم أن غيره قد كفاه أمرها ، وقالوا :

---

1 ـ سورة الحج آية 67 .

2 ـ سورة سبأ آية 12 .

3 ـ سورة الطلاق آية 8 ـ 10 .

4 ـ إحياء علوم الدين 1/ 70 ، الفتوى فى الإسلام ، جمال الدين القاسمى 44 .

" ليس هذا الأمر لمن ود أن الناس قد احتاجوا إليه ، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه " .

والمفتى داخل بين الله وبين خلقه ، فلينظر كيف يدخل ؟ وليطلب لنفسه مخرجاً قبله .

ومع شدة التصون والتحرز عن القول : كانوا يعملون على الحيلولة بين من يفتيهم وبين المخالفة ، محاولين منعه إدراكاً منهم لخطورة التبديل فى الأمر ، زيادة أو نقصاً .

حكى ابن عيينة (1) قال : " سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال : ياأبا عبد الله من أين أحرم ؟ قال : من ذى الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله - ﷺ - ، فقال : إنى أريد أن أحرم من المسجد ، فقال : لاتفعل ، قال : إنى أريد أن أحرم من عند القبر ، قال : لاتفعل فإنى أخشى الفتنة !

قال : وأى فتنة فى هذا ، إنما هى أميال أزيدها ؟

قال : وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله - ﷺ - ؟ إنى سمعت الله يقول : **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** . (2)

فعد مخالفة أمر النبى - ﷺ - فى هذا فتنة . وفى معناها أقوال :

الكفر .

العقوبة .

1 - سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون - مولده بالكوفة سنة (107 - 198 هـ) ، قال الشافعى : مارأيت أحداً فيه آلة العلم مثل سفيان بن عيينة ، ومارأيت أحداً أكف عن الفتوى منه ، من أقواله : العلم إذا لم ينفعك ضرك ، ويقول : من رأى أنه خير من غيره فقد استكبر ، ثم ذكر إبليس . وحج سفيان ثمانين مرة وفى كل مرة يقول فى الموقف : اللهم لاتجعله آخر العهد منك ، فلما كان العام الذى مات فيه لم يقل شيئاً وقال : استحييت من الله تعالى ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 5/ 497 ، تاريخ بغداد 9/ 174 ، تذكرة الحفاظ 1/ 262 سير أعلام النبلاء 8/ 454 ، تهذيب التهذيب 4/ 117 ، شذرات الذهب 1/ 354 .

2 - سورة النور آية 63 .

بلية يظهر بها مافى قلوبهم من النفاق .[1]

ومن ذلك مارواه سعيد بن جبير[2] عن عبد الله بن مغفل [3] وكان جالساً إلى جنبه ابن أخ له ، فخذف [4] فنهاه ، وقال له : " إن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عنها ، وقال : «*إنها لاتصيد صيداً* ، *ولاتنكى عدواً وإنها تكسر السن وتفقأ العين* » قال : فعاد ابن أخيه يخذف ، فقال : أحدثك عن رسول الله ـ ﷺ ـ : نهى عنها ، ثم عدت تخذف ، إذاً لاأكلمك أبداً" .[5]

وهذه من عبد الله بن مغفل كتلك التى كانت من عبد الله بن عمر [6] لما حدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال : « *لاتمنعوا إماء الله أن يصلين فى المسجد* » فقال ابن له إنا لنمنعهن ، فقال : فغضب غضباً شديداً وقال : أحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ وتقول : إنا لنمعنهن .[7]

كان هذا نهجاً عاماً ونظاماً سائداً ألا يتركوا الأمر ، ولايقبلوا معه رأياً مهما كان قدر

1 ـ أحكام القرآن لابن العربى 3 / 1412 .

2 ـ سعيد بن جبير بن هاشم ، الإمام الحافظ الشهيد أحد الأعلام ت 95 هـ ، سئل مرة عن علامة هلاك الناس فقال : إذا ذهب علماؤهم . وكان يقول : التوكل على الله جماع الإيمان وكان يدعوا اللهم إنى أسألك صدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك . له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 6 / 256 ، طبقات الشيرازى 82، وفيات الأعيان 2 / 371 ، سير أعلام النبلاء 4 / 321 ، تهذيب التهذيب 4 / 11 ، تذكرة الحفاظ 1/ 71، شذرات الذهب 1 / 108 .

3 ـ عبد الله بن مغفل ـ صحابى شهد الحديبية ـ تجريد أسماء الصحابة 1 / 331 .

4 ـ الخذف : هو رميك حصاة أو نواة تأخذها بسبابيك وترمى بها ـ النهاية 2/ 16 .

5 ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه 1 / 8 .

6 ـ ابن عمر : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، الصحابى الجليل ت 74 هـ ، قالت عنه عائشة : مارأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر ، ولما احتضر قال : ماآسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث ، ظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ، وإنى لم أقاتل الفئة الباغية التى نزلت بنا (يعنى الحجاج) ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 2 / 373 ، 4 / 188 ، تاريخ بغداد 1/ 271 ، وفيات الأعيان 3/ 28 ، سير أعلام النبلاء 3 / 203 ، تهذيب التهذيب 5 / 328

7 ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه 1 / 8 .

صاحبه ، ولو كان من جاء به أباً أو ابناً ، فالحفاظ على سلامة الأمر أولى ، منادين فى الجميع إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . .

ومن وجدوا فيه انحرافاً ولو يسيراً خاصموه ، وتواصوا بعدم الأخذ عنه .

ويشتد هذا عند الفتن .

فعن ابن سيرين [1] : قال : "لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة ، قالوا : " سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم " . [2]

وكان مالك يقول : " إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت فى هذا المسجد سبعين ممن يقول : قال فلان ، قال رسول الله - ﷺ - ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أميناً ، فما أخذت منهم شيئاً لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن" . [3]

فأمر الدين من الأهمية بحيث لايصلح كل أحد لأن يؤخذ عنه .

الاعتصام بالميثاق:

العودة إلى الأمر الأول .

تقييد كل أمر بالكتاب والسنة .

إذ لاعصمة لأحد إلا فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله - ﷺ - ، أو فى

---

1 - الإمام الربانى محمد بن سيرين ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر - رضى الله عنه - وتوفى سنة 110 هـ ، قال هشام الدستوائى : ترك محمد أربعين ألفاً فى شىء مايرون به اليوم بأسا ، وعنه قال قلت مرة لرجل : يامفلس فعوقبت ، وبلغه هذا فقال : قلت ذنوب القوم فعرفوا من أين أتوا ، وكثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتى - ترجمته فى : طبقات ابن سعد 7/ 193 ، تاريخ بغداد 5 / 331 ، طبقات الشيرازى 88 ، وفيات الأعيان 4/ 181 سير أعلام النبلاء 4/ 606 ، تذكرة الحفاظ 1 / 73 ، تهذيب التهذيب 9/ 214 ، شذرات الذهب 1 / 138 .

2 - صحيح مسلم 1 / 7 ، الحلية 2/ 278 ، سير أعلام النبلاء 4/ 613 .

3 - سير أعلام النبلاء 5/ 343 .

ومن ظن أنه يستغنى عنهما ، أو لايستغنى عنهما ، ولا عن غيرهما ، فيضم إليهما غيرهما ، فلا التفات إليه ولا اقتداء به .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى اللّه عنه : " سن رسول اللّه ـ ﷺ ـ ، وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب اللّه ، وقوة على دين اللّه ، ليس لأحد تبديلها ولاتغييرها ، ولا النظر فى أمر خالفها ؛ من اهتدى به فهو المهتدى ، ومن استنصر فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه اللّه ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً " .

كان الإمام مالك يعجبه عزم عمر بهذا الكلام . (1)

* الأخذ بالسنن إذاً عصمة . ولأمر ما وجدنا من أئمة السلف من يترجم بقوله : " الاعتصام بالكتاب والسنة " وهى ترجمة تغنى عن كل تعليق .

فمن اعتصم بهما وقى الشر كله .

وكان من السلف من يقول : " السنة كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق . "

ومما قاله الزهرى : (2)

" كان من مضى من أسلافنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة " . (3)

وقال عمر ـ رضى اللّه عنه : " أما بعد فاختار اللّه لرسوله ـ ﷺ ـ الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى اللّه به رسولكم فخذوا به تهتدوا . "

---

1 ـ جامع العلوم والحكم 250 . وهو منسوب إلى الإمام مالك أيضاً ـ سر أعلام النبلاء 8 / 98 .

2 ـ محمد بن مسلم بن عبيد اللّه بن عبد الله بن شهاب ـ الإمام العالم حافظ زمانه (50 ـ 124 هـ) كان يقول : لاتناظر بكتاب اللّه ولابكلام رسول اللّه ، ويقول : ثلاث إذا كن فى القاضى فليس بقاض : إذا كره : الملام ، وأحب المحامد ، وكره العزل ، له ترجمة فى : طبقات الشيرازى 63 ، وفيات الأعيان 4 / 177 ، تذكرة الحفاظ 1 / 108سير أعلام النبلاء5 / 326 ، ميزان الاعتدال 4/ 40 ، تهذيب التهذيب 9 / 445 ، طبقات الحفاظ 42 ، شذرات الذهب 1/ 162 .

3 ـ سنن الدارمى 1 / 45 ، مجموع الفتاوى 11 / 623

نجاة واعتصام فى الفهم والتطبيق ، وثبات وعزم ، وعدم تبدل ورجرجة وتغير ، نجاة واعتصام تجمع الأوائل والأواخر من حين بدء نزول القرآن ، وانتهاء بمن آمن به ولم يشهد نزوله ، وإن رآه المبدلون جموداً ووقوفاً .

إنه الاعتصام الذى لايزيده طول التطبيق والاسترشاد والأخذ إلا ثباتاً واستقراراً ورسوخاً .

والانخلاع عن الاعتصام خروج عن الهداية ، والطاعة ، والنصرة ، والتأييد ، والسبق .

فمن اكتملت عصمته لم يخذله اللّه أبداً : **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[1]

ومن اكتملت عصمته نصره اللّه على نفسه وشيطانه ، فكمال النصرة عليهما ، بكمال الاعتصام .

فاعرف قدره ، وعظم أمره ، واعرف حقيقة الانخلاع والتبديل ، وعظم خطرهما واعلم أن فى الاعتصام والثبات توفيقا ، كما فى الانخلاع والتبديل خذلاناً .

وفى الحديث : « *لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللّه وهم كذلك .* »[2]

---

1 ـ سورة آل عمران آية 101 .

2 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الاعتصام 9/ 125 ، بلفظ " *لايزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر اللّه وهم ظاهرون* " ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان 1/ 137 بنحوه عند البخارى ، وكتاب الإمارة 3/ 1523 ، وأبو داود فى سننه ، كتاب الفتن 4/ 97 والترمذى فى سننه كتاب الفتن 4/ 485 ، وابن ماجة فى سننه ، مقدمة 1/ 5 ، وكتاب الفتن 2/ 1304من حديث طويل ، وأحمد فى مسنده 5 / 34 ، وفى بيان المراد بالطائفة قال البخارى : هم أهل العلم ، ونقل عن ابن المدينى أنهم أصحاب الحديث ، قال الحاكم فى معرفة علوم الحديث عن أحمد ، إن لم يكونوا أهل الحديث فمن هم ؟ قال القاضى عياض : إنما أراد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذاهب أهل الحديث ـ قال النووى ، ويجوز أن تكون الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن

فتأمل وهم كذلك!

على ماكانوا عليه ـ على الأمر الأول ، إبقاءً على الأصل .

فيا معشر القراءخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لإن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولإن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدا .[1]

" فإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب والتردد بين الدعوات الحائرة ، والمناهج الفاشلة ، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولابكثرة ، ومالنصر إلا من عند الله . . "[2]

وهم كذلك، كما كان شأن السلف ، الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض المعانى إلى الله .

كان هذا أمراً مجمعاً عليه ومحل اتفاق ، والإجماع حجة قاطعة متبعة .

وقد درج أصحاب النبى ـ ﷺ ـ على ترك التعرض للمعانى وهم صفوة الأمة ، وكانوا لايألون جهداً فى ضبط قواعد الشريعة وتعليم الناس مايحتاجونه منها ، فلو كان التأويل حقاً لاهتموا به وعلموه الناس كما كانوا يعلمونهم فروع الشريعة .

ولأن التأويل ليس بواجب بالإجماع ، ولأنه لو وجب لكان فيه تكلف مالا يطاق وإيجاب على العامة أن يقولوا على الله مالا يعلمون أو لأنه مما لايحتاج إلى معرفته ، لأنه لاينبنى عليه عمل ، ولاتدعو إليه حاجة .

فعليك أخى بلزوم السنة فإن السنة إنما جعلت عصمة ليستن بها ويقتصر عليها ، فقد سنها من قدعلم مافى خلافها من الزلل والخطأ ، فارض لنفسك مارضيه لك صاحبها .

=المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولايكونون مجتمعين بل يكونون متفرقين فى أقطار الأرض . صحيح مسلم بشرح النووى 3 / 67 ، فتح البارى 13/ 295 .

1 ـ جامع بيان العلم 2 / 97 .

2 ـ رسالة إلى الشباب للإمام البنا .

الفصل الثالث

تشعب الفتن

فتن الشبهات.

فتن الشهوات .

بين الشهوات والفتن.

مايعين على الخلاص.

المراتب العالية.

التوالد المستمر.

● دخل الناس النار من ثلاثة أبواب :

- باب شبهة . أورثت شكاً فى دين الله.

- وباب شهوة. أورثت تقديم الهوى على طاعة الله ومرضاته.

- وباب غضب .أورث العبد العدوان على خلق الله.

تشعب الفتن

الفتن أنواع وضروب متعددة ومتنوعة .

منها مايتعلق بالعقيدة ، ومنها مايتعلق بالعبادة ، والسلوك .

منها مايتعلق بالطاعة ، ومنها مايتعلق كذلك بالمعصية .

منها مايتعلق بالإيمان ، ومنها مايتعلق بالكفر .

منها مايتعلق بالعلم ، ومنها مايتعلق بالجهل .

منها مايتعلق بالغنى ، ومنها مايتعلق بالفقر ، والصحة والمرض ، والزمان والمكان ، والفرد والجماعة .

منها مايتعلق بالحاضر ، ومنها مايتعلق بالمستقبل ، والإنسان والحيوان ، والنبات والجماد ، والجن والملائكة .

منها مايتعلق بالشهادة ، ومنها مايتعلق بالغيب .

مايرى بالبصر ، ومايدرك بالبصيرة ، والظاهر والباطن .

منها الخفيف ، ومنها الثقيل ، والغليظ .

منها مايتعلق بالمال ، والولد ، والمرأة ، والصديق ، والقريب ، والبعيد .

منها هذا . . . ومنها غير هذا .

ورغم هذا التنوع والتعدد والتشعب ، فيمكن إدراجها جميعاً تحت نوعين كبيرين :

الشهوات.

والشبهات.

وهما معاً أساس كل فساد وشر .

وأصل كل فتنة ، ومدخل من مداخل الشيطان إلى النفس الإنسانية .

وسبب أمراض القلوب وعللها .

بل مافى الأرض بلاء إلا بسببهما أو بسبب أحدهما ، وهما معاً من أكبر مايدخل الناس النار .

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب :

*** باب شبهة ، أورثت شكاً فى دين الله .**

*** باب شهوة ، أورثت تقديم الهوى على طاعة الله ومرضاته .**

*** وباب غضب ، أورثت العبد العدوان على خلق الله .** [1]

وماالغضب فى حقيقة الأمر إلا جماع كل شر ، ومبعثه إما شبهة أو شهوة ، وكل من الغضب والشهوة يوجب حرارة فى القلب ، والغضب سكر ، وهو أشد من غيره .

قال الحسن : " أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان ، وحرمه الله على النار ، من ملك نفسه عند الرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغضب " . [2]

فتن الشبهات

أعظم النوعين .

لما فيها من تعمد المخالفة لدلالات القرآن والسنة .

وماتحدثه فى القلب من قلق واضطراب يوجب شكاً وحيرة يحدثان وقوعاً يكب المرء على وجهه لايعرف معه اتزاناً ولاصعوداً .

والشبهات ماهى ؟

كل أمر التبس بغيره لدخوله فيه ، واشتباهه به ومماثلته له ، وصعوبة الفصل بينهما ، إذ

1 ـ الفوائد لابن القيم 58 .
2 ـ جامع العلوم والحكم 137 .

الأصل ألا يميز أحد الشيئين عن الآخر ، فبينهما على هذا تقارب أشكل بسببه المعنى ، ولم يظهر المغزى ، كما قال الصاحب بن عباد :[1]

رقّ الزجاج وراقت الخمر ❖ فتشابه فتشاكل الأمر

فكأنما خمـــر ولاقـــــدح ❖ وكأنما قدح ولاخمر .

بداية مغرية ونهاية مخزية:

فتنة تحركها الرغبة ، ويدعو إليها الجهل ، وتبعث عليها الأهواء ومحاولة وضع الذات فى كفة ، والحق فى كفة ، والابتداع ، والتعصب ، والتقول على اللّه ورسوله بدون علم ، والعناد للشرع ، ومضاهاة الشارع ، والمماراة ، والجدال ، ولفت الأنظار ، والتشبه بأهل الاجتهاد .

كما تنشأ هذه الفتنة من الفهم الفاسد ، والنقل الكاذب ، والجهل بمقاصد الشرع .

وأحياناً من خفاء الدليل والحق ، وعدم الاهتداء إليه ، ولو لم يكن كذلك فى الواقع ونفس الأمر ، إلا أنه خفى على رجل بذاته ، فكان ماكان .

ومرد هذا كله إلى الران الذى يعلو القلب فيضعف بصيرته ، أو ضعف الرؤية بسبب ضيق العين ، أو الطمع والحسد والمرض ، وكل مامن شأنه أن يحجب رؤية أو يحول بين القلب وسلامة البصيرة ، فتضعف ويقل العلم ، لاسيما مع فساد القصد وسيطرة الهوى ، والعجز عن اكتساب آلة الاجتهاد والتحصيل وحب الجدل والتطلع إلى منصب الإمامة .

ولو لم يكن إلا سيطرة الأهواء المتبعة لكفى .

فالهوى يصد عن الحق ، ويقود إلى البطالة ، ويغرى بالخلاف ، وحب الانتصار ويوسع دائرة التنازع ، ويفسد العقل ، ويشغله بالمراء ، ويحمل على ترك الجماعة ،

---

1 ـ الصاحب بن عباد العباسى (326 ـ 385) هـ كان وزيراً وكاتباً وعالماً ، وهذان البيتان فى أكثر مصادر ترجمته : وفيات الأعيان 1/ 228 ، سير أعلام النبلاء 16 / 511 ، لسان الميزان 1/ 413 ، شذرات الذهب 3 / 113 .

والقعود عن العمل ، والفتور والعجز ، والتكاسل عن أداء الواجب ، وفعل الخير ، وعدم مشاركة أصحابه .

هذا كله مع التشويش المصاحب للأقوال والأفعال، وكدر العبادة وعدم صفائها .

وقل ماشئت من ضلال كل من ساء قصده ، وفسدت طويته ، وزاغ بصره ، وحكم رأيه واتبّع هواه .

ويجمع هذا كله أمران :

عمى البصيرة .

فساد الإرادة.

فالنور فى القلب ، وكمال حياة الإنسان وقوة إرادته أساس كل خير وصلاح وفلاح للإنسان فى دنياه وفى أخراه ، وبهما معاً تكتمل حياة المرء وتتم سعادته .

فإذا قويت بصيرة المرء ظهرت له صور الأشياء على حقائقها فعلم حسن الحسن وقبح القبيح ، ومن ثَّم يؤثر بإرادته الحسن على القبيح ويقدمه عليه ، ولأهمية النور وقوة الإرادة فقد جمع اللّه بينهما ، كما ضرب بهما المثل لوحيه .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [1]

فجمع بين الروح أصل الحياة وأساس القوة ، والنور الذى يحصل به الإشراق ، وأخبر أن القرآن متضمن لهما معاً .

كما امتن اللّه على أنبيائه بالقوة والبصائر ، فقال سبحانه : **﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾**[2]

فالأيدى : القوى والعزائم فى ذات اللّه .

1 ـ سورة الشورى آية 52 .

2 ـ سورة ص آية 45 .

والأبصار : البصائر فى أمر الله .

قال ابن القيم : "وعبارات السلف تدور على ذلك" .

قال ابن عباس : أولى القوة فى طاعة الله ، والمعرفة بالله .

وقال مجاهد :[1] " الأيدى القوة فى طاعة الله ، والأبصار البصر فى الحق" .

وقال سعيد بن جبير " الأيدى القوة فى العمل ، والأبصار ، بصرهم بما هم فيه من دينهم " .[2]

فتنة وحذر

ورد تفسير الفتنة فى الآية : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[3]. بالمشتبهات .

والمعنى أن كل من اتبع المتشابه فهو من الذين فى قلوبهم زيغ ، والعلاقة بينهما على هذا واضحة ، فأهل الزيغ والضلال يطلبون الشبهات لرد المؤمنين إلى ماهم عليه من زيغ وكفر ، وهو الأمر الذى صاروا إليه .

فوجب أن نحذر .

قال مجاهد : " ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ : شك

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ : الشبهات ، الباب الذى ضلوا منه وبه هلكوا .

قال الحافظ ابن حجر : "دلت الآية على ذم المتشابه لوصفهم بالزيغ وابتغاء

---

1 ـ مجاهد بن جبر الإمام شيخ المفسرين والقراء ت 102هـ ، كان يقول : طلبنا هذا العلم ومالنا فيه نية ، ثم رزق الله النية بعد ، ويقول : ماأدرى أى النعمتين أعظم أن هداني للإسلام ، أو عفاني من هذه الأهواء، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 5 / 466 ، طبقات الشيرازى 69، تذكرة الحفاظ 1/ 86، سير أعلام النبلاء 4 / 449، تهذيب التهذيب 1/ 42 ، طبقات الحفاظ 35.

2 ـ إغاثة اللهفان 2 / 167 .

3 ـ سورة آل عمران آية 7.

الفتنة "[1]

كما دلت على أن الناس قسمان : زائغون متبعون المتشابه ، وراسخون فى العلم، وكل من القسمين مخالف للآخر فيما وصف به .

وعليه فقد ثبت تحذير النبى ـ ﷺ ـ ، من هذا الصنف وإن كان فى التحذير نوع إيهام، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها[2] قالت : " تلا رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾إلى قوله ﴿**أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[3] .

قالت قال رسول الله ـ ﷺ ـ « *فإذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم* »[4]

لكن ورد عن عائشة مايزيل هذا الإبهام ويوضحه . ذلك أنها قالت : " تلا رسول الله ـ ﷺ ـ ، هذه الأية﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾إلى قوله ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾فقال ـ ﷺ ـ « *ياعائشة ، إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله ، فاحذروهم* »[5]

وفيه بيان ، لأنه جعل علامة الزيغ الجدل فى القرآن .

أمر بدايته زيغ القلب ، ينتهى بالجدل فى القرآن .

---

1 ـ فتح البارى 8/ 209 ، 210 .

2 ـ السيدة عائشة ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق ت 58 هـ كانت تتمثل بقوله لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وتقول رحم الله لبيداً فكيف لو رأى زماننا هذا ؟ قال عروة : رحم الله أم المؤمنين فكيف لو أدركت زماننا هذا ؟ قال هشام : رحم الله أبى فكيف لو رأى زماننا هذا ؟ قال الذهبى : سمعناه مسلسلاً بهذا القول ، بإسناد مقارب ، لها ترجمة فى : طبقات ابن سعد 8 / 58 ، سير أعلام النبلاء 2/ 135 ، تهذيب التهذيب 12 / 433 شذرات الذهب1/ 9، 61 .

3 ـ سورة آل عمران آية 7 .

4 ـ أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب التفسير 6 / 42 ، وأبو داود فى سننه ، كتاب السنة 4/ 198 ، والدارمى فى سننه 1/ 54 ، وأحمد فى مسنده 6/ 48 .

5 ـ الحديث أخرجه ابن ماجة فى سننه 1 / 18 ، وأحمد فى مسنده 6/ 48 .

إذاً كل من فى قلبه زيغ ، ميل عن الحق فهو داخل دخولاً أولياً .

أهل البدع والأهواء .

أصحاب الشذوذ الفكرى ، والشطط ، والتنطع فى الخلاف القائم على التعصب والجهل بمقاصد الشرع ، فالابتداع إنما يقع ممن لايتمكن من العلم الذى ابتدع فيه .

أهل الزلل وكل من كان عرضة للسقوط .

أصحاب الفرق المختلفة الباطلة .

المجادلون الخائضون فى آيات القرآن بغير علم . . .

كل هؤلاء يجمعهم وصف واحد هو الإعراض عن الحق .

ويسعهم الوصف بالزيغ .

ويلتحق بهم من كان على شاكلتهم ، ألا ترى أن سورة آل عمران ، معركة جدلية فى نصفها الأول ، وحربية فى نصفها الثانى بين النصارى ومناظرتهم لرسول الله ـ ﷺ ـ فى شأن المسيح عليه السلام ، وعقيدتهم فيه وتركهم الواضح البين .

قال ابن القيم : "وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهى فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتن الشبهات التى اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال" .[1]

فتأمل حقيقة الأمر وماتولد عنه وجر إليه من كفر وضلال ونفاق ، حبائل شيطانية ، عقبات ، مصائد ، عوائق ، نسأل الله السلامة .

وخذ بمبدأ الحزم والعزم ، واسلك سبيل الحق ولا تستوحش من قلة السالكين ، واحذر طريق البدع ولاتغتر بكثرة الهالكين ، فليس العجب ممن هلك كيف هلك ؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟

---

1 ـ إغاثة اللهفان 2 / 165 .

وحقق مجافاة لأهل البدع والزيغ بإهانتهم وإسقاطهم وعدم مجالستهم ، أو رد السلام عليهم ، وقف عند كل شبهة ، ورد الأمر إلى أهله ، فكل علم يسأل عنه أهله ، وابتعد عن الشبهات ، ففى الواضح البين مايغنى .

قال ابن مسعود : " ماتريد إلى مايريبك وحولك أربعةآلاف لاتريبك "[1]

فتوقف وتثبت وابتعد ، فما شيء أهون من الورع فمتى رابك شيء فاتركه .

وتمثل سيرة سلفية أولية فقد تركوا الكثير مما لاترى به بأساً اليوم .

ومنهم ابن سيرين ، ترك أربعين ألفا مما لاترون به اليوم بأساً .

وقصة ذلك ، أنه اشترى زيتاً بأربعين ألف درهم ، فوجد فى زق منه فأرة فظن أنها وقعت فى المعصرة ، فصب الزيت كله وكان يقول : " إنى ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة " فكان قد اشترى بيعاً ، فأشرف على ربح ثمانين ألف ، فعرض فى قلبه شيء فتركه ، أو كرهه أو تصدق به فحبس على المال .[2]

فتمثل سيرة هؤلاء وهم كثير ، وجددها ، واعمل على إحيائها وقف عند كل شبهة فما كان حلالاً لم يحصل لك فيه قلق أو اضطراب ، بل تسكن النفس ويطمئن القلب .

وجرد القصد ، وأحسن التبعية للرسول الكريم ، وأفرده فى التلقى والأخذ عنه ، والاتباع له ، واترك ماسواه ، ولاتقبل من غيره إلا على شرط العرض على سننه ، والموافقة لما جاءنا عنه .

واستعمل اليقين جهدك عند ورود الشبهات ، واستجلب أنوار القلب بدوام الجد ، واقهر هواك ، ففى قوة قهر الهوى لذة لاتدانيها لذة .

وهذا كله إنما يحصل لكل من استقامت أحواله ، وصفت أعماله ، وامتلأ خوفاً وورعاً .

---

1 ـ جامع العلوم والحكم 102

2 ـ سير أعلام النبلاء 4 / 616 ، وانظر جامع العلوم والحكم 102 ، 103 .

3 ـ جامع بيان العلم وفضله 2 / 93، تأويل مختلف الحديث 63 .

التلــون

كان السلف يكرهون التلون فى الدين ، والخصومات والجدال .

فعن عمر ـ رضى الله عنه قال : " من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل "(3)

ووقفوا من كل من لم يؤمر السنة على نفسه موقف المجافاة والعداء ، وحذروا من مجرد الاستماع لهم أو الرواية عنهم ، وهذا ثابت عن جمعهم .

فعن الحسن : " لاتسمعوا من أهل الأهواء " . (1)

وقال غيره : " وماينقم على أهل البدع إلا أنهم اتخذوا الدين رأياً وليس الرأى ثقة ولا حتماً "(2)

ولأنهم كما قال عمر ـ رضى الله عنه : " أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها ، وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لانعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم "(3)

وهم إنما عادوا السنن بزعمهم أن عقولهم يمكن أن تستقل بإدراك مصالحها دونها ، فابتدعوا مضاهين ببدعتهم الوحى ، مضادين الشرع ، متصورين أن الشرع يحتمل الزيادة أو النقصان ، فهى فى نظرهم لم تتم بعد ، وقد استدركوا عليها .

قال مالك : " من ابتدع فى الإسلام بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً ـ ﷺ ـ خان الرسالة لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(4) " (5).

ولأنهم بما أحدثوه واخترعوه أحبوا من الناس أن يسلكوا طريقتهم ، فمنشأ بدعتهم إذاً مصالح الناس .

---

1 ـ الجرح والتعديل 2/ 33 .
2 ـ جامع بيان العلم وفضله 2 / 33 .
3 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 135 .
4 ـ سورة المائدة آية 3 .
5 ـ الاعتصام للشاطبى 1/ 49 .

لهذا لم يستمعوا لهم أو يرووا عنهم . عقوبة لهم .

فمن عقوبة الفاسق ألا تذكر محاسنه فكيف بمساوئه . ؟ ولذا فقد رد العلماء روايته مطلقاً دون قيد ، وهؤلاء المانعون من الرواية عن المبتدع ، لهم مأخذان :

تكفير أهل الأهواء أو تفسيقهم ، وفيه خلاف مشهور ، الإهانة لهم والهجران والعقوبة بترك الرواية عنهم ، إن لم نحكم بكفرهم أو فسقهم ، إخماداً لبدعهم وإطفاءً لنارها .

ولهم مأخذ ثالث هو أن الهوى والبدعة لايؤمن معه الكذب ، ولاسيما إذا كانت مما تعضض هوى الراوى . (1)

ومن العلماء من يرى زيادة على ماتقدم القيام عليه بالتثريب أو التنكيل أو الطرد أو الإبعاد أو الإنكار بحسب حال البدعة فى نفسها ، من كونها عظيمة المفسدة فى الدين أم لا ؟ وكون صاحبها مشتهراً بها أم لا ؟ داعياً إليها أم لا ؟ مستظهراً بالاتباع وخارجاً عن الناس أولاً ، وكونه عاملاً بها على جهة الجهل أولاً .

وكل قسم من هذه الأقسام له حكم اجتهادى يخصه ، إذ لم يأت فى الشرع أن للبدعة حداً معيناً لايزاد عليه ولاينقص منه .

وإنما نظر الأئمة فى البدع بحسب النوازل وحكموا باجتهادهم ، ومن مجموع ماتكلموا فيه .

الإرشاد ، والتعليم ، وإقامة الحجة .

الهجران ، وترك الكلام معهم .

التغريب ، ويجرى مجراه السجن .

ذكرهم بما هم عليه ، وإشاعة بدعتهم كى يحذرهم الناس .

ولئلا يغتروا بهم ، أو بكلامهم .

---

1 ـ شرح علل الترمذى 1 / 54 .

القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم .

القتل إن لم يرجعوا مع الاستتابة ، إن كانوا قد أظهروا بدعتهم ، فإن أسروها وكانت كفراً فالقتل بلا استتابة .

تكفير من دل الدليل على كفره .

عدم توريثهم أو الإرث منهم .

عدم مناكحتهم .

تجريحهم على الجملة ، فلا تقبل شهادتهم ، ولا الرواية عنهم ، ولايكونون ولاة ولاقضاة .

ترك عيادة مرضاهم .

ترك شهود جنائزهم . . . (1)

ولاغرابة فهذا كله بسبب جناياتهم على الدين ، وفسادهم في الأرض ، وخروجهم عن جادة الإسلام ، وماصرح به من تاب منهم ، وكشف عما كانوا يفعلونه من كذب ورواية باطل .

وفضلاً عن هذا ، وأنهم متى اشتهوا شيئاً صيروه حديثاً ، فإن من العلماء من أنزلهم منزلة أهل الكتاب ، ومنهم من جعل الكافر والفاسق بالتأويل بمنزلة واحدة ـ كالكافر المعاند والفاسق العامد في عدم قبول خبرهما .

وقد أطلق هذا القول غير واحد من السلف وادعى البعض فيه إجماعاً .

والمعتمد التفريق بين البدع وحال أصحابها ، وأن الذى ترد بدعته روايته من أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة متواتراً من الشرع ، وكذا من اعتقد عكسه .

قال الحافظ : " الذى يظهر أن الذى يحكم عليه بالكفر من كان الكفر صريح قوله

1 ـ الاعتصام 1 / 175 .

وكذا من كان لازم قوله وعرض عليه فالتزمه "[1]

وسبقه إلى تقريره غير واحد من الأئمة .

فإن لم يكن الكفر ظاهراً صريحاً بل كان مما يحتمل بالتأويل ، كالقول بنفى رؤية اللّه بالأبصار فى الآخرة ، فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى قبول الرواية والأخبار .

ويرى هؤلاء أن أخبار أهل الأهواء مقبولة وإن كانوا كفاراً أو فساقاً بالتأويل واحتجوا بأن متعمد الفسق والكافر الأصلى معاندان ، وبأن أهل الأهواء متأولون غير معاندين ، كما أن أهل الأهواء مااعتقدوا ديانة ، وبأن الفاسق المتعمد أوقع الفسق مجانة .

ولم يسلم هذا لهم ، وإلا لزم قبول خبر الكافر الأصلى لأنه اعتقد الكفر ديانة .

1 ـ نزهة النظر 50 .

خروج الأعمال عن حد الاعتدال والاستقامة ، والإخلاص والإيمان والصواب .

وتقديم الهوى على الشرع بإيثاره وتحكيمه .

وسببه : فساد الإرادة ، والعمل بخلاف العلم الصحيح .

ويترتب عليه فساد القلب ومرضه وخروجه عن حد الصحة والسلامة ، إذ لايوصف القلب بالسلامة إلا إذا سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من الغى والضلال ، والبدع والمعاصى ، والظلم والجهل . .

ومن الثابت أن خطر الشهوات على القلوب أشد من خطر السموم على الأبدان .

ومافى الدنيا شر إلا وسببه الذنب والمعصية .

وهى بريد الكفر وسبب هوان العبد على ربه وسقوطه من عينه ، هانوا عليه فعصوه ولوعزوا عليه لعصمهم . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ** ﴾ . (1)

ولها من الآثار القبيحة المذمومة مالا يعلمه إلا الله .

أوحى الله إلى داود : ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة .

معنى الشهوة ، ومنهج القرآن فى تناولها .

الشهوة : نزوع النفس لماتريد ، أو هى : ميل النفس إلى مايلائمها وتلتذ به ، أوهى كل شىء من المعاصى كبيرة أو صغيرة ، يترتب عليها مخالفة لأمر الله ، أو أمر نبيه ـ ﷺ ـ ويستوى فى ذلك أن تكون المخالفة بترك الأمر أو اقتحام النهى .

والقرآن الكريم يتناول الشهوات فى معرض المعاندة والمخالفة لمنهج الله ، والميل عن الحق .

1 ـ سورة الحج آية 18 .

* من ذلك قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾(1)

فتأمل حقيقة مايريده الله للناس ، ومايريده الذين يتبعون الشهوات لأنفسهم ولغيرهم ، من ميل عن الحق وحيدة عن المنهج ، هذه الحيدة هى رأس كل شهوة ، إذ الميل : العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين ، ويستعمل فى الجور .

* ويعرض القرآن الشهوات فى صورة انحراف الفطرة ، وشذوذها ونشاذها .

هذا الانحراف ارتكاس فى طين الرذيلةووحل الفجور .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .(2)

وهذا النمط وثيق الصلة بالانحراف عن منهج الله ، فالمنهج يقود الإنسان إلى أمر الله وشرعه مطلقاً ، وفى البعد عنه انحراف كلى أو جزئى .

وفى الآية تصوير للون من ألوان الانحراف النفسى والخلقى عما خلقه الله فى الجنسين من أسباب التلاقى وحكمته ولطفه وتقديره .

* وأحياناً يتحدث القرآن عن الشهوات على أنها لون من ألوان الهدم ، هدم عرا الإسلام .

قال الله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ .(3)

وإضاعة الصلاة سبقتها إضاعات ، فهى آخر ماتمكنوا من إضاعته من عبادات ومعاملات ونظام حكم .

وفى الحديث " **لينقضن عرا الإسلام عروة عروة كما ينقض الحبل قوة قوة** "(4)

---

1 ـ سورة النساء آية 27 .

2 ـ سورة الأعراف آية 81 .

3 ـ سورة مريم آية 59 .

4 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 4 / 232 من حديث فيروز الديلى عن أبيه .

" لينقضن عرا الإسلام عروة عروة فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة "(1)

* ومرة يعرضها فى صورة منفرة تدعوا إلى الزهادة فيها رغم مايبدو من جمالها فهى من متع الحياة الذاهبة الفانية.

قال الله تعالى : **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** (2)

بين الشهوات والفتن :

فى الحديث : **" إن أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى . . . "**(3)

فشهوات الغى فى البطون والفروج .

ومضلات الهوى .

والغى : جهل من اعتقاد فاسد ، وهو كما يكون من عدم الاعتقاد ، يكون من اعتقاد فاسد .

قال الله تعالى : **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾**(4)

وقال سبحانه : **﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾**(5)

وقال : **﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾** (6)

---

1 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 5 / 251 من حديث أبى أمامة الباهلى.
2ـ سورة آل عمران آية 14 .
3 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 4 / 420 ، 423 .
4 ـ سورة النجم آية 2 .
5 ـ سورة الأعراف آية 202 .
6 ـ سورة مريم آية 59 .

عذاباً باعتبار أن الغى سبب فيه .

ومن معانى الغى : الجهل والخيبة ، وفساد العيش والانهماك فى الشر [1]

وقد يفسر بالاستكبار عن الحق ، وهو أصل الكفر ، وصاحبه ملعون .

ذكر ابن عيينة قال : " من كانت معصيته فى الشهوة فارجُ له ، ومن كانت معصيته فى الكبر فاخش عليه ، فإن أدم عصى مشتهياً فغفر له ، وإبليس عصى متكبراً فلعن . "[2]

وسواء كان الاعتقاد فاسداً ، أو لم يكن ثمَّ اعتقاد فهو جهل وظلم .

وبهما ؛ الجهل والظلم ، يتولد الإغواء والإضلال ، وقد جمع اللّه بينهما فقال سبحانه : ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ .[3]

وكأن أحدهما يلد صاحبه وينشأ عنه ، وبالتالى يعاقب الإنسان على كل منهما .

وعلاقة هذين الأمرين بمضلات الفتن ظاهرة .

لاسيما إذا كان الجهل من النوع المركب الذى لايدرى معه صاحبه أنه قد جهل .

فحين يفتن المرء فيضل ولايشعر ، أو من حيث يظن أنه مهتد ، فإن هذا ناتج ولاشك من البعد عن المنهج ، كما قال اللّه تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ .[4]

من كان حاله هكذا لم يعتقد أنه متبع لهواه ضال ، جاهل ، ظالم ، بل يحسب أنه مهتد وممن يحسن صنعاً ، وهؤلاء فى زماننا كثير .

هذا ومن العلماء من يرى أن شهوات الغى غير مختصة بالبطون والفروج ، بل

---

1 ـ المفردات 369 .

2 ـ سير أعلام النبلاء 8 / 461 .

3 ـ سورة الأحزاب آية 72 .

4 ـ سورة الزخرف آية 36 ، 37 .

يدخل معها شهوات الرئاسة ، ذلك أن حب الرئاسة ، شهوة خفية .

كما قال شداد بن أوس [1] ـ رضى الله عنه ـ : " يابغايا العرب ؛ إن أخوف ماأخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية : قيل لأبى داود السجستانى [2] ماالشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة " . [3]

ولهذا اعتبروا الزهد فى المنصب أهم من الزهد فى المال ، خلاصاً من الفتنة .

وهو أمر قد يستغربه أو يستبعده من لم يطلع على تاريخ السابقين ، ولكن الممارس لذلك يحفظ مايصدقه .

ويقوى البلاء ويشتد إذا اجتمعت شهوات الغى ومضلات الفتن ، وصار المبتلى بذلك مغضوباً عليه ضالاً .

هذا مافهمه المحدث " أبو داود" من معنى الشهوة ، وفى مسند الإمام أحمد من حديث شداد " أنه بكى فقيل له : مايبكيك ؟ قال : "شىء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ يقول تذكرته فأبكانى ، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ ، يقول : " **أتخوف على أمتى من الشرك والشهوة الخفية** " قال : قلت يارسول الله ، أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : **نعم ،**

---

1 ـ شداد بن أوس بن ثابت ، نجارى خزرجى ، من فضلاء الصحابة وعلمائهم ، نزل بيت المقدس ، وتولى إمارة حمص ت 58 هـ ، كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لايأتيه النوم فيقول : اللهم إن النار أذهبت منى النوم ، فيقوم يصلى حتى يصبح وخطب يوماً فقال : إن الدنيا أجل حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره فى الجنة ، وإن الشر كله بحذاخيره فى النار " له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 401 والجرح والتعديل 4/ 328 ، حلية الأولياء 1/ 264 ، سير أعلام النبلاء 2 / 460 ، تهذيب التهذيب 4/ 315 ، شذرات الذهب 1/ 94.

1 ـ أبو داود سليمان بن الأشعث ، صاحب السنن (202 ـ 275 هـ) من أقواله : خير الكلام مادخل الأذن بغير إذن ، له ترجمة فى : تاريخ بغداد 9/ 55 ، طبقات الحنابلة 1/ 159 ، وفيات الأعيان 2/ 404 ، تذكرة الحفاظ 2/ 591 ، سير أعلام النبلاء 13 / 203.

2 ـ جواب أبى داود فى كتاب التوبة لابن تيمية 52 ، والحديث أخرجه أحمد فى مسنده 4/ 124 ، وانظره فى سير أعلام النبلاء 2/ 461 ، 462 مرفوعاً ومطولاً .

أما إنهم لايعبدون شمساً ، ولاقمراً ، ولاحجراً ، ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم " .

والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه .[1]

وعند أحمد أيضاً : " أما الشهوة الخفية فقد عرفناها ، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها " .[2]

والأول من الحديثين أخص ، والثانى أعم .

مايعين على الخلاص

*** لابد مع هذا من مضاعفة التحذير من الفتن .**

*** وحمل القلب على استقباحها ، ورفضها ، وإنكارها .**

*** والتواصى بالحق والصبر .**

*** وكمال العقل** : فاللّه سبحانه يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات .

ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات .[3]

فكمال العقل ، قوته ، فإن ضعف صرعته الشهوة .

" احذروا مصارع العقول عند التهاب الشهوات " .[4]

والعقل الكامل الذى بلغ صاحبه درجة الكمال ، فحبس نفسه عن ذميم القول والفعل ، أو هو الذى عرف صاحبه ماكان يجهل من قبل ، أو انزجر عما كان يفعل .

والعقل يطلق على تلك القوة المتهيئة لقبول العلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة .[5]

---

1 ـ مسند الإمام أحمد 4/ 124 ، من حديث شداد بن أوس .

2 ـ المصدر السابق 4 / 126 ، من حديث شداد بن أوس .

3 ـ إغاثة اللهفان 2/ 167 .

4 ـ ذيل طبقات الحنابلة 1 / 275 .

5 ـ معجم مقاييس اللغة 4 / 69 ، المفردات 341 .

وقد غالى الإسلام من قيمة العقل وأعلى منها ، وهو ماأكدته نصوص القرآن الكريم ولكى تتضح الصورة ، صورة الخلاص من فتن الشهوات ، نقول :

مقابل غى : رشد ويستعمل الرشد استعمال الهداية ، قال تعالى : **﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾** .[1]

ومقابل الهداية : الضلال .

قال اللّه تعالى : **﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾** .[2]

والرشد المستعمل استعمال الهداية ، هو العلم بما ينفع ، والعمل به ، وهو قرين الهداية إذاً ، وإذا أفرد فالهداية علم بالحق ، والرشد عمل بموجبه .

ومقابلهما ، الغى واتباع الهوى ـ قال اللّه تعالى : **﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾**[3]

فقابل بين الرشد والغى .

وقابل بين الهدى والضلال .

قال الله تعالى : **﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾** .[4]

وفى الحديث : " **من يطع اللّه ورسوله فقد رشد ، ومن يعص اللّه ورسوله فقد غوى** " .[5]

ولابد مع هذا كله من تصور الأضرار والأخطار المترتبة على اقتحام الشهوات ، وأن اللّه إذا خلا بين العبد وبين الوقوع فيها فلإقامة الحجة ـ حجة العدل والعقوبة على

---

1 ـ سورة البقرة آية 256 .

2 ـ سورة البقرة 26 .

3 ـ سورة الأعراف آية 146 .

4 ـ سورة النحل آية 37 .

5 ـ الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الجمعة 2/ 594 .

الذنب، وإحقاق كلمة العذاب والضلال عليه ، كما أخبر ربنا سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ .[1]

كما أن الوقوع فيها سبب هوان العبد على الله سبحانه ، والأمر كما قال الحسن : " هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم " .

وإذا هان العبد على الله ، وسقط من عينه ، فمن ذا الذى يكرمه ؟

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2]

ثم إن الشهوات ، تورث المرء ذلاً ، ذلك أن العز فى طاعة الله تعالى ، وكان من أدعية السلف " **اللهم أعزنى بطاعتك ، ولاتذلنى بمعصيتك** " وقال الحسن " إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن ذل المعصية لايفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . . "[3]

* **كذلك يعينه على الخلاص ، الصبر على المعاصى** حتى تجتنب ، حذراً من العقاب المترتب عليها ، أو حياء من الله أن يستعان على معاصيه بنعمه ، وأن يبادر بالعظائم .

ويبعث على الخوف من العقاب قوة الإيمان بالخير والتصديق بمضمونه ، وأما الحياء فيبعث عليه قوة المعرفة ومشاهدة معانى الأسماء والصفات .

قال ابن القيم : " وأحسن من هذا ، أن يكون الباعث عليه وازع الحب ، فيترك معصيته محبة له " .

ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم ، والنفوس الزكية ، كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف ، لأن فى الحياء من الله مايدل على مراقبته وحضور القلب معه .

---

1 ـ سورة يونس آية 33 .
2 ـ سورة الحج آية 18 .
3 ـ الداء والدواء 52 ، 53 .

ولأن فى تعظيمه وإجلاله ماليس فى وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف ، فإن قلبه حاضر مع العقوبة ، ومن وازعه الحياء قلبه حاضر مع اللّه ، والخائف مراع لجانب نفسه وحمايتها ، والمستحيى مراع جانب ربه وملاحظ عظمته ، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان ، غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى اللّه فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها .[1]

المراتب العالية

* فى ترك المباح ولو لم يكن شرطاً فى النجاة.

حذراً من أن يقودنا التوسع فى المباح إلى شىء من الحرام ، لاسيما إذا كان المباح وسطاً بين الحلال والحرام.

فتركه صيانة وخوفاً من تكدر الصفو ، وطلباً لبراءة الدين والعرض ، وكل ماوقى به المرء عرضه فهو صدقة منه على نفسه.

ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء الظن به.

قال أبو الدرداء : " تمام التقوى أن يتقى العبد ربه ، حتى يتقيه من مثقال الذرة ، وحتى يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً مجانباً بينه وبين الحلال " .

وقال الحسن : " مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام "

وقال سفيان : " إنما سموا المتقين لأنهم اتقوا مالا يتقى " .

* وفى الورع ، وقد جمع النبى ـ ﷺ ـ ، الورع كله فى كلمة واحدة ، فقال : " **من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه .**"[2]

---

1 ـ مدارج السالكين 2 / 172

2 ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الزهد 4 / 558 ، وابن ماجه فى سننه كتاب الفتن 2 / 1315 ، ومالك فى الموطأ 650 ، وأحمد فى مسنده 1 / 201 .

ومعنى يعنيه : تتعلق عنايته به ، ويكون من مقصوده ومطلوبه .

والعناية شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه .

والحديث يعم ترك كل مالا يعنى من الكلام ، والنظر ، والاستماع والبطش ، والمشى ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة شافية فى الورع .

تعريف الورع

عرفه ابن أدهم [1] بقوله : "الورع ترك كل شبهة ، وترك مالا يعنيه هو ترك الفضلات وفى الحديث "**كن ورعاً تكن أعبد الناس**" [2]

وعند سهل [3] : " الحلال هو الذى لايعصى الله فيه ، والصافى منه الذى لاينسى الله فيه " .

وسأل الحسن غلاماً فقال له : " ماملاك الدين ؟

---

1 ـ إبراهيم ابن أدهم ـ إبراهيم بن منصور بن يزيد بن جابر ، القدوة الإمام ، العارف ، سيد الزهاد ، مولده فى حدود المئة ـ وتوفى سنة 162 هـ ـ كان من أولاد الملوك ، وكان يقول : من أراد التوبة فليخرج من المظالم ، وليدع مخالطة الناس وإلا لم ينل مايريد ، وقال : الزهد فرض ، وهو الزهد فى الحرام ، وزهد سلامة ، وهو الزهد فى الشبهات ، وزهد فضل ، وهو الزهد فى الحلال ، وقال : ماصَدَّقَ الله عبد أحب الشهرة ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 2/ 87 ، حلية الأولياء7/ 367، وفيات الأعيان 1 / 31 ، سير أعلام النبلاء 7/ 387، تهذيب التهذيب 1 / 102 ، شذرات الذهب 1 / 255 .

2ـ جزء حديث أخرجه ابن ماجة فى سننه ، كتاب الزهد 2/ 1410 ـ قال البوصيرى : هذا إسناد حسن ، مصباح الزجاجة 2 / 341 .

3ـ سهل بن عبد الله التسترى ـ الزاهد ت 283هـ، من أقواله : من أراد الدنيا والآخرة فليكتب الحديث فإن فيه منفعة الدنيا والآخرة ، وعنه قال: الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران، والمصر هالك . وقال : أصولنا ستة : التمسك بالقرآن ، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة ، وأداء الحقوق ، وقال : من تكلم فيما لايعنيه حرم الصدق ، ومن اشتغل بالفضول حرم الورع ، ومن ظن ظن السوء حرم اليقين ، ومن حرم هذه الثلاث هلك ، له ترجمة فى: اللباب 1 / 216 ، وفيات الأعيان 2/ 229، سير أعلام النبلاء13/ 330 ، شذرات الذهب 2 / 182 .

قال : الورع . قال فما آفته ؟ قال : الطمع " .

وقال الحسن : " مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة " .

وعن بعض السلف : " الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس فى كل طرفة عين ، جلساء اللّه غداً أهل الورع والزهد " .

وقيل : " من دق فى الدنيا ورعه ، جل فى القيامة خطره " .

فالورع مقدمة العطاء . ومن ترك شيئاً للّه عوضه اللّه خيراً منه .

قال يحيى بن معاذ[1] : " الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل " .

وقال : " الورع على وجهين :

ورع فى الظاهر ، وورع فى الباطن .

فورع الظاهر : أن لايتحرك إلا للّه .

وورع الباطن : أن لاتدخل قلبك سواه " .

وقال : " من لاينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء " .[2]

* وفى اليقين ، الذى هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، ومن خص اللّه أهله بالهدى والفلاح ، والذى متى ماوصل إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً ، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط .

وقال سهل : " ابتداؤه المكاشفة ، كما قال بعض السلف : " لو كشف الغطاء ماازددت يقيناً " ، ثم المعاينة ، والمشاهدة " .

---

1 ـ يحيى بن معاذ الرازى ، من كبار المشايخ . ت 258 هـ ـ وعنه قال : لست رأبكى على نفسى إن ماتت إنما أبكى على حاجتى إن فاتت ، لا يفلح من شممت رائحة الرياسة منه كيف يكون زاهداً من لاورع له ، تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك ، ويقول : الفوت أشد من الموت ، من خان اللّه فى السر ، هتك ستره فى العلانية ، له ترجمة فى : حلية الأولياء 10 / 51 ، وفيات الأعيان 6/ 326 ، شذرات الذهب 2 / 138 .

2 ـ انظر مدارج السالكين ، منزلة الورع 2 / 21 .

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئى إلى العين ، فلا يبقى معه شك ، ولاريب أصلاً ، وهذا نهاية الإيمان وهو مقام الإحسان .

واليقين على ثلاثة أوجه :

يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة .

يقين الخبر : سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به .

يقين الدلالة : ماهو فوقه ، وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة الدالة على ماأخبر به ، وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين ، يقيم لعبادة الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره ، فيحصل لهم اليقين من الجهتين ؛ من جهة الخبر ، ومن جهة الدليل .

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة ، وهى " يقين المكاشفة " بحيث يصير المخبر به لقلوبهم ، كالمرئى لعيونهم ، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئى إلى العين ، وهذا أعلى أنواع المكاشفة .

ومقتضى اليقين ، أن تقبل كل ماجاء عن الحق ، الظاهر منه والغائب ، والوقوف على ماقام بالحق من أسمائه وصفاته .

ثم الاستغناء بالاستدلال عن الاستدلال ، وعن الخبر بالعيان .

فصاحب اليقين قد استغنى به عن طلب الدليل ، فالدليل إنما يطلب ليحصل العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهداً له قد أدركه بكشفه ، فلا حاجة به إلى الاستدلال[1]

اليقين أقوى الأسباب المعالجة والقاضية على فتنة الشبهات ، كما أن الصبر علاج لفتنة الشهوات ، والمزج بينهما يثمر درجة الإمامة فى الدين ، قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾[2]

1 ـ مدارج السالكين ، منزلة اليقين 2/ 413.
2 ـ سورة السجدة آية 24.

للفتن بنوعيها نطاق انطلاق .

فالفتن من شأنها التوالد ، والتتابع ، والتنوع ، بحيث لاتقف عند حد أو عد .

والمفتون كذلك لايعرف التوقف ، فضلاً عن التقهقر ، أو التراجع ، فهو لايحب أن يكون وحده الموسوم بالفتنة ، بل يعمل على إغراء غيره وجذبه إليها فيصبح لفتنته ناشراً داعياً .

وأكثر الفتن إنما نشأت عن ذلك بلون من التجارى والمسارعة والتزيين .

إلقاءات وإغواءات وعروض مستمرة لاتتوقف من الشهوات والشبهات ، فإذا ماالتقت الشهوات والشبهات ثار الهوى ، وساد ، فأظلم القلب ، فخالف الحق وأخفاه ، وإن كان ظاهراً ، وتقول على الله بما لايعلم ، أو بما يعلم بطلانه ، ولم يميز بين سنة وبدعة ، وربما نكس على عقبيه فرأى السنة بدعة ، والبدعة سنة ، وتلك آفات من اتبع الشهوات والشبهات ، وحاصرت الفتن قلبه فاسود ، وتجرد من كل خير ، ونكس ، فلم يعلق به خير ، وفى الحديث الذى رواه حذيفة [1] وهو ممن ضبط عن نبينا ـ ﷺ ـ ، أمر الفتن الكائنة فى الأمة ، دليل وبيان لحقيقة تأثير الفتن على القلوب :

" تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض ، مثل الصفى ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً إلا ماأشرب من هواه" . [2]

1 ـ حذيفة بن اليمان ـ صاحب السر وأحد نجباء الصحابة الكرام ، وأعيان المهاجرين ، توفى بالمدائن سنة 36 هـ ـ كان يقول : إنى لأعلم الناس بكل فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة ، وكان يحدث الحديث ، يستفظعونه ، فقيل له يوشك أن تحدثنا : أنه يكون فينا مسخ ؟ قال : نعم ليكونن فيكم مسخ : قردة وخنازير ، وعن على ـ رضى الله عنه وقد سئل عن حذيفة فقال : علم المنافقين ، وسأل عن المعضلات ، فإن سألتموه تجدوه بها عالماً ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 6 / 156 ، 7 / 317 ، الجرح والتعديل 3 / 256 ، حلية الأولياء 1/ 270 ، سير أعلام النبلاء 2 / 361 ، تهذيب التهذيب 2 / 219 .

2 ـ الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان 1 / 128 ، وأحمد فى مسنده 5/ 386، 405 .

وأنت خبير بمعانى الحديث ، والمعنى أن الفتن تحيط بالقلب كالمحصور والمحبوس وأنها تلصق بعرض القلوب كما يلصق الحصير بجنب النائم ، ويؤثر فيه شدة التصاقها به ، ومن دخلت الفتنة فى قلبه دخولاً تاماً أثرت فيه أثراً أسود ، وهو دليل على السخط ، فقلب القلب ونكس ، حتى لايعلق به خير ولاحكمة[1]

وتأمل مافى الحديث من فوائد :

* طريقة عرض الفتن على القلوب ومافيه من تتابع مستمر ، ومافيه من تجزئه العرض ، بحيث يتقبلها القلب ولاينفر ، لأنه يراها حقيرة هينة صغيرة .

فتنة بعد فتنة . منظر يتكرر .

* استقرار الفتن بعد ذلك ، ودخولها دخولاً تاماً كأنها حلت فى القلب محل الشراب .

* ميل القلب ، وهو معنى التنكيس ، مكبوب حتى لايعلق به خير ولاحكمة .

* القلوب عند عرض الفتن عليها ، وصفة كل قلب ، ومآله ، فمآل من تجاوب مع الفتن ، اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يكاد يعرف معروفاً ولاينكر منكراً .

وربما استبد به هذا الاشتباه واستحكمت به الفتنة فاعتقد المعروف منكرا ، والبدعة سنة ، والشر خيراً والحق باطلاً ، والحلال حراماً ، ثم تأميره لهواه وتقديمه على ماجاء به الرسول ـ ﷺ ـ ، وعندما يؤمر الهوى ، يخفى الحق ويطمس الصواب ، وإن كان ظاهراً واضحاً لاخفاء فيه ولاشبهة .

* الفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ، وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغى والضلال ، فتن المعاصى والبدع ، فتن الظلم والجهل .

فالأولى توجب فساد القصد والإرادة .

والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .[2]

والله الموفق للصواب

1 ـ جامع الأصول 10 / 22 .   2ـ غاثة اللهفان 1 / 12 .

الفصل الرابع

فتنة الألقاب المخترعة

أ ـ الأئمـــــــــــة .

ب ـ الإمـــــــارة .

جـ ـ الثنــاء وتجريب اللسان .



- كل أمل ظفرت به فعقباه حزن.

إذ لابد من أحد شيئين :

إما ذهابه عنك ، أو ذهابك عنه .

إلا العمل لله والدار الآخرة - فعقباه فرح وسرور فى العاجل والآجل.

- إياك وحب الرياسة ، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لايبصره إلا البصير من العلماء.

- أبلغ فى ذمك من مدحك بما ليس فيك لأنه نبه على نقصك ، وأبلغ فى مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسك ، بذلك وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة ، لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً.

أ ـ الأئمــة

هم القادة المنظور إليهم ، والمقتدى بهم .

فهم أئمة ، والناس لهم تبع .

فإما قادوهم إلى جنة ، وإما إلى نار .

وإما أن ينالوا من ورائهم أجراً أو وزراً .

وهذا أمر يقع فيه اختلاف كبير ، وتفاوت عظيم ، كما أخبر ربنا عن صنوف من العمل والعمال والألقاب .

قال اللّه تعالى : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1]

هذا صنف . يمثل سرعة الاتباع .

وقال اللّه تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾ [2] ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾[3]

وهذا صنف آخر ، فمابين استماع واتباع ، وفرار وإعراض .

وهكذا من الناس أئمة هداية وأئمة ضلال .

أئمة خير وبركة ، وأئمة شر ونقمة .

وكل تابع فى الدنيا مع متبوعه فى الآخرة ، وسالك حيث سلك موعوداً بما وعد به متبوعه من خير أو شر .

---

1 ـ سورة الزمر آية 17 ، 18 .

2 ـ سورة نوح آية 5، 6 .

3 ـ سورة المدثر آية 49.

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [1]

هؤلاء أئمة خير ، فمن أحب الكون معهم فليسلك سبيلهم .

وقال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[2]

وهؤلاء أئمة كفر ، سعيهم فى غاية الخسة ومنتهى النحاسة .

فإمام وإمام ، مابين سعى الأول والثانى مابين الهدى والضلال ، والحسنة والسيئة ، والطاعة والمعصية .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ [3]

إن سجيته هى التى قيدته .

ولابد لكل إنسان من وصف طيب أو خبيث .

ومع اختلاف العمل والوصف يختلف الجزاء ومايترتب عليه .

قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[4]

اختلف العمل والوصف ، فاختلف الجزاء المترتب عليه .

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [5] ـ جزاء سعيكم لمختلف .

1 ـ سورة الأنبياء آية 73 .
2 ـ سورة القصص آية 41 ، 42.
3 ـ سورة الإسراء أية 84.
4 ـ سورة الروم آية 14، 15 ، 16.
5 ـ سورة الليل آية 4 .

فما بين ساع لإسعاد نفسه وإصلاح حاله .

ومابين ساع لإشقاء نفسه وإعطاب حاله .

مابين ساع إلى النعيم ، ومابين ساع إلى الجحيم .

وصفوة القول:

(1) أن الناس مختلفون منقسمون فى أحوالهم وأعمالهم وصفاتهم ومنازلهم .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (1)

قائداً فى الخير .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (2)

لاحظ ماترتب على الإيمان والعمل الصالح .

ولما ضرب ربنا المثل لعالم السوء جاء بمايناسبه : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (3)

فلأنه من أهل الرياسة انسلخ ، وخالف الحق ، وقال على الله غير الصدق ، إذ لاتتم لهم أغراضهم إلا بهذا ، وباتباع الشبهات ، وكلما كان الإمام محباً للرياسة متبعاً لشهواته ، دفع كل مايعترض سبيله .

وقد أبان ابن القيم عماتضمنته الآية من ذم لعالم السوء :

أ ـ أنه ضل بعد علم ، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً .

ب ـ أنه فارق الإيمان مفارقة من لايعود إليه ، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما

---

1 ـ سورة النحل آية 120 ، 121 .

2 ـ سورة الأنبياء آية 94 .

3 ـ سورة الأعراف آية 175 .

تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقى معه منها شيء لم ينسلخ منها .

فهو فارقها مفارقة الجلد يسلخ عن اللحم .

ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذى تسبب فى انسلاخه منها باتباعة هواه .

ج ـ أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿ا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل تبعه ، فإن معنى أتبعه ، أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى .

وقد كان محروساً محفوظاً بآيات الله من الشيطان الذى لاينال منه شيئاً إلا على غرة ، فلما انسلخ ظفر به الشيطان .

د ـ أنه غوى بعد رشد .

والغى : الضلال فى العلم والقصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد .

فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقترنا فالفرق ماذكر .

إذاً معنى الغاوين :

العاملين بخلاف علمهم ، والذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء .

هـ ـ أن الله سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم ، فكان سبب هلاكه ، لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه ، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه .

إذاً الرفعة ليست بمجرد العلم ، فإن هذا كان من العلماء ، وإنما هى باتباع الحق وإيثاره ، وقصد مرضاة الله ، وفيه إشارة إلى أن الذى يرفع متى شاء ، هو الله ، وأن من خفض الله موضوع لايرفع أحد به رأساً .

و ـ أن الله سبحانه أخبر عن خسة همته ـ الغاوى ـ وأنه اختار الأسفل الأدنى ، على الأشرف الأعلى .

هذا الاختيار منه لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى

الأرض .

وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام .

ثم تأمل مافى الآية من تشبيه لعالم السوء وكل من اتبع هواه ورضى بدنياه ، وآثر المخلوق على الخالق .

وهل من حيوان يشبه الكلب فى خسته وهمته التى لاتتعدى بطنه ، وحرصه ، ومهانته وهوانه؟

وليس مجرد كلب ، إنما كلب يلهث ، فهو شديد اللهفة على الدنيا .

" الكلب المنقطع الفؤاد ، لافؤاد له : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، فهو مثل الذى يترك الهدى لافؤاد له إنما فؤاده متقطع "

قال مجاهد : " ذلك مثل الذى أوتى الكتاب ولم يعمل به " .

وقال ابن عباس : "إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها ، وإن تتركه لم يهتد إلى خير كالكلب إن كان رابضاً يلهث طرداً أو تركاً . "

وقال أبو محمد بن قتيبة [1] : "كل شيء يلهث من إعياء ، أو عطش ، إلا الكلب ، فإنه يلهث فى حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال الصحة ، وحال المرض والعطش .

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، وقال إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ، كالكلب إن طردته لهث ، وإن تركته على حاله لهث " . [2]

ونظيره قوله سبحانه : ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [3]

---

1 ـ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، العلامة الكبير ، صاحب الفنون ت 276 هـ ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 3 / 42 ، تاريخ بغداد 10 / 170 ، تذكرة الحفاظ 2 / 633 ، ميزان الاعتدال 2/ 503 ، سير أعلام النبلاء 13 / 297 ، لسان الميزان 3 / 357 ، شذرات الذهب 2/ 169 .

2 ـ انظر التفسير القيم 280 ، الفوائد 101 .

3 ـ سورة الأعراف آية 193 .

(2) الحرص على أن تكون على الحق والهدى .

ولو كان الناس بعد ذلك على الضلالة والردى ، باختلاف رتبهم وألقابهم ، ولو كنت وحدك فالتحصن واجب ، والتأبى على خطط الكيد والمكر مطلوب .

وإن كنت وحدك فاستشعر مافى الإسلام من عزة إيمانية ، وقدرة حقيقة ، كم أعلنت عن تذويبها لمفردات الغربة وعوامل القلق ، والشعور بالوحدة .

بل كم أعلنت عن نفسها تمثلها فى فرد ، لك فيه أسوة ، يظهر لك فيها عون الله وتأييده للأفراد والقلائل .

قال الله تعالى : ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (1)
﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (2)

هذا فى مقابل القلة الممدوحة ، حيث يقول الله : ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (3)
﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ (4)

ولما استغرب عمر -رضى الله عنه- ، مادعا به رجل قائلاً : " اللهم اجعلنى فى الأقلين راجعه ، فقرأ الآيتين ، فأعجب به ، وردد معه " .

فتأمل هذا جيداً واعمل على أن تنتفع به .

مع أهمية العدد إلا أن الثبات على الحق لايرتبط بقلة أو بكثرة .

ولهذا قرر العلماء أنه حيث ورد الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً ، والمخالف له كثيراً ، فلا تغتر بكثرة ، ولاتيأس من قلة ، فالناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة ، وجاز القنطرة .

1- سورة الأنعام آية 116 .
2- سورة يوسف آية 103 .
3- سورة سبأ آية 13 .
4- سورة ص آية 24 .

خذ من الألف واحداً واطرح الكل بعده .

وفى الحديث : «*إنما الناس كالإبل ، المائة لاتكاد تجد فيها راحلة*» .

«*تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة* »[1]

فعلى الرواية الثانية ـ بدون ألف ولام ـ وبغير تكاد ، فالمعنى لاتجد فى مائة إبلراحلة تصلح للركوب ، لأن الذى يصلح للركوب ينبغى أن يكون وطيئاً سهل الانقياد وكذا لاتجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة ، بأن يعاود رفيقه ويلين جانبه .

والرواية بإثبات " لاتكاد " أولى لما فيها من زيادة المعنى ومطابقة الواقع .[2]

ومعنى الحديث ، أن المرضى المنتخب من الناس فى عزة وجوده ، كالنجيب من الإبل ، القوى على الأحمال والأسفار ، الذى لايوجد فى كثير من الإبل .

قال الأزهرى : "الذى عندى فيه أن اللّه ذم الدنيا ، وحذر العباد سوء مغبتها ، وضرب لهم فيها الأمثال ليعتبروا ويحذروا كقوله تعالى : **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ﴾**الآية [3]، ومأأشبهها من الآى ، وكان النبى ـ ﷺ ـ ، يحذرهم مما حذرهم اللّه ويزهدهم فيها ، فرغب أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد فى النادر القليل ، فقال " تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة " أى أن الكامل فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة قليل كقلة الراحلة فى الإبل .[4]

وقيل فى المعنى مايؤيد هذا ويؤكده ، أن المرضى الأحوال ، الكامل الأوصاف قليل .

---

1 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة 8/ 130 ، ومسلم فى صحيحه كتاب، فضائل الصحابة ، باب فضل فارس 4/ 1973 ، وابن ماجة فى سننه ، كتاب الفتن ، باب من ترجى له السلامة فى الفتن 2/ 1321 ، وأحمد فى مسنده 2/ 7، 44.

2 ـ فتح البارى 11/ 335.

3 ـ سورة يونس آية 24.

4 ـ النهاية فى غريب الحديث 1/ 15.

وقال القرطبى[1] " الذى يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذى يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ، ويكشف كربهم ، عزيز الوجود كالراحلة فى الإبل الكثيرة . "

وقال ابن بطال : " معنى الحديث أن الناس كثيرٌ والمرضى منهم قليل .

ففى كل مائة إبل لاتجد بعيراً يصلح .

والعرب تقول إبل بمعنى مائة ، يقولون لفلان إبل مائة أى مائة بعير وإبلان مائتان "

قال الراغب : " الإبل اسم مائة من البعير ، فقوله كالإبل المائة المراد به عشرة آلاف ، مائة فى مائة " .

ولم يرتض ابن حجر هذا .[2]

فدع عنك أمر العامة وارفع للحق راية ، ولو كنت وحدك .

وجدد سير الأوائل ، وسنناً سنها لك من قبلك ، ممن كانوا أفراداً واستحقوا لقب أمة .

قال الله تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة**﴾ وهو فرد ، فتمثل سيرته ، واستوعب الدرس وتأمل كلامه يوم قال : « *ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك* »[3]

كرر هذه الكلمات ورددها ، وتأمل المغزى ، وكن وريث خليل الرحمن ، واطلب ونادى بنداء عباد الرحمن : ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** ﴾[4].

قادة فى الخير ، ودعاة هدى يؤتم بنا ، أئمة نقتدى بمن قبلنا ويقتدى بنا من بعدنا .

أو المعنى : اجعلنا أئمة هدى ليهتدى بنا ، ولاتجعلنا أئمة ضلالة .

---

1 ـ القرطبى : أحمد بن عمر الأنصارى ، الفقيه ، أحد أعيان المذهب المالكى ، وصاحب شرح مسلم، (476 ـ 544 هـ) ، البداية والنهاية 13/ 213 .

2 ـ فتح البارى 11/ 335 .

3 ـ الحديث أخرجه البخارى فى الصحيح ، كتاب الأنبياء 4/ 17 ، وأحمد فى مسنده 2/ 404 .

4 ـ سورة الفرقان آية 74 .

وقيل : ليس المراد أن نؤم الناس ، وإنما أرادوا اجعلنا أئمة لهم فى الحلال والحرام يقتدى بنا فيه .[1]

وقد حقق الله الجماعة فى أفراد فكانوا هم " الجماعة والسواد الأعظم " ذلك أن ابن مسعود قرأ : " إن معاذاً[2] كان أمة قانتاً لله حنيفاً " ، فقال له فروة ابن نوفل : إن إبراهيم، فأعادها ثم قال : " إن الأمة معلم الناس الخير ، والقانت المطيع ، وإن معاذاً - رضى الله عنه ، كان كذلك " .

ولما قيل له ياأبا عبد الرحمن نسيتها ، قال : لا ولكننا كنا نشبهه بإبراهيم "[3]

كما وصفوا محمد بن أسلم الطوسى[4] بأنه هو السواد الأعظم الوارد فى الحديث الذى يقول فيه الرسول - ﷺ - « *إن أمتى لاتجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم* »[5]

ذلك أن من سئل من أهل العلم فى زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث ، قال : محمد بن أسلم الطوسى وأصحابه ومن تبعه ، ثم قال إسحق بن راهويه : لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة أشد تمسكاً بأثر النبى - ﷺ - من محمد بن أسلم .

قال ابن القيم : " وصدق فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنة داع إليها ، فهو الحجة ، وهوالإجماع ، وهو السواد الأعظم ، وهو سبيل المؤمنين التى من فارقها واتبع

---

1 - فتح البارى 13 / 251 .

2 - معاذ بن جبل بن عمرو ، ت 17 هـ وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 8 / 244 ، طبقات الشيرازى 45 ، سير أعلام النبلاء 1 / 443 ، تذكرة الحفاظ 1 / 19 ، تهذيب التهذيب 10 / 186 ، شذرات الذهب 1 / 29 .

3 - سير أعلام النبلاء 1 / 451 .

4 - محمد بن أسلم ، الإمام الحافظ الربانى - مولده فى حدود (180 - 242 هـ) ، كان من المتتبعين للآثار ، وركناً من أركان الإسلام ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 7 / 201 ، حلية الأولياء 9 / 238 ، سير أعلام النبلاء 12/ 195 ، تذكرة الحفاظ 2 / 532 ، طبقات الحفاظ 233 . شذرات الذهب 2 / 100 .

5 - الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن 2 / 1303 ، قال البوصيرى : ضعيف لضعف أبى خلف الأعمى ، والحديث روى من عدة طرق يمكن أن يتقوى بها ، مصباح الزجاجة 2/ 289 .

سواها ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا "(1)

ومن تتبع سيرة ابن أسلم وجده كما وصف ركن من أركان الدين ، صاحب بصر واتباع للأثر ، وزهد فى الدنيا ، وفصاحة بالقرآن والنحو .

فمفتاح كونك جماعة أن تكون على الحق قائماً ، وبالحق عاملاً ، وللحق حارساً .

" حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً " .

ومما قال ابن مسعود : " إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة ، الجماعة ماوافق الحق وإن كنت وحدك " .

وفى طريق أخرى : " إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ماوافق طاعة الله عز وجل " .

قال نعيم بن حماد : " يعنى إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ " .

وقال الحسن : " السنة والذى لاإله إلا هو ، بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ، ولامع أهل البدع فى بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا " .(2)

---

1 ـ إغاثة اللهفان 1 / 69 .

2 ـ إغاثة اللهفان 1/ 70 .

ب ـ فليؤمروا أحدهم

وقال الله تعالى : ﴿وأُولِي الأَمْرِ منكُمْ﴾ (1)

أشار البخارى فى صحيحه إلى ترجيح القول الصائر إلى أن الآية نزلت فى طاعة الأمراء ، خلافاً لمن قال نزلت فى العلماء . (2)

ولما كان مايعرف به التكليف " القرآن والسنة " كان المعنى : أطيعوا الله فيما نص عليكم فى القرآن ، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن ، ومابنصه عليكم من السنة .

أو المعنى : أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحى المتعبد بتلاوته ، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحى الذى ليس بقرآن .

قال ابن حجر : " ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بنى أمية لما قال له : أليس قد أمركم أن تطيعونا فى قوله : ﴿وأُولِي الأَمْرِ منكُمْ﴾؟

فقال له : أليس قد نزعت عنكم ؛ يعنى الطاعة إذا خالفتم الحق ، بقوله : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(3)؟

إذًا إعادة الفعل نظراً لاستقلال الرسول ـ ﷺ ـ بالطاعة ، ولم يعده مع أولى الأمر إشارة إلى أن فيهم من لاتجب طاعته إذا لم يعلموا بالحق . (4)

أو أمروا بمعصية ، وهذا كله من باب اتفاق الكلمة ، لما فى الافتراق من الفساد وليكون الأمر جميعاً ، ولايتفرق بهم الرأى ، إذ لابد من ولاية أمر الناس ، ولابد للناس

---

1 ـ سورة النساء آية 59 .

2 ـ صحيح البخارى ، كتاب الأحكام 9 / 77 .

3 ـ سورة النساء آية 59 .

4 ـ فتح البارى 13 / 111 .

ممن يتولى أمرهم متى بلغوا ثلاثة .

فعن أبى سعيد [1] أن رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال : « *إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم* » . [2]

والإمارة حمل ، وحمل ثقيل .

ففيها إغراءات نفس ، ووساوس شيطان .

فيها بطر ، وترف ، ورخاوة ، وتبعة .

والذين يعرفون حجم التبعة لن يبقى لديهم من معنى الإلتزام بالأمر الصادر إلا ثقله الثقيل .

والأمر لاينعقد بدون إمارة .

حتمية فرضتها حيثيات كثيرة .

إن الدين الإسلامى لابد له من جماعة ، ولابد للجماعة من إمام يقوم على شئونها يتولى أمرها ، ويحاسب عمالها ، ويرجع إليه عند الاختلاف ، ولهذا أمر بها النبى ـ ﷺ ـ، لمن كانوا ثلاثة فأكثر ، أقل الجمع .

وفى بعض طرق الحديث « *إذا كان ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم* . . »

قال نافع [3] : فقلنا لأبى سلمة [4] " فأنت أميرنا " .

---

1 ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى ، الإمام مفتى المدينة ت 74 هـ من أقواله " عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى أهل السماء وذكرك فى أهل الأرض ، وعليك بالصمت إلا فى الحق ، فإنك تغلب الشيطان " ، ترجمته فى : طبقات الشيرازى 51 ، سير أعلام النبلاء 3/ 168 ، تذكرة الحفاظ 1 / 41، تهذيب التهذيب 3/ 479 ، شذرات الذهب 1 / 81

2 ـ الحديث أخرجه أبو داود فى سننه 3/ 36 ، والبغوى فى شرح السنة 1/ 7 ، والهيثمى فى مجمع الزوائد 5 / 255.

3 ـ نافع مولى ابن عمر الإمام الثبت المفتى ، كان ثقة ، كثير الحديث ت 117 هـ ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 8/ 451 ، تذكرة الحفاظ 1 / 99 ، سير أعلام النبلاء 5/ 95 ، تهذيب التهذيب 10 / 412.

4 ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، كان ثقة فقيهاً ت 94 هـ ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 5/ 155=

قال ابن تيمية : " يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لاقيام للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع على رأس - حتى قال النبى - ﷺ - : « *إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم* . . » فأوجب - ﷺ - تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع " [1]

وهذا الأمر محل اتفاق بين المسلمين .

اتفقوا على أن الإمامة فرض ، وأنه لابد من إمام .[2]

قال إمام الحرمين [3] : " نصب الإمام عند الإمكان واجب .

ورد على من قال بالجواز وعدم الوجوب ، بأنه مسبوق بإجماع من أشرقت عليه الشمس شارقة وغاربة واتفاق مذاهب العلماء قاطبة " .[4]

ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك:

الدعوة إلى الزهد فى الإمارة بل وفى المناصب القيادية ، أهم من الزهد فى المال ، والنفوس الواعية تتورع عن كل مايحذر منه الإسلام .

فكيف بمن سعى إليها وطلبها .

وقد اعتبروا من لم يزهد فى الإمارة ميئوساً من صلاحه وإصلاحه .

=طبقات الشيرازى 61 ، سير أعلام النبلاء 4/ 287 ، تذكرة الحفاظ 1 / 59 ، تهذيب التهذيب 12 / 115، تاريخ الثقات للعجلى 499.

1 - السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والراعية 138 .

2 - مراتب الإجماع لابن حزم 124 .

3 - عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (419 - 478 هـ) كان يقول : "لو استقبلت من أمرى مااستدبرت مااشتغلت بالكلام " ، وقال عند موته : "اشهدوا على أنى قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة ، وأنى أموت على مايموت عليه عجائز نيسابور " ، له ترجمة فى : تبيين كذب المفترى278، معجم البلدان 2/ 193 ، وفيات الأعيان 3 / 167 ، سير أعلام النبلاء 18/ 468 ، طبقات السبكى 3/ 261 ، مقدمة الغيائى، والبرهان .

4 - الغيائى 22 ، 23 .

وأن من طلبها وحرص عليها ، وكلت إليه وصرفت إليه وخلى بينه وبين نفسه فلا عون له ، ولاتوفيق من اللّه سبحانه .

وقد أجمع العارفون باللّه على أن الخذلان ، أن يكلك اللّه إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها ، والتوفيق أن لايكلك اللّه إلى نفسك .[1]

فما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك .

ذلك أن فى الطلب نوع تزكية للنفس ، ورفع للسعر واللّه أعلم بالقيمة . كما فيه نوع تعجل ، ومع التعجل حرمان ، فمن تعجل بالشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

والحرص على الإمارة والجاه والشرف مفسد للدين ، ومضيعة للحكمة ، إذ لاتسكن الحكمة قلباً فيه ثلاث خصال :

هم الرزق ، وحسد الخلق ، وحب الجاه .

والعلماء على أن كل من طلب الإمارة فأعطيها تركت إعانته عليها من أجل حرصه ، فإن لم يكن له من اللّه عون على عمله لايكون فيه كفاية لذلك العمل ، فلاينبغى أن يجاب سؤاله ، ومن المعلوم أن كل ولاية لاتخلو من المشقة ، فمن لم يكن له من اللّه إعانة تورط فيما دخل فيه ، وخسر دنياه وعقباه .[2]

ثم إن الذى يناله فى دنياه من السرور والفرحة واللذة ، دون مايناله من الحسرة والألم إذ لابد من أحد أمرين ، إما العزل ، أو ذهاب الإمارة عنه إلى غيره ، فإما أن تذهب عنه وتتركه ، وإما أن يذهب عنها ويتركها ، هذا مع مايناله من الندامة والمؤاخذة فى الآخرة .

تفنى اللذاذة ممن نال شهوتها ◆ من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء لاانفكاك لها ◆ لاخير فى لذة من بعدها نار[3]

وتأمل : " كل أمل ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك أو بذهابك عنه ، ولابد

---

1 ـ مدارج السالكين 1 / 200 .

2 ـ فتح البارى 13 / 124 ، شرح صحيح مسلم للنووى 12 / 448 .

3 ـ البيتان للإمام أحمد ـ رضى اللّه عنه ، كما فى مناقبه لابن الجوزى 205 .

من أحد هذين الشيئين. . . "

" لاتبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، فى دعاءإلى حق ، وفى حماية حريم ، فى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى وفى نصرة مظلوم . وباذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى .

لامروءة لمن لادين له ، العاقل لايرى لنفسه ثمناً إلا الجنة "[1]

مع هذا فالزهد فى الرياسة أقل مايكون .

لهذا قال الثورى : " مارأيت الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة ، ترى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإن نوزع الرياسة حامى عليها وعادى " .[2]

" إياك وحب الرياسة ، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لايبصره إلا البصير من العلماء السماسرة فتفقد نفسك ، واعمل بنية ، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهى الرجل أن يموت " .[3]

من طلب الرياسة قبل مجيئها فرت منه..

لكن ماالعمل الآن إذا كانت الأمور بيد من لايتقنها من الخونة واللصوص ، ومن لايؤدى الأمانة ، وفى الناس من يعلم فضله وكفايته ، ومن كمل فيه الاجتهاد وشروط الإمامة .

مع البعد عن التشفى والغرور والأبهة ، والعمل للذات ، والدوران فى خدمة النفس .

من كان كذلك فهل يجوز له أن ينبه الحكام على مكانته ؟ أم يأخذ بسلاح التأنى على الأخص فى أيام الفتن ، والتفريغ والتخريب ، ويكون حذراً فإن أقل ماتوصف به أيامنا هذه أنها أيام ريبة . وبالأخص فى أيام الفتن ، والتفريغ والتخريب ،

---

1 ـ الأخلاق والسير لابن حزم 16 .

2 ـ سير أعلام النبلاء7 / 262 .

3 ـ من رسالة الثورى إلى عبادبن عباد انظر الحلية 6 / 376 ـ 377 .

أغيلمة !!

يقال للصبى حين يولد إلى حين يبلغ الحلم .

والتصغير لإرادة الصبيان .

وقد يطلق على الرجل المستحكم القوة غلام ، تشبيهاً له بالغلام فى قوته [1]

وربما لضعف العقل وقلة التدبير ، والبعد عن الدين .

وقد يراد بعض أولاد الأمراء ، ومن وقع منهم الفساد أو بسببهم تنسب إليهم .

وأياً ماكان فقد أخبر النبى ـ ﷺ ـ أن هلاك الأمة على يد غلمة من قريش .[2]

ومن ثمَّ تعوذ الصحابى الجليل راوية الإسلام من إمارة الصبيان .

ولما قالوا له : " وماإمارة الصبيان ؟

قال : إن أطعتموهم هلكتم ـ أى فى دينكم ـ وإن عصيتموهم أهلكوكم ـ فى د نياكم ـ بإزهاق النفس . "

قال ابن حجر : " والمراد أنهم يهلكون الناس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال الناس ويكثر الخبط بتوالى الفتن "[3]

وهو عين ماتخوف منه النبى ـ ﷺ ـ على أمته يوم قال : « *إنما أخاف عليكم الأئمة المضلين* »[4]

فهل للدين بقاء مع هذا السند من الضلال ؟

لاشك أنها أوضاع شاذة ومقلوبة .

---

1 ـ راجع ترجمة الإمام الزاهد عتبة بن أبان البصرى ـ الملقب بعتبة الغلام ـ لنشاطه فى خدمة إخوانه ومداومة العبادة ـ الحلية 6 / 226 ، سير أعلام النبلاء 7 / 62 .

2 ـ أخرجه البخارى فى الصحيح 9 / 60 .

3 ـ فتح البارى 13 / 10 .

4 ـ الحديث أخرجه أبو داود فى سننه 4 / 97 ، وابن ماجه فى سننه 2 / 1304 ، والدارمى فى سننه 2/ 311 .

مصاعب و آفات

لاصمت أمام المصاعب ، بل لابد من مواجهتها ، وهذه بداية الطريق للعلاج .

إن المصاعب إنما تتغير بمواجهتها بقوة ، ورحابة صدر ويعين على ذلك ، أن كراهية الشيء تمهد الطريق لإزالته والقضاء عليه .

أو علاجه وتهذيبه على مقتضى الشرع .

الحرص .. ندامة ، غرامة ، عذاب يوم القيامة ، ففيه تعجل ، وعدم ثقة أو اطمئنان لما عند الله أو رفض للتوزيع ، وزعم أن ماوصل إلى الغير خطأ كان هو الأجدر به ، أو معاداة للقدر ، والقدر حق ، وإذا كان القدر حقاً فالحرص باطل .

وإذا كان الغدر فى الناس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز ، وإذا كان الموت راصداً ، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

والحرص داء وهو أحد أصول الخطايا ويشكل مع الكبو والحسد ، شالوث الهلاك .

فالحرص هو الذى أخرج الوالدين من الجنة .

والكبر هو الذى أصار إبليس إلى ماأصاره إليه ، فبدل حاله أسوأ حال .

والحسد هو الذى جرأ أحد ولدى آدم على قتل أخيه ، ولذلك فمن وقى هذه الثلاثة فقد وقى الشر كله .[1]

والحرص من عوامل فساد الدين والمروءة ، ولاسيما الحرص على الشرف والدنيا والمال .

والحرص على الشرف أشد هلاكاً للمرء من الحرص على المال ، فإن طلب الشرف فى الدنيا والرفعة فيهاوالرياسة على الناس ، والعلو فى الأرض ، أضر على المرء من طلب المال وضرره أعظم ، والزهد فيه أصعب ، فإن المال يبذل فى طلب الرياسة والشرف .

1 ـ انظر : الفوائد لابن القيم 58 .

أورد ابن حجر عن المهلب [1] قال :

" الحرص على الولاية هو السبب فى اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج ، وعظم الفساد فى الأرض بذلك " [2].

ولهذا وغيره فقد أخبر النبى ـ ﷺ ـ ، بوقوع الحرص على الإمارة « *إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة* »، وهذا الحديث أصل عظيم فى اجتناب الولاية خاصة لمن كان فيه ضعف ، ومن دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل .

ولما سأله رجل من الأشعريين الإمارة قال : « *إنا لانولى هذا من سأله ولا من حرص عليه* » [3]

فأخبر النبى ـ ﷺ ـ ، عن الشيء قبل وقوعه ، فوقع كما أخبر !

وكان الحرص ، ويتبع ذلك الندامة لمن لم يعمل فيها بما يجب ، ولم يعدل ويؤد الذى عليه فيها ، أو أخذها بغير حق .

فوازن بين المغارم والمغانم ، وبين ماينال فى الدنيا ومايترتب عليه فى الآخرة .

واعلم أنه لاخير فى لذة من بعدها نار .

وأنه لاينبغى لعامل أن يفرح بلذة يعقبها حسرات ، وأنه مامن أمل إلا ويعقبه ندم، ومامن منصب إلا وبعده عزل أو موت ، أو خمول ومؤاخذة فى الدنيا والآخرة .

وهذا هو وجه الندم : عزل ، قتل ، موت ، تبعات ، فوات ماحرص عليه ، مجازاة

---

1 ـ المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأندلسى ، مصنف شرح صحيح البخارى وأحد الأئمة الفصحاء ت435 هـ ، له ترجمة فى : سير أعلام النبلاء 17 / 579 ، شذرات الذهب 3 / 255 .

2 ـ فتح البارى 13 / 126 .

3 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأحكام : باب مايكره من الحرص على الإمارة 9 / 79 . من حديث أبى هريرة ، والثانى من حديث أبى موسى الأشعرى . والبيهقى فى سننه 10 / 95 ، والبغوى فى شرح السنة 10 / 57 .

بالخزى يوم القيامة .

قال ابن عبد البر [1] : الحرص على الشرف على قسمين ، أحدهما : طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال .

وهذا أخطر ، وهو فى الغالب يمنع من خير الآخرة وشرفها ، وكرامتها وعزها .

قال اللّه تعالى : **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[2] وقل من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولاية فيوفق ، بل يوكل إلى نفسه كما قال النبى ـ ﷺ ـ لعبد الرحمن بن سمرة [3] ـ ﷺ ـ : « *ياعبد الرحمن لاتسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها* » [4]

قال بعض السلف : " ماحرص أحد على ولاية فعدل فيها " .

هذا والحرص على الشرف يستلزم حرصاً عظيماً قبل وقوعه فى السعى وأسبابه وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذى يقع فيه صاحب الولاية من الظلم ، والتكبر ، وغير ذلك من الفاسد . [5]

---

1 ـ يوسف بن عبد البر بن محمد الإمام الحافظ الأندلسى ، صاحب التصانيف الفائقة (368 ـ 463) هـ ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 7/ 66 ، تذكرة الحفاظ 3/ 1128 ، سير أعلام النبلاء 18/ 153 ، طبقات الحفاظ 432 شذرات الذهب 3/ 314 .

2 ـ سورة القصص آية 83 .

3 ـ عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ، أسلم يوم الفتح ، وشهد تبوك ، وفتوح العراق ، وكان أحد الأشراف ت 51 هـ ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 5/ 238 ، سير أعلام النبلاء 2/ 571 ، الإصابة 2/ 400 ، تهذيب التهذيب 6/ 190 ، شذرات الذهب 1/ 53 .

4 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 9/ 79 ، ومسلم فى صحيحه 3/ 1456 ، وأبو داود فى سننه 3/ 229 ، والنسائى فى سننه 7/ 10 ، والترمذى فى سننه 4/ 107 ، وقال : حسن صحيح ، والدارمى فى سننه 2/ 186 ، وأحمد فى مسنده 5/ 62 ، والبيهقى فى سننه 10/ 31 .

5 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 171 .

جـ - الثناء .. وتجريب اللسان

قصد العلو ، علو المنزلة والتسامي والتعالي ، فيرى لنفسه ماليس لغيره ، فيرفع سعره ، ويغالي في ثمنه ، ويطلب لنفسه ثمناً أعلى من قيمته ويحب من الناس أن يتواضعوا له ، وأن يكرموه بعمله ، وأن يروا له مكانة في نفوسهم ، وأن يظهروا حاجتهم إليه ، وافتقارهم له ، وتوجههم بالطلب والسؤال وإنزال الحوائج عنده .

وربما شح بما في يده رغبة في إرغامهم ، والضغط عليهم وإنزال المزيد من الحوائج بساحته .

وكلها مداخلات وأمور أخطر من مجرد الظلم .

يكفي مافيها من مماثلة ومزاحمة ومناددة ، وأن يخلع الإنسان على نفسه صفات ليست له .

ويرى ابن عبد البر أن من هذا الباب ، أن يحب صاحب الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثني عليه بها ، ويطلب من الناس ذلك ، ويتسبب في أذى من لايجيبه إليه وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح ، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر وأحب المدح عليه ، وقصد به في الباطن شراً وقصد تمويه ذلك وترويجه على الخلق .(1)

وهي أمور أخطر من مجرد الظلم

يكفي أن يكون من ورائها العجب ، والكبر ، والفتور ، وإظهار خلاف ماهو مضمر ، والقول بغير ماهو محقق ، ولاسبيل إلى الاطلاع عليه ، وقد يفرح من مدح ، وأثنى عليه وهو ظالم ، وفي ذلك معصية : " فمن دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى اللّه تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذل ليغتم ، ولايمدح ليفرح "(2)

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 173 .

2 ـ إحياء علوم الدين 3/ 160 .

ففى مدحه فتنة له ، إذ قد يورثه ذلك فتوراً ، ورضى عن نفسه ، وهيهات لمن كان هذا حاله اكتمال أو نجاة أو تشمير أو عمل .

الاغتباط بالذم :

قد عز فى الناس وجوده .

مع أنه من كمال العقل ، وتمام الحظ ، أن يكون اغتباطك بذم الناس إياك ، أكثر من فرحك بمدحهم لك .

كما هو صنيع سلف الأمة ؛ اتهام النفس وإظهار الوحشة عند المدح .

وعدوا من أمارات الإخلاص وبركة التوحيد:

*** استواء المدح والذم عندك من العامة .**

*** ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال .**

*** واقتضاء الثواب على العمل فى الآخرة .**

فمتى استوى عندك مدح المادح وذم الذام ، فقد توفر لديك أمارة الإخلاص .

ومتى رأيت عملك فهو منزوع الإخلاص ، وعليه لم يرفع فوق رأسك ، وإذا كان كذلك فأين القبول؟

قال الله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ .(1)

ثم وانتظار الثواب على العمل فى الآخرة .

فلا تطلب لعملك الأخروى أجراً دنيوياً .

وإنما كان استواء المدح والذم علامة إخلاص ، لأن المدح إن كان بحق فربما أفسد وأدخل الإنسان دائرة العجب .

وإن كان بباطل فسرك ، فقد سررت بكذب ، وهذا نقص شديد ، ومن سمات

---

1 ـ سورة فاطر آية 10 .

النفاق إذ هو سرور بما ليس فيك ، وتشبع بما لم تعط .

وأما ذم الناس فلا يخلو من فائدة .

فإنه إن كان بحق فربما كان سبباً فى تجنبه .

وهو حظ عظيم لايزهد فيه إلا مجنون .

وإن كان بباطل فصبر ، فقد اكتسب فضلاً زائداً على الحلم ، وكان غانماً لأنه سيأخذ من حسنات من ذمة بباطل ، وهذا حظ عظيم أيضاً .

فضلاً عن طرح السيئات ، وإلقائها على من ذمه بباطل ، على سبيل المقاصة .

وتأمل عيوب حب الذكر والثناء .

ومنها:

* أنه يحبط الأعمال إذا أحب أن يذكر بها ، فكان شركاً ، لأنه عمل لغير الله تعالى .

* وهو يطمس الفضائل ، لأن صاحبه لايكاد يفعل الخير حباً للخير ، ولكن ليذكر به .

لذا قالوا :

" أبلغ فى ذمك من مدحك بما ليس فيك لأنه نبه على نقصك .

وأبلغ فى مدحك من ذمك بماليس فيك ، لأنه نبه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسك بذلك وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة " .

لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً

لايخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت ، أكثر مايكون من لم يظن ، فالحزم هو التأهب لما يظن ، فسبحان من رتب ذلك ليرى الإنسان عجزه وافتقاره

إلى خالقه عز وجل.[1]

وبكل حال فأنت أعلم بنفسك وأخبر بها من غيرك.

فلاتدع الغير يجرب فيك طلاقته وبلاغته لحاجة فى نفسه، فأنت أعلم بنفسك وأدرى بما بين جنبيك، من مفتون قال بظن أو بجهل، فلا تترك ظن ماعنده ليقين ماعندك، ولايغلبن جهل غيرك، علمك بك. فتلك فتنة وغرور يأباه كل من كان أوفر عقلاً، وأتم علماً، ويقيناً، كيف وهو أعظم اتهاماً لنفسه وأقل إعجاباً بها ورضى عنها.

إلا أنها سلعة باتت غير مطلوبة، وأمراً عزفى الناس وجوده، فقل أن تجد من يبصرك بعيوبك، فالناس مابين مداهن يخفى عنك عيوبك، أو حسود شامت يزيد على قدر الواجب، ويرى ماليس بعيب عيباً، أو صاحب غرض وهوى نفسى يدور فى فلك هواه.

فالانشغال بهذا حمق.

وأقل منه من يقبل النصيحة، فضلاً عن أن يطلبها، أو يبحث عنها عند الخبراء.

ولقد تأمل مالك بن دينار [2] أحوال الناس وأعطاك خلاصة تجربته، يوم قال: " منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم، ولم أحزن لذمهم".

قالوا: كيف ذلك ياأبا يحى؟ قال: " إنى لاأرى إلا مادحاً مفرطاً، وذاماً مفرطاً".[3]

والبخارى، حيث قال: " الحامد والذام عندى واحدٌ أو قال سواء "[4]، وإذا

---

1 ـ الأخلاق والسير 38.

2 ـ مالك بن دينار، أحد رواة الحديث وأصحاب الورع، وكان لايأكل إلا من كسبه ت 130 هـ ـ كان يقول: "وددت أن رزقى حصاة أمتصها لاألتمس غيرها حتى أموت، خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها ـ قيل: وماهو؟ قال معرفة اللّه تعالى"، له ترجمة فى: طبقات ابن سعد 7 / 243، الجرح والتعديل 8 / 208، سير أعلام النبلاء 5 / 362، ميزان الاعتدال 3 / 426، تهذيب التهذيب10 / 14.

3 ـ سير أعلام النبلاء 5 / 362، العزلة للخطابى 170.

4 ـ تاريخ بغداد 2 / 30.

الأمر سواء عندهما لبلوغهما درجة الإخلاص ، فلدى غيرهما شهوة من نوع خاص ، البحث عن عيب النفس .

فإذا لم يجد من يبصره بعيبه هجره واعتزله ، ولهذا كان داود الطائى [1] معتزلاً الناس فقيل له : لم لاتخالط الناس؟

فقال : " وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى ؟ "

فوصل الأمر حد القطيعة ، أو حد الإعراض عن المادح ، ذلك أنه لما دخل على عمر ابن عبد العزيز رجل فقال : ياأمير المؤمنين إن من قبلك كانت الخلافة لهم زيناً ، وأنت زين الخلافة .

فأعرض عنه .

أو حد الغضب وإظهار الوحشة .

قال ابن القيم : " ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيراً : مالى شىء ، ولا منى شىء ، ولا فى شىء .

وكان كثيراً مايتمثل بهذا البيت :

أنا المكــدى وابن المكــدى ◆ وهكــذا كان أبى وجــدى .

وكان إذا أثنى عليه أحد فى وجهه يقول : " والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت ، وماأسلمت بعد إسلاماً جيداً " . [2]

قد كانت سمة عامة وسياسة متبعة ، نهى الناس عن مدحهم على أعمالهم ومايصدر

---

1 ـ داود بن نصير ، أبو سليمان الطائى ، الكوفى الزاهد ـ أحد الأولياء ، الفقهاء ، ممن برع فى العلم ، ولزم الصمت ، وآثر العزلة ، ت 165 هـ ، وعنه قال : "كفى باليقين زهداً ، وكفى بالعلم عبادة ، وكفى بالعبادة شغلاً " ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 6 / 367 ، حلية الأولياء 7 / 335 ، تاريخ بغداد 8 / 347وفيات الأعيان 2 / 259 ، تهذيب التهذيب 3 / 203 ، شذرات الذهب 1 / 256 .

2 ـ مدارج السالكين 1 / 562 .

منهم من إحسان ، ويردون العمل إلى من أعانهم عليه ووفقهم إليه .

فأضافوا ذلك كله إلى الله سبحانه ، فانشغلوا به ، وأرشدوا الناس إلى الانشغال به فاستفادوا تعظيم الحق ، ورحمة الخلق .

وهذا أمل المحبين ، فغاية مقصدهم أن يحببوه إلى خلقه ، فيحبوه ويفردوه بالعبودية ، فأمروا العباد بطاعة الله ، ونصحوا لهم بدعائهم إليه ، قاصدين أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون العزة له سبحانه وتعالى .

من باب رد الفضل لصاحبه ، فكيف بمن يزاحمونه ؟

وقد كان النبي - ﷺ - ينكر على من لايتأدب معه فى الخطاب بهذا الأدب كما قال : *«لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد »* .[1]

وقال : *« لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم ماشاء فلان»*[2] وقال لمن قال له : ماشاء الله وشئت *« أجعلتنى لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده »*[3]

والقاعدة فى المدح ، أن من مدح رجلاً فقد تضمن عيبه ، كما أنهم عدوا الثناء الحسن من جملة الأجر ، فرفضوه حتى لاينقص أجرهم فى الآخرة .

ويقولون : الثناء معدود من الجزاء وأنا لاأحب نقص ثواب أخى بالثناء عليه بين الناس ، ولهذا كان أمراء العدل لايدعون إلى تعظيم نفوسهم ، ومنهم من كان يرفض الثناء ، ويهرب ويظهر الوحشة ، ويهجر ، ومنهم وهم كثير من رفض الإمارة ومجالس القضاء فإن قبل فلدينه ولدعوته ، واستعانة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع الصبر على مايلحقهم من أذى فى الدعوة إلى الله ، وربما سعدوا بالمشقة وتلذذوا بما يصيبهم من الأذى فى رضى الله تعالى .

---

1 ـ أخرجه أبو داود فى سننه 2 / 295 ، والدارمى فى سننه 2 / 295 وإسناده صحيح .

2 ـ أخرجه أبو داود فى سننه 4 / 295 ، وأحمد فى مسنده 5/ 384 ، 394 ، 398 ، والبيهقى فى سننه 3/ 216 .

3 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 1 / 214 ، والبيهقى فى سننه 3/ 317 ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 2 / 174 .

أجـد الملامة فى هـواك لذيـذة ◆ حبـاً لذكـرك فليلمنى اللـوم .

كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لوالده فى خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل : " ياأبت لوددت أنى غَلَتْ بى وبك القدور فى الله عز وجل . . "[1]

فانظر كيف انقلبت الأمور ، وآل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الناس من يبصرنا بعيوبنا إننا أصبحنا نجيد الثناء فى العلانية ، والتآخى فى الظاهر ، والعداء والذم والتباغض فى الباطن .

حتى قال أبو عبيدة .[2] :

" كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع أن يكون إخوان العلانية أعداء السر " .

وقد جاء عن بعض أهل العلم من السلف : " إذا تعلم الناس العلم ، وتركوا العمل ، وتحابوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا بالأرحام ، لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم " .[3]

فتأمل هذا وانتفع به ، واحذر أن تعظم أحداً إلا تبعاً لتعظيم الشرع له ، كما لاتقبل من أحد تعظيماً إلا على هذا الشرط ، ولو كان فيك مادعاه إلى تعظيمك حتى لاتتشبع بما ليس فيك فتكون كلابس ثوبى زور .

وأفضح مايكون للمرء دعواه بما لايقوم به .

من تحلـى بغير ماهـو فيـه ◆ فضحتـه شواهد الامتحان

وجرى فى العلوم جرى سكيت ◆ خلفته الجياد يوم الرهان[4]

---

1 ـ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 2 / 174 .

2 ـ أبو عبيدة : عامر بن الجراح أحد السابقين الأولين أمين الأمة كان موصوفاً بحسن الخلق ، وبالحلم الزائد والتواضع ، ت 18 هـ ، وعنه قال : " أيها الناس إنى امرؤ من قريش ، ومامنكم من أحمر ولاأسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه" . له ترجمة فى : الحلية 1 / 100 ، سير أعلام النبلاء 1 / 5 ، تهذيب التهذيب 5 / 73 ، شذرات الذهب 1/ 29 .

3 ـ إحياء علوم الدين 1 / 44 ، قال العراقى فى المغنى بالهامش : أخرجه الطبرانى من حديث سلمان بإسناد ضعيف .

4 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 145 .

الفصل الخامس

الكمال ... والكمال الوهمى

- طغيان العلم .
- من غوائل العلم .
- قطاع الطريق .
- الأصاغر والأراذل .
- معالم على الطريق .
- أنوار الحق .

- رأس التـواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتي تعلمه أنه ليس لك بدنيـاك عليه فضل .

وأن تـرفع نفسك عند من هو فـوقك في الدنيـا حتي تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

- النفس معجونة بماء الكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله هلاكـه منع منه التـواضع والنصـيـحـة ، والقناعة .

الكمال ... والكمال الوهمى

عجبت لمن لم يطلب العلم , كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ [1]

فالمكارم فى طلب العلم .

وللعلم والعلماء فى الإسلام مكانة عظيمة ، عالية القدر ، رفيعة الشأن .

والعلم بوجه عام من أعظم ما اهتم به الإسلام ، وهو الوسيلة الجوهرية إلى معرفة الله وخشيته .

ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف أشرف من وراثة هذه الرتبة .

والعلم حياة القلوب ، ونور الأبصار ، وعافية الأبدان ، يبلغ العبد به منازل الأبرار ، به يطاع الله ، وبه يعرف ، قرين درجة النبوة ، ومن خصائص الإسلام ، وكمالات الإنسان ، به تفاوت الناس وتفاضلوا .

ذلك أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، كما أن موته وظلمته مادة كل شر فيه ، وحياة القلب لا تحصل إلا بإدراك الحق وإرادته وإيثاره على غيره ، والعلم مفتاح ذلك كله .

أما الجهل فموت .

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ❖ وأجسامهم قبل القبور قبور

والعلماء ورثة الأنبياء ، وقرة عين الأولياء ، هم أولياء الأمور ، ومصادر التوجيه ، حياتهم غنيمة ، وموتهم مصيبة ، معالم الهدى والرشاد ، ورايات الخير والسداد ، لهم حال وللناس حال ، الناس منهم فى راحة ، وهم من نفوسهم فى تعب ، هم سراج العباد، ومنازل البلاد وقوام الأمة ، لا ينافسون فى عز ، ولا يقنطون من ذل ، علامات أو لافتات على الطريق .

---

1 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 398 ، إحياء علوم الدين 1/ 9 .

هم ورثة الكتاب ، بهم قام ، وبه قاموا ، ومن كان هذا شأنه ، وحب أن يعرف بليله إذ الناس ينامون ، وبنهاره إذ الناس يفرطون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون .

وكيف لا يكونون كذلك ، ومن ورائهم أمانة الكتاب الذى فيه تفصيل كل شيء ؟ وأمانة العباد فى المعاش والمعاد فى أعناقهم ؟

طغيان العلم

1 ـ طلب الدنيا بعمل الآخرة :

من الهدى النبوى : « *لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولالتماروا به السفهاء ، ولا لتحيزوا به المجالس ، فمن فعل ذلك فهو فى النار* » [1] .

طلب العلو على الناس بأمر دينى أفحش خطراً ، وأشد فتكاً وفساداً ، من طلب العلو بأمر دنيوى .

ذلك أن الأصل فى العلم أن يطلب به ما عند الله ، وبهذا فضل ، وإلا تساوى مع غيره ، ممن يطلب به حظاً دنيوياً ، جاه ـ منزلة عند أهلها . . فإذا لم يكن العلم سبباً موصلاً إلى ما عند الله تعالى ، مـن جنات الدنيا ؛ حُرِمَ ولابد صاحبه ، من جنات الآخرة .

ويأتى هذا من إهمال آداب التعلم ، من حيث النية ، وللنية دخل كبير فى قبول العمل وتصحيحه ، ورب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تحقره النية ، ولو فقدها فإن أعمال الطاعات والقربات الصادرة تتحول إلى موبقات ، شأن كل من عظم أمراً ، حقره الله تعالى .

1 ـ الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه 1 / 93 من حديث جابر ، قال البوصيري : رجال إسناده ثقات على شرط مسلم ، مصباح الزجاجة 1 / 82 ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر الإحسان 1 / 147 ، والحاكم في المستدرك 1 / 86 ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1 / 187 .

ومن قصور العقل وحماقة المرء ، طلب العلو فى الدنيا وإرادتها وصرف الهمة إليها بالعلم .

قال الثورى [1] إنما فضل العلم لأنه يتقى به الله ، فلذلك فضل على غيره من العلوم ، وإلا كان كسائر الأشياء [2] .

فإذا سخر العلم فى تحصيل الدنيا ، وطلب به العرض الفانى فقد قال ابن عبد البر : فهذا نوعان :

أحدهما : أن يطلب به المال ـ فهذا نوع من الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة ، وفى هذا الحديث عن النبى ـ ﷺ ـ : « *من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلاّ ليصيب به عرض الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة* » [3] يعنى ريحها .

فهو قد جعل التوصل إلى المال بالعلم من الأسباب المحرمة .

وسبب ذلك والله أعلم .

أن فى الدنيا جنة معجلة ، وهى معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه ، وخشيته وطاعته ، والعلم النافع يدل على ذلك ، فمن دلّه علمه على دخول هذه الجنة المعجلة فى الدنيا دخل الجنة فى الآخرة ، ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة ، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا فى التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها .

فهو كمن معه جواهر نفيسة لها قيمة ، فباعها ببعرة أو شىء مستقذر لا ينتفع به فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه [4] .

1 ـ سفيان بن سعيد بن مسروق ، أحد الأعلام (97 ـ 161 هـ) له ترجمة في : طبقات ابن سعد 6 / 371 ، تاريخ بغداد 9 / 151 ، تهذيب التهذيب 4 / 111 .

2 ـ الموافقات 1 / 65 .

3 ـ الحديث أخرجه أبو داود في سننه 3 / 333 ، وابن ماجة في سننه 1 / 93 ، وأحمد في مسنده 2 / 338 ، وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان 1 / 148 ، جميعاً من حديث أبي هريرة ، قال العراقى : إسناده جيد ، المغني عن حمل الأسفار في تخريج مافى الإحياء من الأخبار ، بهامش الإحياء للغزالى 1 / 61 .

4 ـ جامع بيان العلم وفضله 2 / 175 .

إذاً مهمة العالم العمل بمقتضى العلم ، وبما كلفه الله به . . . ولا ينتظر على ذلك أجراً من الناس فإن أجره مذخورمدخر ، عند الله تعالى .

لأن وظيفة العالم ليست من نوع وظائف الدنيويين وأصحاب المعاشات ، إنما هى أسمى وأعلى ، وأشق على النفس .

وإذا العلم قرين درجة النبوة ، فليكن العالم على قدرها .

والأنبياء جميعاً يؤكدون هذا المبدأ ـ قال الله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾ .[1]

وعندما أعرض أهل مكة عن الإيمان ، واتباع نبى الله محمد ـ ﷺ ـ جاء القرآن يسأل عن سبب هذا الإعراض .

﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُون** ﴾ [2] .

وطالما العلماء ورثة الأنبياء لزم اتباع النهج ، فحق على أتباعهم أن يكونوا على طريقتهم وأن يسلكوا سبيلهم ، ويدخل فى هذا التنزه عن كل منفعة دنيوية سببها العلم .

ولعل التأكيد على عدم أخذ الأجر يرجع إلى أن كل عمل مأجور قد يعتريه النقص والخلل ، وصاحبه لا يعطى إلا بمقدار ما يأخذ ويسير حسب مقدار الأجر ، والعلم أكرم من أن يرتبط بأمر متقلب ، ومن هنا كان الارتباط بالإخلاص أولى .

ثم والعلم يتأثر بمن يدفع أكثر ، ومن ثمَّ وجب قطع الأطماع على النفس ، والناس تستدل على صدق العالم فى علمه بمقدار ترفعه عما فى أيديهم ، واحترافه حرفة يستغنى بها عن الآخرين .

لذا عدو المحتاج إلى الناس كلاً مهتضماً ، وذليلاً مستثقلاً .

وقالوا : لا تزال كريماً على الناس ما لم تتعاط ما فى أيديهم فإذا فعلت ذلك استخفوا بك ، وكرهوا حديثك ، وأبغضوك [3] .

---

1 ـ سورة الأنعام آية 90 .

2 ـ سورة الطور آية 40 .

3 ـ حلية الأولياء 3/ 30 .

فوصيتهم إليك وأنت على الطريق :

لا تبخس العلم حقه ، ولا تطلب له ثمنا إلا الجنة ، ولا تبع الياقوت بالحصى ، أو الجواهر بالبعر ، ولا تدع العلم يهلكك ، فإن العلم لا يهمل أهله ، فخطر العلم عظيم ، كيف ؟

العلماء ثلاثة :

إما مهلك نفسه وغيره ، وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره ، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطنا ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره ، وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره ، وقصده فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه .

فانظر من أى الأقسام أنت ؟ ومن الذى اشتغلت بالإعداد له ؟ فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . . . (1) .

2 ـ التلذذ بجاه الإفادة :

حذر أئمة السلف من خطورة التزين بالعلم ، وجعلوا التزين بالعلم قرين الإعجاب بالعمل وقالوا : احذر التزين بالعلم ، كما تحذر العجب بالعمل (2) .

واعتبروا أن العلم كله دنيا ، والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء إلا الإخلاص فيه .

وكما عدوا من الآفات المفتنة طلب العلو بالمنزلة والتسامى بالحرص على الشرف والمكانة بأمر دينى ، أعظم خطرا ، من طلبها بأمر دنيوى إذ طلب الدنيا بالدين من المخاطر المفسدة ولابد .

ويدخل فى هذا الانتصار للنفس وهى نقطة أخرى تنطلق منها جملة أمور ملتوية .

فالنفس إذا ألح عليها معنى الفوقية والانتصار لم تعد تفكر فيما عداه ، غير عابئة بصواب أو خطأ ، ولا مفرقة بين نية أو أمنية .

1 ـ إحياء علوم الدين 1 / 48 .

2 ـ رسالة المسترشدين 123 .

ويظهر الأثر السيء من استعمال العلم فى التوصل إلى أمر دنيوى وفى غير ما هو له ، والأصل أن يتوصل به إلى تقوى الله ومرضاته .

فهو مرة استعمل فى التوصل إلى أمر دنيوى ، وهنا استعمله فى التوصل إلى التسامى ورفع السعر ، ومحبة التسلط على الناس والتعاظم عليهم ، وأن ينقادوا له ويخضعوا لسلطانه ، فأحب صرف وجوه الناس إليه .

ولا تحسبن أن ترك الأولى موصل إلى الله والدار الآخر ، ما لم يكمل ذلك بترك الجاه فإنه أضر على العالم من حب المال والدنيا ، وقد علل الغزالى [1] ذلك بقوله :

" وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا ، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا " .

ولذلك قال الثورى : « فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد » [2] .

ولقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، وذلك فى مثل قوله سبحانه : **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾** [3] .

وسئل ابن المبارك من الناس ؟

قال : العلماء .

قيل : فمن الملوك ؟

قال : الزهاد .

قيل : فمن السفلة ؟

---

1 ـ الغزالى : حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي ت 505 هـ الإمام الحجة أعجوبة الزمان صاحب التصانيف والذكاء المفرط ـ وفيات الأعيان 4 / 216 ، اللباب 2 / 379 ، سير أعلام النُّبلاء 19 / 322 ، شذرات الذهب 4 / 10 .

2 ـ إحياء علوم الدين 1 / 66 والقول ينسب لغير واحد من الأئمة .

3 ـ سورة آل عمران آية 187 .

قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين [1] .

فإن قيل : لولا حب الجاه والرياسة وطلب العلو ، والمنزلة ، لاندرست العلوم ، وتوقف العطاء ، فحب الجاه حافز وسبب لإحياء العلوم

وهذا يدل على أن المتصف بهذا غير ناج ، وإن كان مؤيداً للدين ، تأييد الفاجر له ، مع أنه بوصفه هذا قد يورد نفسه موارد الهلكة ، وينجو غيره إن أخذ الغير بما دعا إليه العالم من خير .

فمثل ذلك مثل الشمع يحترق فى نفسه ، ويستضيئ به غيره ، فصلاح غيره فى هلاكه ، لذا فمن حقق النظر ، وراضى نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه ، أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه .

فلا تغتر وصحح النية فإن التفقه لغير الله ، وطلب العلم لغير العمل ، وطلب الدنيا بعمل الآخرة خداع وفتنة .

* وفى معنى التوصل بالعلم إلى التسامى ، محبة أن يسير خلفه إذا سار ، كأنما هى حالات استنفار وصنيع السلف على الضد من ذلك .

فعمر ـ رضى الله عنه ـ يضرب أبيّاً بن كعب [2] لما قام ، وقام خلفه جماعة يمشون .

قال سليمان بن حنظلة : " أتينا أبى بن كعب لنحدث إليه ، فلما قام قمنا ونحن نمشى خلفه ، فرهقنا عمر ، فتبعه ، فضربه عمر بالدرة ، قال : فاتقاها بذراعيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ قال : أو ما ترى فتنة للمتبوع مذلة للتابع " [3] .

وقد أخذ بقول عمر جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن مسعود ، وسعيد بن جبير رضى الله عنهما ، قال ابن مسعود لمن ساروا خلفه : ، "لو تعلمون من نفسى ما أعلمه منها لحثوتم على رأسى التراب " .

---

1 ـ إحياء علوم الدين 1 / 48 ، سير أعلام النبلاء 8 / 399 .

2 ـ أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد : سيد القراء ، شهد العقبة وبدراً وجمع القرآن ، وكان رأساً في العلم له ترجمة فى حلية الأولياء 1 / 250 ، سير أعلام النبلاء 1 / 389 ، تذكرة الحفاظ 1 / 6 ، تهذيب التهذيب 1 / 187 .

3 ـ سنن الدارمي 1 / 132 .

ولما كان التزين بالعلم كالإعجاب بالنفس ، وكلاهما مهلك لصاحبه ، قال ابن مسعود : "الهلاك فى اثنتين ؛ القنوط والعجب .

وإنما جعل الهلاك فيهما وجمع بينهما ، لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى ، فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب (حاصلة) ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط فمن هنا جمع بينهما (1) .

* وفى معناه أيضاً كتمان العلم حتى لا يكون لغيره فيه نصيب ، أو جعل علمه لأهل الشرف والسعةواليسار ، حكراً عليهم ، فلا يرى لغيرهم فيه حاجة وقد يستفزه الزهو والعجب ، فلا يقبل مراجعة أحد له ، أو يقبل الرجوع عن خطأ وقع فيه ، أو يأنف من عدم متابعة الناس له ، ومشيهم خلفه .

وفى الحديث : « *إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه* » (2) .

وهذا شأن كل من رأى لنفسه قيمة يستعلى بها على غيره ، وكل من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وتعزز العالم بعلمه ضرب من استشعاره بقيمته ، واستعظام نفسه ، وهو عين الهلاك لما فيه من الكبر .

قال ابن المبارك : "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك فى نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عند من هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل " .

وقال غيره : "النفس معجونة بماء الكبر ، والحرص ، والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه ، منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة" (3) .

---

1 ـ إحياء علوم الدين 3 / 369 .

2 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 6 / 117 ، ومسلم فى صحيحه 4 / 2147 .

3 ـ إحياء علوم الدين 3 / 342 .

والتواضع : أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ، ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه [1] .

وعن يحيى بن معاذ ، قال : لا تسكن الحكمة قلباً ، فيه ثلاث خصال ؛ هم الرزق ، وحسد الخلق ، وحب الجاه .

وكان من السلف من يقول : يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك ، فأما الذى تلقاه ببشر ، ويلقاك بعبوس ، يمن عليك بعلمه ، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله .

فتواضع لمن جاءك متعلماً ، وتأمل هذه الحكم وحققها ، وانظر قدر المبالغة فى الحساسية حين يقول أيوب [2]، "ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عزوجل" [3].

ودع عنك التعزز بالعلم ، فهو من ثمار الإعجاب بالنفس الذى هو قرين الكبر ، وبالغ فى التواضع ، فمنفعتك كعالم أعظم من منفعة المتعلم ، وثوابك على التعليم أعظم من ثواب المتعلم ، واعلم أن الذى أكرمك بالعلم قد عرف قدرك ، وأنه كذلك مالم تر لنفسك قيمة ، فمتى رأيت لنفسك قيمة ، فلاقيمة لك عنده .

وتأمل صنيع حكيم الأمة فقد كان لايحدث بحديث إلا إذا تبسم ، مبالغة فى التلطف والإيناس ، وتذويب وحشة المتعلم حتى خافت أم الدرداء عليه [4]، وقالت : إنى أخاف أن يحمقك الناس ، قال : « *كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يحدث بحديث إلا إذا تبسم* » . [5]

---

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 143 .

2 ـ أيوب بن أبى تميمة السختيانى ـ الإمام سيد الحفاظ ، (68 ـ 131 هـ) من أقواله : ماصدق عبد قط فأحب الشهرة ، وقيل له : مالك لاتنظر فى هذا ؟ يعنى الرأى ، فقال ، قيل للحمار ألا تجتر ؟ فقال : أكره مضغ الباطل ـ له ترجمة فى طبقات ابن سعد 7 / 246 ، الكاشف 1 / 92 ، تذكرة الحفاظ 1 / 130 ، سير أعلام النبلاء 6 / 15 ، تهذيب التهذيب 1 / 397 ، شذرات الذهب 1 / 181 .

3 ـ أخلاق العلماء 7 ، جامع بيان العلم وفضله 1 / 142 .

4 ـ أم الدرداء : هجيمة وقيل جهينة الأوصابية الدمشقية ثقة فقهية ت 81 هـ ت . قريب التهذيب 2 / 621 .

5 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 5 / 199 ، وفيه بقية ، مدلس ، وقد عنعن ، وحبيب بن عمر ، ضعيف ـ وهو فى سير أعلام النبلاء 2 / 351 .

إلا أن أكثر الخلق عن هذا غافلون ، عاشقون للعبوس والتضجر .

ولما ضجر أبو العباس أحمد بن يحيى [1] قال له شيخ من الظاهرية : لو علمت ماللك من الأجر فى إفادة الناس العلم لصبرت على أذاهم ، فقال : لولا ذاك ماتعذبت . [2]

والعالم والمتعلم شريكان فى الأجر . كما أن المتعلم وصية رسول الله ـ ﷺ ـ [3] فحافظ عليها ، واعمل على صيانتها .

دروس :

1) خطورة الاستعلاء على الناس بأمر دينى ، مناقض للدين ، وفتنة لما فى ذلك من صد عن الدين وإضلال للمسلمين ووضع للعلم فى غير موضعه ، واقتضاء الثواب عليه من غير محله ، وقد شبهوا من يقع فى هذا بمن مسح أسفل نعله بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادماً ، وهذا هو الانتكاس على أم الرأس .

2) التسامى ، ورفع السعر ، والتعالى ، وطلب العلو ، والمنزلة ومحبة اخضاع الناس، شهوة وفتنة لاتقل خطراً عن شهوات وفتن الدنيا بأسرها من مال وولد ، فكلها أمور تتولد عن الكبر والإعجاب بالنفس ، ومن كان كذلك فهو فتنة لكل مفتون ، ولا مجال له بين المخلصين ، ولاحق له فى منصب قيادى أو عمل ريادى .

أورد ابن حجر عند ترجمة أبى عبيد المذحجى [4] أحد الثقات المأمونين ، وأحد شيوخ الإمام مالك بن أنس وطبقته ـ وممن قال فيه أحدهم : لم أر أحداً قط أعمل بالعلم من أبى عبيد ، مع هذا فإنه لما ولى عمر بن العزيز ـ رضى الله عنه ـ ، سأل أين أبو عبيد ؟ فدنا منه فقال : هذه الطريق إلى فلسطين وأنت من أهلها فالحق بها .

---

1 ـ عالم اللغة : أحمد بن يحيى بن زيد سيار المعروف بثعلب إمام فى النحو واللغة ، (200 ـ 291 هـ) قال الذهبى : كان لايتفاصح فى خطابة ويذرى على نفسه ولا يجد نفسه له ترجمة فى وفيات الأعيان 1/ 102 ، تذكرة الحفاظ 2 / 666 ، سير أعلام النبلاء 14 / 5 ، تاريخ بغداد 5 / 204 .

2 ـ تاريخ بغداد 5/ 210 .

3 ـ سنن الترمذى 5/ 30 .

4 ـ أبو عبيد المذحجى ، صاحب سليمان بن عبد الملك ، وشيخ مالك والأوزاعى ، تهذيب التهذيب12/ 158 .

فقيل له : ياأمير المؤمنين لو رأيت أبا عبيد وتشميره للخير .

فقال : ذاك أحق ألا نفتنه ، كانت فيه أبهة للعامة .

نوع غرور وعجب واعتزاز بالنفس .

فانظر حساسية أمير المؤمنين ، ووعيه ، وشفقته على أحد رعاياه إذ لم يتركه فريسة للفتنة ، وأى فتنة تلك ؟ فتنة ابتلاء العامة بعمل الخاصة ، فتنة الإعجاب بالنفس ، والرضى عنها ، فتنة الصولة ، فتنة تمكن الشيطان وظفره بابن آدم .

وأى فتنة أعظم من أن يتمكن منه الشيطان .

وهى تتوالد وتتتابع تغرى القلب فيتورط وينزلق ويدلف إلى الهاوية ، وقد كان لدى أمير المؤمنين مندوحة إن هو تركه إلا أنه لم يعن شيطانه عليه .

" إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال قال لاأطلب غيرها : إعجابه بنفسه ، استنكاره لعمله ، نسيانه لذنوبه "

فالزهو والعجب على هذا أصل من أصول البلاء والفتنة ثم إنه يمحق بركة العبادة

" كم من سراج أطفأته الريح ، وكم من عبادة قد أفسدها العجب "

فحرر القصد وأخلص النية ، وامتحن قلبك دائماً ، وعالج نفسك بإخراجها من ظلمات العجب ، فإن النفس معجونة بمائه ، ميالة إليه تستحلى برؤية الناس لها ، وربما مالت إلى حب فرحها بذلك ، فخسرت الدنيا والآخرة ، وياخسارة تعب ليس وراءه أرب ، وياخسارة تعب فى تحصيل علم بلا عمل ، يقوده إخلاص ، وهضم نفس .

لذلك لاتعجب إذا أسقط العلماء الصحبة عن كل من تسرب العجب إلى نفسه ، ورفعوا عنه صفة العلم ، وقالوا " ولئن تصحب جاهلاً لايرضى عن نفسه ، خير من أن تصحب عالماً يرضى عنها ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل لايرضى عنها ؟ " ، وعدوا من الأمور التى لايحسد عليها صاحبها التواضع ، والبلاء الذى لايرحم عليه صاحبه العجب ، وقالوا : كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه .[1]

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 142 .

دعوة الناس إلى الخير وحملهم عليه .

وهى مرتبة ثانية ـ فلا أجلّ من العمل بالعلم ، فإذا لم تعمل فادع غيرك لأن يعمل ، رغبه الناس فى العمل بمقتضى علمك ، والتواصى بحقه بين الأفراد والجماعات . وذلك من أسباب البقاء عليه لينشر ظلاله ، ويؤتى ثماره ، فإذا حرم العالم أجر العمل فلا يحرم أجر الدلاله عليه ، وفى الحديث « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »[1] والدعوة الى الخير من ألوان العمل بالعلم إذ لولا العمل ماعرف ، ولا اهتدى أحد إلى أن الدعوة باب من أبواب العلم ، وهذه واحدة من بركات العلم ، نفعه على كل حال .

فانتفع به فى الثانية إن فاتتك الأولى ، فإن جمعت بينهما فالخير فى اجتماعهما .

من غوائل العلم:

1 ـ التفقه لغير العمل

لاشىء أعظم برهاناً على صدق أية قضية من القضايا أجل من العمل بمقتضاها ، وتحقيقها ، وتطبيقها .

فالعمل دعوة بلغة الحال وهى أعظم تأثيراً .

ولاشىء أدعى إلى الإيمان بأمر من الأمور أفضل من العمل به ، وإلا فكيف نقنع غيرنا بشىء لاتستجيب نفوسنا إليه؟

والجانب الجدير بالتأمل هنا قضية العجز عن العمل ، وهو أمر يدل على انعدام الربط بين الفكرة المركوزة فى العلم ، وبين مايترتب عليها من سلوكيات .

فكثيراً مانجد بتراً بين الفكرة وماتدعو إليه .

فإما فكرة لاتطبق ، وإما تطبيق غريب لايستند إلى فكرة ، مما أدى إلى الجمود والمظهرية ، وعدم فاعلية العلم .

---

1 ـ جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإمارة 3 / 1506 ، وأبو داود فى سننه ، كتاب الأدب 4 / 333 والترمذى فى سننه ، كتاب العلم 5 / 41 ، وأحمد فى مسنده 4 / 120 ، 5/ 274 ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 1 / 16 ، كلهم من حديث أبى مسعود الأنصارى .

إن سلوك الإنسان وتصرفاته خاضع وتابع لما يحمله ، بغض النظر عن الصواب والخطأ ، فنتائج الأعمال تابعة ولابد لهذه الأفكار ، وتصرفات المرء إفراز لما بداخله .

فإذا حدث خلل فى التصور ، تبعه ولابد خلل فى السلوك ، ونجاح المرء فى عمل ما مرهون بقناعته أولاً بصوابية الفكر من ناحية ، وبالنتائج المترتبة عليه من ناحية أخرى .

إذا هى قضية الإيمان والاعتقاد الحق أولاً ، متى رسخت فى الداخل أعلنت عن وجودها فى الخارج ، والمؤسف حقاً أن كثيراً من الأعمال تعيقها حواجز وأسوار وهمية توقف حركتها وتقدمها .

فهل يمكن أن يكون واضحاً حقيقة الفصل بين المنهج والتطبيق؟

العلم الشرعى بتفاصيل الإسلام منهج ، قاعدة ، قانون .

العلماء صورة ـ مثال هذا المنهج ، أو هكذا يجب أن يكونوا معبرين عنه فعلاً وسلوكاً ، ذلك أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول ، ومن ثمّ قالوا : اصحب من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله .

وماهذا إلا لأن أزمة الناس معقودة بنواصى العلماء ، من هنا وجب أن تظهر بهجة العلم ونور العلم عليهم ، فالعالم يحسب على علمه ، كما أن علمه يحسب عليه .

فألا تأدب العالم بأدب العلم ، فعرف الحق ، ورحم الخلق ، وانشغل بدلالتهم على الله سبحانه ، وكلما ازداد علماً ازداد إشفاقاً وعملاً ، فالشفقة وليدة العلم ، ومن ثمّ كان أرحم الأمة بالأمة بعد نبيها ـ ﷺ ـ أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ [1] لأنه الأكثر علماً .

قال ـ ﷺ ـ « *أرحم أمتى بأمتى أبو بكر* » [2]

وكان ـ رضى الله عنه ـ أعلم الصحابة باتفاقهم ، فجمع الله له سعة العلم والرحمة .

ولازال الإسلام والعلم يهتفان بك ، إن كنت تحب القرب من الله ، فاشتغل بدعوة

---

1 ـ صدّيق الأمة عبد الله بن أبى قحافة أفضل الأمة وأول من احتاط فى الأخبار ت 13 هـ ، له ترجمة فى : تذكرة الحفاظ 1/ 2 ، شذرات الذهب 1/ 24 .

2 ـ أخرجه أحمد فى مسنده 3/ 281 من حديث أنس ـ رضى الله عنه .

عباده ، رحمة بنفسك ، فأى رحمة فى علم إذا لم يرحم عالم بعلمه نفسه؟

ومعرفة الحق ، والشفقة على الخلق نهج الأنبياء والصالحين وسلف الأمة حين آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد لعلمهم أن ذلك آثر إلى حبيبهم ، فاشتغل بما اشتغلوا به فى حياتك يكفك بعد مماتك .

وتأمل هذه الوصية ؛إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ، ولايكن همك أن تحدث به .[1]

مازال العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل ، ارتحال روح وبركة وجوهر .

وعن ابن مسعود ـ رضى اللّه عنه ـ قال : "كيف أنتم إذا لبستكم فتنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس ، فإذا غير فيها شىء ، قيل غيرت السنة ، قيل : متى ذاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قراؤكم ، وقل فقهاؤكم ، وكثر أمراؤكم ، وقل أمناؤكم ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير العمل . . . "[2]

التفقه لغير العمل إذاً من غوائل العلم ، فللعلم غوائل ، ومن غوائله أن يترك العمل به ، وهو من أبواب الفتن وعوامل هدم الإسلام ، لذا كان الأئمة يستعيذون باللّه من عالم فاجر ، ويأمرون بذلك ، فابن المبارك يوصى قائلا : " تعوذوا باللّه من فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . "[3]

فالعالم يغرى الناس بعلمه ويضرهم بفجوره ، والعابد الجاهل كذلك .

قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك .

وعن زياد بن حدير [4] قال : قال لى عمر : "هل تعرف مايهدم الإسلام ؟ قال :

---

1 ـ حلية الأولياء 3 / 3 من كلام أبى قلابة لأيوب السختيانى ، وانظر جامع بيان العلم وفضله 1/ 188، 2/ 10 .

2 ـ انظر سنن الدارمى 1 / 64 ، العزلة للخطابى / 211 ، جامع بيان العلم وفضله 1 / 188 .

3 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 192 وهو منسوب لابن عيينة أيضا كما فى إغاثة اللهفان 1 / 229 .

4 ـ زياد بن حدير الأسدى ، ثقة له ذكر فى الصحيح ، تهذيب التهذيب 3 / 361 .

قلت لا ، قال : يهدم الإسلام ، زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين " . [1]

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين ، عالم فاجر ، أغرى الناس بعلمه ، وفتنهم بفجوره ، وعابد جاهل ، أغرى الناس بعبادته وفتنهم بجهله .

فالعالم إذا زل، زل بزلته عالم كثير ، كما أثر عن المسيح عليه السلام وقد سئل : من أشد الناس فتنة؟

قال : « *زلة العالم ، إذا زل العالم زل بزلته عالم كثير* » . [2]

والعالم إذا ترخص ، وقع العامة فى المباح . وماذاك إلا لأن قدره عند الله عظيم ، والناس يقلدونه .

وإذا ترخص فوقع فى المباح ، وقع الناس فى الحرام .

فهو سفينة إذا نجا ، نجا بنجاته خلق كثير .

وهو إمام منظور .

وصفه الليث بن سعد [3] بأنه فقيه البدن ، وقد حكى عن نفسه أنه كان بالمدينة فأراد أن يترخص فى أمر ينافى العزيمة ، فقال له يحيى بن سعيد : [4] لاتفعل فإنك إمام منظور إليك . [5] مرد هذا كله إلى أن أعنة الخلق معقودة بنواصى العلماء ، فالحسن عند الناس مايستحسنه العلماء ، والقبيح مايتركونه ، لامايقولون للناس إنه قبيح .

1 ـ سنن الدارمى 1/ 71 .

2 ـ الزهد لابن المبارك 520 .

3 ـ الليث بن سعد ، عالم الديار المصرية (124 ـ 175 هـ) كان يقول : بلغت الثمانين ومانازعت صاحب هوى قط ، وقال أبو داود ، قال قتيبة : كان الليث يستغل عشرين ألف دينار فى كل سنة ، وقال ماوجب علىّ زكاة قط ، طبقات ابن سعد 7/ 517 ، تاريخ بغداد 13 / 3 ، وفيات الأعيان 4 / 137 ، سير أعلام النبلاء 8 / 136 ، ميزان الاعتدال 3 / 423 ، تذكرة الحفاظ 1/ 224 ، تهذيب التهذيب 8 / 459 .

4 ـ يحيى بن سعيد الأنصارى : أحد أعلام الحديث ت 143 هـ تاريخ بغداد 14 / 101 ، تهذيب التهذيب 11/ 221 ، سير أعلام النبلاء 5/ 468 .

5 ـ سير أعلام النبلاء 8 / 154 ، تهذيب التهذيب8/ 463 .

والعالم المفتون مسلوب الكرامة ، والفضيلة ، لانصيب له فى فضيلة أهل العلم ، لأنها إنما تلحق العامل بعلمه المنتفع به ، ومن لم يكن كذلك ، فالأمر كما قال أيوب السختيانى : لا خبيث أخبث من قارىء فاجر .[1]

فاعرف كيف تسلب الفضيلة من كل من علم ولم يعمل ؟

وتأمل ماقاله ابن عيينة ، " إذا كان نهارى نهار سفيه ، وليلى ليل جاهل ، فما أصنع بالعلم الذى كتبت؟ "[2]

ولذلك فمن لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب ، ومن وعظ أخاً بفعله كان هادياً ، ومن لم ينعشك عبيره على بعد فلا تتكلف لشمه لأنه لاطيب فيه . .[3]

ومع سلب الفضيلة ، فهو فاسدالفقه ، شائه الصورة ، فالفقيه الذى يتعلق بالمال وشهوات النفس ولايجعل همه إلا زيادة الرزق بالمال وشهوات النفس؟ ، وحظ الدنيا ، هو الفقيه الفاسد الصورة فى خيال الناس ، يفهمهم أول شىء ألا يفهموا عنه .[4]

أورد الدارمى[5] بسنده إلى عمران المنقرى[6] قال : قلت للحسن يوماً فى شىء قاله : " يا أبا سعيد ليس هكذا يقول الفقهاء ، قال ويحك ورأيت أنت فقيهاً قط . ؟

إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بأمر دينه ، المداوم على عبادة ربه . "

وعن على ـ رضى اللّه عنه ـ ، قال : " الفقيه حق الفقيه ، من لم يقنط الناس من رحمة اللّه ، ولايؤمنهم من عذاب اللّه ، ولايرخص لهم فى معاصى اللّه " .[7]

---

1 ـ حلية الأولياء 3 / 11 ، سير أعلام النبلاء 6 / 17 .

2 ـ أخلاق العلماء 72 .

3 ـ المنطلق للراشد 258 .

4 ـ وحى القلم 2 / 201 .

5 ـ الدارمى : الإمام الحافظ صاحب السنن عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ، أحد الأعلام ت 255 هـ الجرح والتعديل 5 / 99 ، تاريخ بغداد 10 / 29 ، طبقات الحنابلة 1/ 188 .

6 ـ عمران المنقرى ـ عمران بن ميسرة أبو الحسن البصرى ت 213 هـ تهذيب التهذيب 8 / 142 .

7 ـ سنن الدارمى 1 / 89 .

أرأيت ؟ ولا يرخص لهم فى معاصى اللّه ، والنجاة غداً لمن كان هذا شأنه ، علم وعمل بماعلم - والويل لمن علم ولايعمل بما علم ، أو علم وعمل بخلاف ماعلم .

قال أبو الدرداء : إن أخوف ماأخاف على نفسى أن يقال لى : ياأبا الدرداء علمت فكيف عملت بما علمت ؟

ويل لمن لايعلم ولا يعمل مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات .[1]

وكان بعض الحكماء يقول : "لولا العقل لم يكن علم ، ولولا العلم لم يكن عمل ، ولأن أدع الحق جهلاً به ، خير من أن أدعه زهداً فيه" .

ولما تفشى القول وانتشر نظراً لهوانه وخفته ومرونة آلته ، وأتقن الناس فيه وأجادوا تخوف عمر - رضى اللّه عنه - من تقهقر العمل أمام طلاقة اللسان ، فقال : " إن أخوف ماأخاف على هذه الأمة المنافق العليم ، قالوا : وكيف يكون منافقاً عليماً؟

قال : عليم اللسان ، منافق القلب" .

وعن الحسن رضى الله عنه : لاتكن ممن جمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ويجرى فى الدنيا مجرى السفهاء .

وعن ابن مسعود قال : " إن الناس أحسنوا القول كلهم ، فمن وافق فعله قوله ، فذلك الذى أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه " .[2]

فأصب حظك ، ولاتكن ممن يوبخ نفسه فما أخصب الألسن ، وأجدب القلوب ، وما أعذب القول وأملح العمل !

أصب حظك وأتبع القول العمل ، ولاتكن ممن يلعنه القول فلرب سكوت أفضل من قول ، فكم من مستغفر ممقوت ، وساكت مرحوم ، يقول هذا استغفر اللّه وقلبه فاجر ، وهذا ساكت وقلبه ذاكر .

ورحم اللّه ابن السماك [3] إذ يقول : « كم من مذكر باللّه ناس للّه ، وكم من مخوف باللّه ، جرىء على اللّه ، وكم من مقرب إلى اللّه ، بعيد من اللّه ، وكم من داع إلى اللّه ، فار من اللّه ، وكم من تال لكتاب اللّه ، منسلخ عن آيات اللّه »

1 - إحياء علوم الدين 1 / 63 .

2 - جامع بيان العلم وفضله 2 / 604 .

3 - ابن السماك الواعظ القدوة الزاهد أبو العباس محمد بن صبيح 183 هـ وهو القائل كم من سيىء إذا لم ينفع لم يضر ؟ لكن العلم إذا لم ينفع ضر - حليه الأولياء 8 / 203 ، وفيات الأعيان 4/ 301، ميزان الاعتدال 3/ 584 ، سير أعلام النبلاء 8/ 328 .

ورحم الله ابن السماك [1] إذ يقول : " كم من مذكر بالله ناس لله ، وكم من مخوف بالله ، جرىء على الله ، وكم من مقرب إلى الله ، بعيد من الله ، وكم من داع إلى الله ، فار من الله ، وكم من تال لكتاب الله ، منسلخ عن آيات الله " .

وعن إبراهيم بن أدهم : "لقد أعربنا فى كلامنا فلم نلحن ، ولحنا فى أعمالنا فلم نعرب . [2] ومتى دخل الإعراب خرج الخشوع " .

العلم يصحح النية ويقود إلى الله :

مع العجز عن تصحيح النية فإن تحصيل العلم أفضل من تركه ، والاستمساك بالشكل والحفاظ عليه إلى أن نرزق الحقيقة أولى من إهماله ، فإنه يرجى مع ذلك أن يصحح العلم النية .

فكما أن النية تصحح العلم ، فإن العلم يصحح النية ، وهذا فى حق من كان قريباً من الله ،

قال سفيان : "منذ أربعين سنة ماكان طلب الحديث أفضل منه اليوم ، قالوا لسفيان : إنهم يطلبونه بغير نية ، قال طلبهم إياه نية ، إن الرجل ليطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله " .

" طلبنا هذا العلم ومالنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله بعد فيه النية ، كنا نطلب العلم للدنيا ، فجرنا إلى الآخرة" .

"لقد طلب أقوام العلم وماأرادوا به الله ، وماعنده ، فمازال بهم حتى أرادوا به الله وماعنده" .

هذه نقول ثابتة عن الأئمة الثورى ، وابن عيينة ، والحسن وغيرهم . [3]

---

1 ـ ابن السماك الواعظ القدوة الزاهد أبو العباس محمد بن صبيح ت 183 هـ وهو القائل : كم من شيىء إذا لم ينفع لم يضر ؟ لكن العلم إذا لم ينفع ضر ـ حلية الأولياء 8/ 203 ، وفيات الأعيان 4/ 301، ميزان الاعتدال 3/ 584 ، سير أعلام النبلاء 8/ 328.

2 ـ إحياء علوم الدين 1/ 63.

3 ـ سنن الدارمى 1/ 102 جامع بيان العلم وفضله 2/ 22 .

وأخيراً فكما قالوا : " اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم ، فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه ، فإذا سمعت قولاً حسناً ، فرويداً بصاحبه ، فإن وافق قوله عمله فنعم ، ونعمة عين " .[1]

فآخه وأحببه ووادده ، وإن خالف قولاً وعملاً ، فماذا يشبه عليك منه ؟ إياك وإياه لايخدعنك . .

صفات من علمه حجة عليه !

أن يطلب من العلم ماأسرع إليه هواه ، فيكون مراده كثرة المعارف ، وأنه من طلاب العلم فيشيع ذلك ويظهر ، وكل علم شرف به صاحبه عند المخلوقين حث إليه وسارع نحوه ، وكل علم وجب عليه فيما بينه وبين الله ، ثقل عليه وهان عنده ، ورفض الوصول إليه ، وتركه ، ينفق علمه رياءً ومناظرة ، ومراده فى مناظرته أن يعرف بالبلاغة ، فهو دائماً يسره مايسر الشيطان .

همته فى العلم منافع دنيوية ، يرجو ثواب علم مالم يعلم ، ويجب أن يحمد بما لم يفعل ، ولايخاف سوء العاقبة ، والحساب ، عند تخلف العمل .

ينطق بالحكمة ليظن أنه من أهلها ، ولايخاف عظم الحجة عليه لتركه استعمالها .

يتشبث بنصر الخطأ لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين ، يتواضع بعلمه للملوك وأبناء الدنيا لينال حظه منهم بتأويل يقيمه ، ويتكبر على من لادنيا له من المستورين والفقراء .

يعد نفسه من العلماء وأعماله أعمال سفهاء ، قد فتنه حب الدنيا والثناء ، والشرف والمنزلة .[2]

وهذا كلام نفيس من تأمله غاية التأمل انتفع به غاية النفع ، وعلم : أن كل من كان قصده من العلم التلذذ بجاه الإفادة والتنعم بالدنيا وطلب المنزلة عند أهلها ، يعلم ولايعمل فقيه اللسان يتحرك بجوارحه ، معطل لقلبه ، يتباهى بعلمه ، ويمارى به ، يحب

1 ـ الموافقات 1 / 65 .

2 ـ أخلاق العلماء 97 ـ 100 .

صرف وجوه الناس إليه ، يمن بعلمه على المتعلمين ، ولايرى لهم فضلاً أن مكنوه من تعليمهم وهذبوا نفوسهم تقرباً إلى اللّه تعالى ولولا المتعلم مانال العالم أجراً .

من كان كذلك فهو محدود الحظ والثواب ، مسلوب الفضيلة والحكمة فلا تكن مخزناً للعلم أو مقتصراً به على أهل الشرف ، أو متخذه ذكراً فى الناس ، أو ممن استفزه الزهو والعجب . .

2 ــ التلطخ بشىء من أمر السلطان :

ليس للملوك صديق .

كما أن حرص المرء على الشرف والدنيا مفسدة لدينه ، فإن مما يدخل فى ذلك دخولاً أولياً ، الدنو من الأمراء والسلاطين ، والدخول عليهم ، فإنه باب عظيم من أبواب الفتن عامة ، وللعلماء خاصة ، يدلك على هذا قول النبى ـ ﷺ ـ

" **من أتى السلاطين افتتن** " . (1)

" **وماازداد أحد من السلطان دنواً إلا ازداد من اللّه بعداً** " . (2)

هكذا بإطلاق ودون تقييد .

فتأمل هذا وانتبه إليه جيداً ، واعلم أنه بمقدار قربك من السلطان يكون بعدك عن اللّه ، وأى كسب أو غنى ، أو عز أو جاه فى البعد عن اللّه؟

والمشاهدات والتجارب دالة على ذلك ، فكيف يعد نفسه من زمرة العلماء من آثر شهوته على محبة اللّه ؟ بل كيف يعد عاقلاً ؟

فتحرر وفر بدينك

---

1 ـ جزء من حديث أخرجه أبو داود فى سننه 3 / 111 ، والترمذى فى سننه 4 / 523 ، وقال : حسن صحيح غريب ، وأحمد فى مسنده 2 / 371 ، 357 ، والنسائى فى سننه 7 / 195 ، وأبو نعيم فى الحلية 4 / 72 ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 1 / 163 .

2 ـ الحديث : أخرجه أحمد فى مسنده 2 / 371 من حديث أبى هريرة ، وأبو داود فى سننه 3 / 111 .

فإذا مازين العالم لنفسه الأمر بالحفاظ على العلم والدين أن يثلما ، فلا يجد حرجاً من ارتياد باب السلطان ، فبم يرد عليه ؟

وعند التأمل فى السنة النبوية نقف على الرد ، ودقة تشبيه النبى - ﷺ - وبيان مايعود به من فعل ذلك؟

قال - ﷺ - « **إن ناساً من أمتى سيتفقهون فى الدين ويقرءون القرآن ويقولون : تأتى الأمراء فنصب من دنياهم ونعتز لهم بديننا ، ولايكون - ذلك كما لايجتنى من القتاد[1] إلاّ الشوك كذلك لايجتنى من قربهم إلاّ الخطايا** » .[2]

خطايا هنا وفتنة ، وبعد من اللّه .

وتأمل ماقاله أبو حازم [3] وقد أرسل إليه أحد الأمراء ، وعنده الزهرى والأفريقى[4] وغيرهما ، فقال : تكلم ياأبا حازم ، فقال أبو حازم : "إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء" .

وقال - رضى اللّه عنه - : " لايحسن عبد فيما بينه وبين اللّه ، إلا أحسن اللّه مابينه وبين العباد ، ولا يعوّر مابينه وبين اللّه إلا عوّر فيما بينه وبين العباد .

لمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ، إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك وإذا استفسدت مابينه شنئتك [5] الوجوه كلها "[6]

---

1 - القتاد : نبات له شوك كالإبرة ، المعجم الوسيط 2/ 714 .

2 - الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه 1 / 93 ، من حديث ابن عباس ، قال الشهاب البوصيرى : هذا إسناد ضعيف ، وقال المنذرى : جميع رواته ثقات - مصباح الزجاجة 1/ 83 .

3 - أبو حازم سلمة بن دينار ت 140 هـ ، من أقواله : نعمة اللّه فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ، لأنى رأيته أعطاها قوما فهلكوا ، له ترجمة فى : حلية الأولياء 3 / 229 ، سير أعلام النبلاء 6 / 96 ، تذكرة الحفاظ 1/ 133 ، تهذيب التهذيب 4/ 143 .

4 - الأفريقى : عبد الرحمن بن زياد ، شيخ الإسلام ، الإمام القدوة ت 156 هـ له ترجمة فى الجرح والتعديل 5/ 244 ، سير أعلام النبلاء 6 / 411 ، ميزان الاعتدال 2 / 151 ، تهذيب التهذيب 6/ 173 .

5 - شنئتك : أبغضتك ، انظر مادة شنأ ، ترتيب القاموس المحيط 2 / 758 .

6 - سير أعلام النبلاء6 / 100 .

وقد تزين للإنسان نفسه ، ويبرر المخالطة بالقيام بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وله فى بعض من تقدم أسوة ، فقد خالط نفر من السلف الأمراء وداخلوهم بهذا الأمر ، والحق فإن جملة كبيرة من العلماء قد منعوا من ذلك ونهوا عنه ، ومنهم ، يونس بن عبيد [1] إذ قال : " لايدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن ، ولايخلون أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن ، ولايمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء " . [2]

فانظر وجه الجمع بين سلطان ، وامرأة ، وصاحب هوى .

وعن ابن المبارك قال : " ليس الآمر والناهى عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم ، إنما الآمر الناهى من اعتزلهم " . [3]

وعدوا من يغشى مجالسهم من اللصوص ، وفى ذلك قالوا : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص .

ثم تكون النهاية كما قال سفيان : " فى جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزائرون للملوك " .

وهى نتيجة حتمية فرضتها تداعيات سابقة ، منها ماعبر عنه حذيفة ابن اليمان لما قال : " إياكم ومواقف الفتن ، قيل وماهى ؟ قال أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ماليس فيه " .

وعدها ابن عمر نفاقاً يوم قالوا له : " إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف مانتكلم إذا خرجنا من عندهم قال : كنا نعدها نفاقا . . " [4]

---

1 - يونس بن عبيد بن دينار - الإمام القدوة الحجة ت 140 هـ ، كان يقول : كل من لم يخش أن يكون فى النار فهو مغرور ، قد أمن مكر الله به له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7 / 260 ، حلية الأولياء 3/ 15 ، سير أعلام النبلاء 6/ 228 ، تذكرة الحفاظ 1/ 145 ، تهذيب التهذيب 11/ 442 ، شذرات الذهب 1/ 207 .

2 - سير أعلام النبلاء 6/ 293 ، حلية الأولياء 3/ 20 .

3 - جامع بيان العلم وفضله 1/ 179 .

4 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأحكام : باب مايكره من ثناء السلطان 9/ 89 .

وعند ابن مسعود من امتهان الدين فقد قال : "من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان ، ولايخلون بالنسوان ، ولايخاصمن أصحاب الأهواء" [1]

وعن الأوزاعى [2] قال : "مامن شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً" .

وفى ذلك من الفتن مالا يخفى :

التصديق بالكذب ، الإعانة على الظلم ، والسكوت عن المنكر ، تحسين القبيح ، النفاق وكفى بها فتنة ، التكلف فى استمالة قلوبهم ، وبالجملة فمخالطتهم مفتاح لكل شر .

قال الحسن : " كان فيمن قبلكم رجل له قدم فى الإسلام وصحبة لرسول الله ـ ﷺ ـ ، قال عبد الله بن المبارك : عنى به سعد بن أبى وقاص [3] رضى الله عنه . قال : وكان لايغشى السلاطين ، وينفر عنهم ، فقال بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الإسلام ، فلو أتيتهم ؟ فقال : يابنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم ، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ، قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالاً ، قال : يابنى لأن أموت مهزولاً أحب إلى من أن أموت منافقاً سميناً .

قال الحسن ، خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان" . [4] فالداخل عليهم لايسلم .

وقال ـ ﷺ ـ : « **سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم**

1 ـ سنن الدارمى 1/ 90 .

2 ـ الأوزاعى : عبد الرحمن بن عمرو ، عالم أهل الشام ، ولد فى حياة الصحابة سنة (88 ـ 157 هـ) وكان كبير الشأن ، من أقواله : من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن عرف أن منطقه من عمله قل عمله ، وقال : من أطال قيام الليل هون الله عليه وقوف يوم القيامة . وقال لابنه : يابنى لو كنا نقبل من الناس كل مايعرضون علينا لأوشك أن نهون عليهم له ترجمة فى طبقات ابن سعد 7/ 488 ، حلية الأولياء 6/ 135 ، وفيات الأعيان 3/ 127 ، تذكرة الحفاظ 1/ 178 ، سير أعلام النبلاء 7/ 107 ، تهذيب التهذيب 6/ 278 .

3 ـ سعد بن أبى وقاص ـ مالك بن أهيب ـ الأمير أحد العشرة ، ومن السابقين الأولين ت 56 هـ ، له ترجمة فى حلية الأولياء 1/ 92 ، تاريخ بغداد 1/ 144 ، سير أعلام النبلاء 1/ 92 ، تهذيب التهذيب 3/ 483 ، شذرات الذهب 1/ 61 .

4 ـ إحياء علوم الدين 1/ 69 .

على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، ولم يصدقهم بكذبهم ، فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض» . [1]

فانظر نتائج المداخلة ومايترتب عليها وعلى المخالطة ، ولاشك أن وقعها شديد خطير يوم القيامة ، فوجب التباعد عن مظان الخطر .

ولربما كان فى المخالطة كسب دنيوى ؛ من جاه ومنزلة وذكر وشرف وتحقيق أغراض دنيوية ، لاسيما إذا بادلوه لطفاً بلطف وأكرموه .

والثابت المقطوع به ماعبر عنه أبو ذر [2] لسلمة : "لاتغش أبواب السلاطين ، فإنك لا تصيب من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه" .

فهى مقاصة ظالمة مجحفة .

فتأمل هذا ، وانظر حقيقة :

المساومة والتنازلات ، والعمل على الالتقاء منتصف الطريق ، والبحث عن أنصاف الحلول .

وسبب هذا مايخشى من فتنة الدخول عليهم .

والمخالط لايخلو من مساومة وتنازل .

وقد قيل من تواضع لغنى ـ مجرد غنى ـ ليس بظالم ـ لأجل غناه لا لمعنى آخر ، بل لمقتضى التواضع ، نقص ثلثا دينه ! فكيف إذا تواضع لظالم ؟

من علم فساداً فى موضع ، وعلم أنه لايقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر

---

1 ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه 4/ 525 ، وقال : هذا حديث صحيح غريب . والنسائى فى سننه 7/ 160 ، وأحمد فى مسنده 3/ 224 ، 321 ، 399 ، وابن حبان فى صحيحه ، انظر الإحسان 1/ 252، وأبو نعيم فى الحلية 7/ 249 ، والبيهقى فى سننه 8/ 165 .

2 ـ أبو ذر الغفارى : جندب بن جنادة ـ من نجباء الصحابة ، وأحد السابقين الأولين ت 32 هـ، له ترجمة فى : حلية الأولياء 1/ 156 ، سير أعلام النبلاء 2/ 46 ـ تهذيب التهذيب 12/ 90 .

ليجرى ذلك على يديه وهو يشاهده ويسكت ، بل ينبغى أن يحترز عن مشاهدته .

فلا عذر لأحد بارتياد مواطن الفساد طالما أمكنه الابتعاد ، فكيف بمن حضر ودعا ، وتلطف ، وأثنى ، وعزز ، وصدق ، واستبشر للقاء ؟

قال فرقد السّبخي [1] : "إن ملوك بنى إسرائيل كانوا يقتلون قراءهم على الدين ، وإن ملوككم إنما يقتلونكم على الدنيا فدعوهم والدنيا " .[2]

وهو شبيه بقول أبى ذر لسلمة ، وبقول ابن مسعود : "إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل ، والذى نفسى بيده ، ولاتصيبون من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينكم مثله " .

وعن الحسن : " لاتجيئن أميراً ، وإن دعاك لتقرأ عنده سورة من القرآن ، فإنك لاتخرج من عنده إلا شراً مما دخلت" .[3]

فى هذه النقول وغيرها كثير ، دلالات من تأملها غاية التأمل انتفع بها غاية النفع ، وعلم دلائلها وماترمى إليه ، كما فيها بيان أثر المخالطة ، ومافيها من فتن وأخطار ، وأن السلامة تركها لاسيما للظلمةمنهم .

ذلك أن المخالط لهم معرض لأن يعصى اللّه ، إما بتعاطى مثل أعمالهم ، أو بسكوته عن ظلمهم ، أو بتزيين المنكر لهم ، بالقول وبالفعل .

قال أبو سليمان [4] : "ليت شعرى من الذى يدخل إليهم فلا يصدقهم بكذبهم ؟ ومن الذى يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم ؟ ومن الذى ينصح ؟ ومن الذى ينتصح

---

1 ـ فرقد السبخى البصرى ، حدث عن أنس وجماعة ت 131 هـ له ترجمة فى : حلية الأولياء 3/ 44 ، شذرات الذهب 1/ 181 .

2 ـ حلية الأولياء 3/ 46 .

3 ـ حلية الأولياء 3/ 46 .

4 ـ أبو سليمان حمد بن سليمان الخطابى (319 ـ 388) هـ الإمام العلامة الحافظ اللغوى ، البارع ، له شعر هو سحر ، وحكم فى غاية الفصاحة وتصنيف مفيد ، له ترجمة فى : معجم البلدان 1/ 415 ، اللباب 1/ 151 ، وفيات الأعيان 2/ 214 ، تذكرة الحفاظ 3/ 1018 ، سير أعلام النبلاء 17/ 23 ، طبقات الحفاظ 403 ، شذرات الذهب 3/ 127 .

منهم؟ إن أسلم لك ياأخى فى هذا الزمان وأحوط لدينك ، أن تقل مخالطتهم وغشيان أبوابهم ، وتسأل الله الغنى عنهم ، والتوفيق لهم " . [1]

وهذا وغيره كما هو مفسد للعلماء مفسد ولابد للأمراء وفيه هلاك الصنفين معاً .

بإحداث الفتنة فى النفس ، والإعجاب والاغترار ، والاعتزاز بالرأى ، نظراً لكثرة ما يسمعونه من ثناء عليهم ، وتصديق كذبهم ، والمسارعة فى تلبية رغباتهم بالحق والباطل .

قال يحيى بن أكثم [2] : والله لقد ولى الحجاج [3] وماعربى أحسن أدباً منه ، فطالت ولايته ، فكان لايسمع إلا مايحب فمات وإنه لأحمق سيىء الأدب . [4]

فانظر كيفية هذا التحول البشع ، وكيف تغير هذا التغير الكبير ؟ فهل نجد سبباً سوى طول الولاية ، واعتياد أذنيه على أن تسمعا فقط الذى تحب ، وهل كان يقبل غير هذا ؟

وانظر أثر المخالطة والمواراة والمصانعة .

وهذا كله لايقف عند حد الأمير إنما يتعداه إلى من جالسه وداهنه ، وحسب عليه .

ولقد اعتبرت السنة النبوية هذا نوع تحقير للنفس قال ـ ﷺ ـ " **لايحقرن أحدكم نفسه** قالوا : يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : **يرى أمر الله عليه فيه مقال، ثم لايقول فيه فيقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة : مامنعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس ، فيقول : فإياى أحق أن تخشى** " [4]

---

1 ـ العزلة 228 .

2ـ يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن ـ الفقيه العلامة ت 242 هـ له ترجمة فى : تاريخ بغداد 14/ 191 ، طبقات الحنابلة 1/ 410 ، وفيات الأعيان 6/ 147 ، سير أعلام النبلاء 12/ 5 ، ميزان الاعتدال 4/ 361، تهذيب التهذيب 11/ 279 ، شذرات الذهب 2/ 91 .

3 ـ الحجاج بن يوسف الثقفى ت 95 هـ ، كان له فى القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها . وفيات الأعيان 2/ 29 .

4 ـ العزلة للخطابى / 234 .

5 ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن 2 / 1328 ، قال البوصيرى : إسناده صحيح ، رجاله ثقات، مصباح الزجاجة 2 / 298 ، والبيهقى فى السنن الكبرى 10 / 90 .

وأفضل الجهاد كما هو ثابت فى السنة " « **كلمة عدل عند سلطان جائر** » (1)

وإنما كان هذا النمط من شجاعة الأدب زائداً على جهاد العدو ، لأن من قاتل عدوه كان على أمل الظفر به ، ولايتيقن العجز عنه ، لأنه لايعلم يقيناً أنه مغلوب ، وهذا يعلم أن يد سلطانه أقوى من يده ، فصارت المثوبة فيه على قدر المؤونة .(2)

فإن تمسك أحد واحتج بما ثبت عن بعض السلف فى مخالطتهم للأمراء ، أجيب بأن ماثبت استثناءً ، والاستثناء ، لايقلد ، ولايقتدى بصاحبه فيه ، إذ هو انحراف عن القاعدة، ولاأسوة فى انحراف ، لاأسوة فى شر .

أو هى زيغة حكيم فلنحذر الزيغة ، ولاتصدنا عنه ، فنرد كل ماجاء به ، أو هفوة عالم هو فيها معذور .

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء ، لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لايعرف وجهه .

وهذا ثابت .

ورب رجل فى الإسلام مناقبه كذا وكذا ، وعسى أن تكون منه زلة ، أفيجوز لأحد أن يحتج بها ؟(3)

وهذا مجمع عليه بين العلماء .

ومن ألَحّت عليه نفسه وحملته على المخالطة اقتداء وتأسياً بنادرة من سلف وجب عليه أن يعرف صنيعهم أولاً قبل أن يسلك مسلكهم ، وحتى لايقتدى بهم فى أمر دون أمر .

والعلماء على جواز الدخول على الأمراء بشرطين :

الأول : أن يكون من جهتهم أمر إلزام ، لاأمرإكرام ، ويعلم أنه إذا امتنع أوذى ، أو

1 ـ أخرجه أبود اود فى سننه ، كتاب الملاحم 4 / 124 ، والترمذى فى سننه ، كتاب الفتن 4 / 471 ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجة فى السنن 2 / 1329 ، والنسائى فى سننه 7 / 144 .

2 ـ العزلة 228 .

3 ـ انظر أعلام الموقعين 3/ 284 .

فسد أمر الرعية ، فالدخول والحالة هذه مأذون به ، مراعاة للمصلحة .

الثانى : أن يعمل على دفع الظلم عن نفسه ، أو غيره ، بشرط ألاّ يكذب ، أويثنى على ظالم .

بغير هذا فلا يجوز دخول أهل العلم عليهم ، صوناً للعلم ، وحفاظاً على الدين أن يثلم أو يكلم .

فسلامة العلم والدين فى اعتزالهم ، واعتزال المتصلين بهم وعدم التأسف على مايفوت من زينة الدنيا والتنعم بها .

وتمثل بما قاله حكيم الأمة : " أهل الدنيا يأكلون كما نأكل ، ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم ، وعليهم حسابها ونحن منها براء " .

أو بما قاله حاتم الأصم : لقمان الأمة [1] : " إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، فأما أمسى فلا يجدون لذته ، وإنى وإياهم فى غد لعلى وجل ، وإنما هو اليوم ، وماعسى أن يكون فى اليوم .

فعاهد الله ألاّ يكلم الليث :

تعجب وأنت تطالع كتب التراجم وماأكثرها ، كم من فقيه ، وإمام ، وعالم لغة ، وأديب ، ومحدث ، ومفسر ، ممن لايحصون كثرة ، قد أريدوا على المنصب ، فاحتالوا لأمر الخروج ، وأظهروا الوحشة وهربوا ، وربما آثروا السجن .

فراراً بالدين ، وأخذاً بمبدأ السلامة .

ومن قبل عوتب ، واعتبر البعض القبول حداً فاصلاً بين عهدين .

عهد السلامة ، وعهد التلطخ .

---

1 ـ حاتم الأصم : أوحد من عرف بالزهد ، والتقلل من الدنيا ، والورع والتقشف ، ت 237 هـ من أقواله : لى أربع نسوة وتسعة من الأولاد ، فماطمع الشيطان ، أن يوسوس إلىّ فى شىء من أرزاقهم ، وقال : رأس الزهد الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 2/ 26 ، حلية الأولياء 8/ 73 ، تاريخ بغداد 8/ 241 ، شذرات الذهب 2/ 87 .

بعد أن أفسد العالم نفسه بصحبة الأمراء والدنو منهم .

من هؤلاء الذين عوتبوا : الإمام الكبير محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، وقد كان ممن يتردد على بنى أمية ، عاتبه أقرانه وإن كان ابن شهاب فى أمانته ودينه لايجارى ، ولامطعن فيه .

مع هذا فلما ذكر فى مجلس مكحول [1] قال : " أى رجل هو ؟ لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك " . [2]

والزهرى فى أعلى مراتب التعديل ، وفضله معروف ، ومخالطته لبنى أمية لم تكن إلا مخالطة العالم الذى لايتردد عن المجابهة والمواجهة ، وتقديم النصح حين يحتم الأمر تقديمه ، دون خوف ، ومن مثل الزهرى ؟ وأين مثله وهو الثبت الحجة؟

قال الذهبى [3] : "بعض من لايعتد به لم يأخذ عن الزهرى ، لكونه كان مداخلاً للخلفاء ، ولئن فعل فهو الثبت الحجة ، وأين مثل الزهرى رحمه الله" [4]؟

ومع أن الخلفاء والأمراء كانوا وقافين عند حد النص من الكتاب والسنة ، متى ذكروا به تذكروا ، وثابوا إلى قواعدهم الربانية ، مع هذا فقد كتب أخ له يقول :

" عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا ، قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه ، وعلمك من سنة نبيه محمد - ﷺ - ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء : ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾[5] .

---

1 - مكحول الدمشقى - عالم أهل الشام ت 116 ه له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7 / 453 ، طبقات الشيرازى 75 ، وفيات الأعيان 5/ 280 ، تذكرة الحفاظ 1 / 107 ، سير أعلام النبلاء 5 / 155 ، تهذيب التهذيب 10/ 289 .

2 - سير أعلام النبلاء 5 / 339 .

3 - محمد بن أحمد بن قايتماز الذهبى ، مؤرخ الإسلام الكبير ، وصاحب النقد ، والبصر ، والعقل الراجح ت748 هـ له ترجمة فى : مقدمة سير أعلام النبلاء ، الرسالة المستطرفة 63 .

4 - سير أعلام النبلاء 5 / 339

5 - سورة آل عمران آية 187 .

واعلم أن أيسر ماارتكبت وأخف مااحتملت ، أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل البغى بدنوك ممن لم يؤد حقاً ، ولم يترك باطلاً حين أدناك ، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى ظلمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلماً يصعدون فيه إلى ضلالهم ، ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويفسدون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ماعمروا فى جنب ماخربوا عليك ، وماأكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك .

وفى هذا الخطاب مافيه من إثارة الشفقة على العالم الكبير ، ابن شهاب ، ولم لا؟ وقد حصل بالمداخلة .

* مؤانسةوحشة الظالم .

* القرب ممن لم يؤد حقاً ، أو يترك باطلاً .

* إدخال الشك على العلماء .

* إفساد قلوب الجهال .

وممن عوتب أيضاً ابن عيينة : قال عنه أحمد : " دخل سفيان بن عيينة - يعنى على أمير اليمن - ولم يكن سفيان تلطخ بعد بشىء من أمر السلطان فجعل يعظه " (1)

ومنهم ابن العربى المالكى - نقل الذهبى أنه ولى القضاء فمحن ، وجرى فى أعراض الأمارة فلحن ، وأصبح تتحرك بآثاره الألسنة ، ويأتى بما أجراه عليه القدر ، النوم والسنة ، وما أراد إلا خيراً ، نصب السلطان عليه شباكه ، وسكن الأوبار حراكه ، فأبداه للناس صورة تذم ، وسورة تتلى لكونه تعلق بأذيال الملك ولم يجر مجرى العلماء فى مجاهرة السلاطين وحزبهم ، بل داهن ثم انتقل معظماً مكرماً حتى حول إلى العداوة فقضى نحبه . (2)

ولئن ترخص هؤلاء وتلطخوا ، وتعلقوا بأذيال السلطان ، فإن غيرهم قد تأبى على خطط الكيد والمكر ، والمراجع لتراجم العلماء يرى عجباً ، ومنهم الثورى ، والليث بن سعد .

---

1 - سير أعلام النبلاء 8 / 459 .

2 - سير أعلام النبلاء 20 / 201 .

وتأمل . سئل الثورى عن ظالم فى برية قد أشرف على الهلاك هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت ، فإن ذلك إعانة له ، وإن قال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه ، وامتنع رحمه الله من مناولة الخليفة فى زمانه دواة بين يديه ، وقال : حتى أعلم ما تكتب بها .[1]

وهدد الليث بن سعد بضرب العنق إن لم يقبل .

وقال له المنصور[2] : تلى لى مصر ، قال فاستعفيت ، قال : أما إذا أبيت فدلنى على رجل أقلده مصر . قلت : عثمان بن الحكم الجذامى[3] ، رجل له صلاح ، وله عشيرة ، قال فبلغ عثمان ذلك ، فعاهد الله ألا يكلم الليث .[4]

3 ــ **المراء ساعة جهل العالم .**

ويتمم هذه النقائض مايظهر بين العلماء من تحريش ، واختلاف ، وبأس فيما بينهم ، وجمود ، وجحود ، ونقص فى العلم الذى هو أشد خطراً من الجهل .

فصاحب العلم الناقص لايدرى بجهله خطورة الخلاف ، والتحزب ، والتعصب والتفرق حول الشىء ، الواحد ،والتعدد الذى ظاهره نصره الحق وباطنه اتباع الأهواء ، وكل ماكان سببا فى إباحة الدماء والأموال والأعراض ، وعرض الشر فى معرض الخير وتلبيسه ، وتمييز أمر ذلك على العامة صعب ، وفيه غموض ، وأكثر الخلق عنه جاهلون ، قد أعرضوا عن أدلة الشرع ومصادره ، فلم يأخذوها مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها ، بل قدموا آراءهم .

ومن استبد به الرأى ، نازع وجادل ، وقاده التنازع إلى البطالة ، وتطوير أسباب ووسائل الخلاف ، والصد عن الحق ثم تكون النتيجة أ ن يصل به الهوى إلى كل داهية ،

1 ـ انظر الكثير من الأخبار والمواقف فى طبقات ابن سعد 6/ 371 ، وفيات الأعيان 2/ 386 ، سير أعلام النبلاء 7/ 229 ، إحياء علوم الدين 2/ 144 .

2 ـ أبو جعفر المنصور ت 158 هـ ، له ترجمة فى : شذرات الذهب 1/ 244 .

3 ـ عثمان بن الحكم الجذامى ت 163 هـ ، أول من أدخل مسائل مالك إلى مصر ، له ترجمة فى : تقريب التهذيب 2/ 7 .

4 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 156 .

وفى الآخرة إلى الهاوية .

ومع النزاع والجدال تطل رؤوس الزعامة ، وتتعدد مصادر القيادة ، وجهات التوجيه .

وتأمل ، فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ، وإلا حين يكون الشح المطاع هو الذى يوجه الآراء والأفكار ، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الرئيسى للنزال بينهم ، مهما اختلفت وجهات النظر ، وإنما هو الهوى الذى يجعل كل صاحب هوى يصر عليه ، مهما تبين له وجه الحق فى غيرها ، وإنما هو وضع الذات فى كفة والحق فى كفة ، وترجيح الذات على الحق ابتداء . (1)

هذا شأن كل صاحب هوى قد غلبه هواه .

وأهل الأهواء ، هم أهل البدع ، والتفرق المخالفين للكتاب والسنة ، حيث قبلوا ماأحبوه ، وردوا ماأبغضوه بغير هدى من اللّه . (2)

وهذا من علامات السقوط والتخلف عن الغير من ناحية ، وعدم أخذ الأدلة الشرعية مأخذ الجد من ناحية .

كما أنه من علامات القيد ، والأسر والحبس والذم .

فالهوى أسر وقيد ، فوجبت مناقضته ، ومخالفته والبعد عنه ، والعمل بضد ما يأمر به ، لأنه يقصر اهتمامات الإنسان ، ويجعل دورانه حول نفسه فقط قبولاً ورداً ، حباً وبغضاً .

ومن المنطقى أن يدفع ذلك صاحبه إلى توسيع دائرة الخلاف والمجادلة غير المنتجة ، لأن كل واحد يناقش وهو مصفد بقيود العادات وإن كان لايشعر ، ويعتقد أنه أرفع قدراً أو أعلى قيمة من غيره ، وربما بحكم مالديه من مواهب أو بحكم فصاحة اللسان .

ينظر إلى غيره بعين السخط والكراهية والتحقير ، وهذا كما هو عين الظلم والبغى

1 ـ فى ظلال القرآن 10/ 1528 .

2 ـ نقض المنطق 54 ، ط السنة المحمدية .

والاعتداء ، هو كذلك سبب فى رد الحق ومدافعته عناداً وتحدياً .

والحامل على هذا كله إلحاح النفس بضرورة الانتصار ، وزعامة الباطل ، وحب الدنيا .

قال اللّه تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]

أفرأيته ؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجب ! وهو يستحق من اللّه أن يضله فلا يتداركه برحمة الهدى ، فما أبقى فى قلبه مكانا للهدى وهو يتعبد هواه المريض ، ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم من اللّه باستحقاقه للضلالة ، أو على علم منه بالحق ، لايقوم لهواه ، ولا يصده عن اتخاذه إلهاً يطاع ، وهذا يقتضى إضلال اللّه له ، والإملاء له فى عماه .

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

فانطمست فيه تلك المنافذ التى يدخل منها النور وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى ، وتعطلت أدوات الإدراك بطاعته للهوى ، طاعته للعبادة والتسليم .

﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾؟

والهدى هدى اللّه ، ومامن أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة ، فذاك من شأن اللّه الذى لا يشاركه فيه أحد حتى رسله المختارون : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟

ومن تذكر صحا ، وتنبه ، وتخلص من ربقة الهوى ، وعاد إلى النهج الثابت الواضح الذى لايضل سالكوه .[2]

---

1 ـ سورة الجاثية آية 23 .

2 ـ فى ظلال القرآن 25 / 3230 .

وهذه نهاية حتمية لكل من اتخذ إلهه هواه .

ومافى هذا ظلم ، فالجزاء من جنس العمل ، وماهو من الإنسان عائد عليه : ﴿ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [1]، وكل هذه الآثار نتيجة تآكل الدين ومظهر من مظاهره .

وفى الحديث « **دب إليكم داء الأمم ؛ الحسد والبغضاء ؛ هى الحالقة ؛ لاأقول تحلق الشعر ، وإنما تحلق الدين** » [2]

وإذا كان هذا حال علماء الأمة ، فما يكون حال غيرهم ؟

ولاشك أن غيرهم سيكون أشد تضارباً واختلافاً .

لاتختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان مَن بعدكم أشد اختلافاً . ولما سمع عمر ـ رضى اللّه عنه ـ أبيًا بن كعب وابن مسعود يختلفان ، صعد المنبر وقال : " رجلان من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ ، اختلفا فعن أى فتياكم يصدر المسلمون ؟ لاأسمع اثنين اختلفا بعد هذا إلا صنعت وصنعت . . " [3]

*ولو أن العلماءإذا ماوصلوا إلى هذا المستوى قد التزموا أدب الإسلام فى مسائل الخلاف والاختلاف ، فالتقطوا أطيب الكلام وأحسنه ، كما أرشد ربنا بقوله : ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [4] ، ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ [5] . أو كما قال عمر ـ رضى اللّه عنه : " ولولا أنى أجالس أقواما يلتقطون طيب الكلام ، كما يلتقط أحدكم طيب الثمر لأحببت أن أكون لحقت بربى " [6] لكان أولى .

---

1 ـ سورة يونس آية 23 .

2 ـ أخرجه الترمذى فى سننه 4/ 664 ، وأحمد فى مسنده 1 / 164 ، من حديث الزبير ، وعبد الرزاق فى مصنفه من الحديث يعيش بن الوليد رفعه ، وفيه انقطاع 10 / 385 ، والبغوى فى شرح السنة 12 / 259 من حديث يعيش ، والهيثمى فى مجمع الزوائد 8/ 30 وعزاه إلى البزار وجود إسناده ـ انظر كشف الأستار 2 / 419 .

3 ـ إعلام الموقعين 1/ 259 . 4 ـ سورة البقرة آية 83 .

5 ـ سورة الحج آية 24 . 6 ـ الزهد لابن المبارك 416 .

* ولو أنهم عندما اختلفوا قد قبلوا الحق ممن جاءهم به مع الرضا والتسليم والمناصحة، والرغبة فى إظهار الحق ، كما هو صنيع الشافعى [1] يوم قال : "ماناظرت أحداً إلا أحببت أن يجرى الله الحق على يديه دون حرص منى على مغالبته . وقال : ماناظرت أحداً على الغلبة إلا على الحق عندى .

ماناظرت أحداً إلا على النصيحة " .[2] لكان خيراً.

ذلك أنه من الواجب أن يحب المخالف صواب مناظره ويكره خطأه.

قال الإمام مالك : " وكان القاسم [3] قليل الحديث ، قليل الفتيا ، وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة فى الشىء ، فيقول : هو لك فإن كان حقاً فهولك ، فخذه ولاتحمدنى فيه ، وإن كان لى فأنت منه فى حل وهو لك" . [4]

بهذا نكون ضمن الدائرة ، نصيب صفاء القلب ، ونقاء السريرة فلا تزيدنا الخلافات إلا وداً وحباً.

وتأمل : سئل على ـ رضى الله عنه ـ عن أهل الجمل ، أمشركون هم ؟

قال : " من الشرك فروا ، قيل أمنافقون هم ؟ قال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلاً. قيل فما هم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا . . "[5]

---

1 ـ الشافعى : محمد بن إدريس (150 ـ 204 هـ) كان يقول : ماكابرنى أحد ودافع إلا سقط من عينى ، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته ، وقال : ماشبعت منذ ستة عشرة سنة ، إلا مرة واحدة فأدخلت يدى فتقيأتها ، لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف عن العبادة ـ له ترجمة فى : الجرح والتعديل 7/ 201 ، الحلية 9/ 63، طبقات الشيرازى 71 ، تاريخ بغداد 2/ 56، سير أعلام النبلاء 10 / 5، تهذيب التهذيب 9/ 35.

2 ـ مناقب الشافعى للرازى 91 ، سير أعلام النبلاء 10/ 29.

3 ـ القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، الإمام القدوة ت 108هـ من أقواله : "لأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول مالايعلم ، له ترجمة فى : وفيات الأعيان 4/ 59 ، تذكرة الحفاظ 1/ 96 ، سير أعلام النبلاء 5/ 53 ، شذرات الذهب 1/ 135.

4 ـ سير أعلام النبلاء 5/ 57

5 ـ السنن الكبرى 8/ 173.

مع شدة المخالفة والمعاندة ، لم ينف عنهم صفة الأخوة .

وقال يونس الصدفى [1] : " مارأيت أعقل من الشافعى ، ناظرته يوماً فى مسألة ، ثم افترقنا ولقينى ، فأخذ بيدى ، ثم قال : ياأبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق فى مسألة ؟ [2]

وتأمل ماقاله شيخ الإسلام ابن تيمية : " هذا وأنا فى سعة صدر لمن يخالفنى ، فإنه وإن تعدى حدود اللّه فىَّ بتكفير ، أو تفسيق ، أو عصبية ، فأنا لاأتعدى حدود اللّه فيه ، بل أضبط ماأقوله ، وأنقله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله حاكماً فيه ، وذلك أنك ماجزيت من عصى اللّه فيك بأكثر من أن تطيع اللّه فيه " .[3]

وماقاله الإمام أحمد وكان يذكر من أمر مخالفيه ويثنى عليهم ، ويلتمس الأعذار لهم .

ذكر إسحق بن راهويه ، ومدحه ، وأثنى عليه ، وقال : " إن كان يخالف فى أشياء فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً" ، وكثيراً ماكان يعرض عليه أقوال مخالفيه فلا يوافقهم ولا ينكر عليهم أقوالهم .

وقد استحسن ماحكى له عن حاتم الأصم ، وقد قيل له : "أنت رجل أعجمى لاتفصح وماناظرك أحد إلا قطعته فبأى شىء تغلب خصمك ؟

فقال : بثلاث ، أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأصون لسانى أن أقول له مايسوءه .

فلما بلغ أحمد هذا الكلام ، قال : ماأعقله من رجل ! "[4]

* أوليتهم ابتعدوا عن التشفى ، وأساليب التعيير ، والانتقام والتوبيخ ، وغلبوا

1 ـ يونس بن عبد الأعلى الصدفى ـ المصرى ، ت 264هـ كان ثقة فقيها فاضلا ، تفقه على الشافعى ، له ترجمة فى : اللباب 2/ 226 ، تهذيب التهذيب 11/ 440 .

2 ـ سير أعلام النبلاء 10/ 16 .

3 ـ مجموع الفتاوى 3/ 245 .

4 ـ الفرق بين النصيحة والتعيير / 10 ، وفيات الأعيان 2/ 26 .

نفسية التغافر ، والتصافح والتسامح ، كما هو الهدى النبوى ، فقد نهى النبى - ﷺ - ، عن تثريب الأمة الزانية مع أمره بجلدها .

قال - ﷺ - : « **إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليحدها الحد ولايثرب[1] عليها»** .[2]

فتجلد حدا ، ولاتعير بالذنب ، ولاتوبخ به .

* أو تركوا المراء والجدال ، فإنه يقسى القلب ، ويورث الفرقة ، ويهيج الحرص على الإصرار ، ويهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف .

والمراء عند العلماء ساعة جهل العالم ، وبها يبتغى الشيطان زلته ، وهو يغير القلب ويبعث على الضغينة .

وكان وهب يقول : دع المراء والجدال فإنك لاتعجز أحد رجلين :

رجل هو أعلم منك ، فكيف تمارى من هو أعلم منك . ؟

ورجل أنت أعلم منه ، فكيف تمارى وتجادل من أنت أعلم منه ، ولايطيعك ، فاقطع ذلك عنه ؟[3]

فهل نقنع جميعاً بذكر الحجج والبراهين لا الشتم والتهويل ؟

فإن الرد بمجرد الشتم لايعجز عنه أحداً ! فلو أراد سفيه أن يرد على الرجل بمثل رده لم يعجز عن ذلك .

* أو أصلحوا السريرة وأرادوا الله بالعلم والعمل ، وحرصوا على توفيق الله فى طلب الحق ، ولم يجعلوا الدين غرضاً للخصومات ، وستروا سمعة العلم ، وصانوا الإسلام ، وعلموا أن مراكز القدوة حساسة دقيقة ، فأعطوا المجهود من أنفسهم ،

---

1 - التثريب : اللوم والأخذ على الذنب - معجم مقاييس اللغة 1 / 375 .

2 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 3/ 109 ، ومسلم فى صحيحه 3 / 1328 ، والبغوى فى شرح السنة 10 / 297 ، جميعاً من حديث أبى هريرة .

3 - صون المنطق 121 ، نقلا عن الشريعة للآجرّى .

وأصلحوا أعمالهم بصلاح قلوبهم ، ولم يعملوا على تنظيم الناس من حولهم ويتركوا الفوضى فى داخلهم ، فإن شأن العلماء الأتقياء إذا عرفوا الحق سارعوا إليه ، وإذا اكتشفوا فى نفوسهم باطلاً تنكروا له، فما بينهم وبين الحق عداوة ، ولابين الباطل من صلة .

إذاً أرجع وأنا صاغر .. !

حكى عبدالرحمن بن مهدى [1] قال : " كنا فى جنازة فسألت عبيد الله بن الحسن العنبرى [2]عن مسألة ، فغلط فيها ، فقلت : أصلحك الله ، أتقول فيه كذا وكذا ؟

فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : إذاً أرجع وأنا صاغر ، لأن أكون ذَنَباً فى الحق ، أحب إلى من أن أكون رأساً فى الباطل " . [3]

مع أن العنبرى من سادات أهل البصرة ، فقهاً وعلماً ، وكان ثقة فاضلاً ، وهو من شيوخ ابن مهدى ، وابن مهدى تلميذه ، إلا أنه الحق .

فاعرف قدر الخضوع للحق ، والتنكر للباطل متى اكتشفته فى نفسك ؟

4 ـ الرياسة النذلة:

للعالم الحق فى منع المتعلم من التصدى لكل مالا يتقنه ، فما يفسده المتعجل أكثر مما يصلحه ، وفى الاستعجال حرمان ، بل هما قرينان .

" من استعجل بالشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه . [4]

---

1 ـ عبد الرحمن بن مهدى ـ الإمام الناقد (135 ـ 198 هـ) ، من أقواله : " لولا أنى أكره أن يعصى الله ، لتمنيت أن لايبقى أحد فى المصر إلاّ اغتابنى ! أى شىء أهنأ من حسنة يجدها الرجل فى صحيفته لم يعمل بها؟ له ترجمة فى : الجرح والتعديل 1 / 251 ، الحلية 9/ 31 ، تاريخ بغداد 10/ 240 ، سير أعلام النبلاء 9/ 192 ، تذكرة الحفاظ 1/ 329 ، الكاشف 2/ 187 ، تهذيب التهذيب 6/ 279 ، شذرات الذهب 1/ 355 .

2 ـ عبيد الله بن الحسن العنبرى ـ قاضى البصرة ت 168 هـ له ترجمة فى : تهذيب التهذيب 7/ 7 .

3 ـ رسالة المسترشدين 62 ، الاعتصام 1/ 148 ، تهذيب التهذيب 7/ 7 .

4 ـ هى قاعدة فقهية ـ انظر الأشباه والنظائر للسيوطى 152 ، ولابن نجيم 159 .

وفى التأنى السلامة ، والحياة لاتهب تجاربها لمتعجل ، فاصبر حتى يكتمل وعيك ونضجك ، وفهمك ، وتحصرم قبل أن تتذبب أو كما قال على ، وعمر - رضى الله عنهما - : تفقه قبل أن تسود : [1] واصبر ثانية حتى تكتمل تجاربك الحياتية - وادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لايدفن لايتم نتاجه .

كل هذا لأمر واحد فقط نهايته إليك ، هو : ألا يفوتك نفع وخير ، فمتى تصدر الحدث ، فاته خير كثير .

لخص ذلك كله الإمام الشافعى حين قال : " إذا تصدر الحدث فانه علم كثير "[2]

هذا فى زمانه - مطلع القرن الثالث الهجرى ، وهو فى زماننا أوجب ، فإنه زمان ريبة وفتن وقلق .

ولافتنة أضر على العلم وأهله من فتنة التصدى قبل النضج ، والتصدر قبل اكتمال الأخذ .

فللأداء شروط ، غير شروط التحمل .

يكفى أن يكون من الفتن :

الفتوى بغير علم ، والترجيم ، وتكلف مافوق الطاقة .

وفى الحديث : « **إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا** » . [3]

1- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 1/ 28 ، والدارمى فى سننه 1 / 78 موقوفا على سيدنا على - رضى الله عنه .

2 - فتح البارى 1 / 175 .

3 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب العلم 1 / 36 ، وكتاب الاعتصام ، باب ما يذكر من ذم الرأى وتكلف القياس 9/ 123 ، ومسلم فى صحيحه كتاب العلم 4/ 2058 ، والترمذى فى سننه ، كتاب العلم 5/ 31 ، وابن ماجة فى سننه ، مقدمة 1 / 77 ، والدارمى فى سننه 1/ 77 ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 1 / 149 .

أرأيت . كيف يتسرب الضلال والإضلال ؟

فآفة العلم فى ذهاب أهله ، وانتحال الجهال وترأسهم على الناس باسم العلم .

ورؤساء : جمع رئيس .

قال فى الفتح : "وفى هذا الحديث الحث على حفظ العلم ، والتحذير من ترئيس الجهلة ، وفيه أن الفتوى ، هى الرياسة الحقيقية ، وذم من يقدم عليها بغير علم " .[1]

وإنما كان التحذير من ترئيس الجهلة أمراً وارداً فى السنة ، لأن من لم يخدم العلم فى صغره، لايخدمه فى كبره .

فليخدم العلم فى صغره أولاً .

قال الثورى : " من ترأس فى حداثته كان أدنى عقوبته أن يفوته حظ كبير من العلم " . وعن أبى حنيفة [2] رحمه اللّه تعالى : " من طلب الرياسة بالعلم قبل أوانه لم يزل فى ذل مابقى " .[3]

وسئل المبرد[4] عالم اللغة : " و لم صار أبو العباس أحفظ منك للغريب والشعر ؟

فقال : " لأنى ترأست وأنا حدث ، وترأس وهو شيخ " .[5]

لذا لاتعجب إذ قالوا : " الرياسة فى الدين بلا دراية ، رياسة نذلة " .

1ـ فتح البارى 1 / 195 .

2ـ الإمام الكبير ، فقيه الملة ، النعمان بن ثابت (80ـ150 هـ) حدث أبو يوسف قال : كنت أمشى مع أبى حنيفة إذ سمعت رجلاً يقول لآخر ، هذا أبو حنيفة لاينام الليل ، فقال أبو حنيفة : واللّه لايتحدث الناس عنى بما لم أفعل ، فكان يحيى الليل صلاة وتضرعاً ، له ترجمة فى : الجرح والتعديل 8 / 449 ، وفيات الأعيان 5/ 415 ، تاريخ بغداد 13 / 322 ، سير أعلام النبلاء 6 / 390 ، تهذيب التهذيب 10 / 449 .

3ـ العزلة 210.

4ـ محمد بن يزيد إمام النحو ، صاحب الكامل وغيره ـ ت 286 هـ ، له ترجمة فى : تاريخ بغداد 13/ 380 ، وفيات الأعيان 1 / 102 ، تذكرة الحفاظ 2/ 666 ، سير أعلام النبلاء 14 / 5 .

5ـ العزلة 210 .

من قعد قبل أوانه زل .

وقدر كل امرىء ماكان يحسنه .

وأحوج الناس إلى العلم ، العلماء ، لأن الخطأ منهم قبيح .

ومن كان عنده علم لايترك التعلم .

وسئل المسيح : « **إلى متى يحسن التعلم ؟ قال : ماحسنت الحياة** " ، **وقيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال حتى الممات إن شاء الله ، لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد** »[1]

ولو كان أحد يكتفى من العلم بشيء لكان قد اكتفى نبي الله وكليمه موسى ـ عليه السلام ـ ولكنه قال : ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ .[2]

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 96 .

2 ـ سورة الكهف آية 66 .

قطاع الطريق

أ ـ الأصاغر والأراذل . .

مع أهمية التأنى وخطورة ترؤس الجهال ، والاستعجال بالشىء قبل أوانه ، وتصدر الأحداث ، فإن من غوائل العلم أن يكون سراً ـ كما قال عمر بن عبد العزيز : فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ، ولاتقبل إلا حديث رسول الله ـ ﷺ ـ « **ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لايهلك حتى يكون سراً** » . [1]

فأمر الراشد الخامس بإفشاء العلم ، وأبان عن سر هلاكه .

على أن العلماء حذروا من أمرين .

حجب العلم عن أهله .

وبذله لغير أهله .

لمايترتب على هذين الأمرين من مخاطر ـ والتى منها :

التجهيل ، والتأثيم ، والتكذيب ، والمقت .

قال المسيح ـ عليه السلام ـ : « **لاتمنع الحكمة أهلها فتأثم ، ولاتضعها عند غير أهلها فتجهل ، ولكن طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع . .** »[2]

وجعلوا لكل شىء آفة ، وآفة العلم وضعه عند غير أهله ـ فيكون عرضه للضياع ، فإنهم يجهلون ، ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون .

ومن ثمَّ عدوا العلم أشرف من المال ، وإذا حكم ربنا فى المال بقوله : ﴿**وَلَا تُؤْتُوا**

1 ـ صحيح البخارى 1 / 36 ، فتح البارى 1 / 194 .
2 ـ جامع بيان العلم وفضله 1 / 109 .

﴿السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[1] ـ تنبيهاً على صيانته وحفظه من التلف والآفات ، فصيانة العلم وحفظه مما يفسده أولى ، وهذا ثمنه .

فمن ثمن العلم أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه ، واعتبروا واضع العلم فى غير أهله ، كمقلد الخنازير الدر ، واللؤلؤ ، والجواهر .

قال الأعمش : [2] لاتنثر اللؤلؤ تحت أظلاف الخنازير .

ولما رأى شعبة [3] يحدث قوماً قال له : ويحك ياشعبة ! تعلق اللؤلؤ أعناق الخنازير .

قال ربيعة : لاينبغى لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه . [4]

ومراده : الحث على نشر العلم فى أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدى إلى رفع العلم .

أو مراده : أن يشهر العالم نفسه ، ويتصدى للأخذ عنه ، لئلا يضيع علمه .

وقيل : مراده تعظيم العلم وتوقيره فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضاً للدنيا .

قال الحافظ فى الفتح : وهذا معنى حسن . [5]

---

1 ـ سورة النساء آية 5 .

2 ـ سليمان بن مهران ـ أحد الأعلام (60 ـ 148 هـ) ذكروا أنه كان له ولد مغفل ، فقال له : اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل ، فقال ياأبه طول كم ؟ قال : عشرة أذرع ، فقال فى عرض كم ؟ قال : فى عرض مصيبتى فيك له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 6/ 342 ، حلية الأولياء 5/ 46 ، تاريخ بغداد 9/ 3 ، تذكرة الحفاظ 1/ 154 ، وفيات الأعيان 2/ 400 ، سير أعلام النبلاء 6/ 226 ، ميزان الاعتدال 2/ 224 ، تهذيب التهذيب 4/ 222 .

3 ـ شعبة بن الحجاج بن الورد ـ أبو بسطام ـ أمير المؤمنين (82 ـ 160 هـ) كان يقول : خذوا من أهل الشرف فإنهم لايكذبون له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 280 ، حلية الأولياء 7/ 144 ، تاريخ بغداد 9/ 255 وفيات الأعيان 2/ 497 ، سير أعلام النبلاء 7/ 202 ، تذكرة الحفاظ 1/ 193 .

4 ـ صحيح البخارى 1/ 30 .

5 ـ فتح البارى 1/ 178 .

ومن تعظيم العلم وتوقيره ، ألايضع العلم عند من لايصونه من الأصاغر والأرذال

ذلك أنه لما قيل لرسول الله - ﷺ - ، متى ندع الائتمار بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : « **إذا ظهر فيكم ماظهر فى بنى إسرائيل ، إذا كانت الفاحشة فى كباركم ، والملك فى صغاركم ، والعلم فى رذالتكم** » [1] والأرذل فى كل شىء : الردىء منه .

وبه ترجم ابن عبد البر فى جامعه : باب حال العلم إذا كان عند الفساق والأرذال . وأورد الحديث بطرق مختلفة ، وفى بعضها مايدل على أن ذلك من علامات الساعة ، وهجمة الشر على الناس ، وانتقاص صلاحهم ، وزيادة هلاكهم .

وتأمل ماقاله سيدنا عمر ، وابن مسعود - رضى الله عنهما - : " ألا إن الناس لن يزالوا بخير مأتاهم العلم عن أكابرهم " . .

لايزال الناس بخير ماأخذوا العلم عن أكابرهم ، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا . .

ومن ثمَّ قيل : عالم الشباب محقور ، وجاهله معذور . [2]

وقد اختلفت الأقوال فى تحديد المراد بالأصاغر والأكابر ، وبيان مايرمى إليه قول عمر ، وابن مسعود - رضى الله عنهما - .

وإن كان المرء بما يتقنه ، وأنه قد ساد بالعلم قديما الصغير والكبير ، ورفع الله به درجات من أحب .

إلا أنه يمكن أن يكون للرأى مجال فى بيان المراد بالأصاغر والأكابر .

فالأصاغر : من يقدمون رأيهم وهواهم ، وليس لهم مستند شرعى ، وهم أصحاب البدع .

---

1 - الحديث أخرجه أحمد فى مسنده 3 / 187 ، وابن ماجة فى سننه 2 / 1331 ، قال البوصيرى : هذا إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، مصباح الزجاجة 2 / 300 .

2 - جامع بيان العلم وفضله 1 / 157 - 160 .

وقد كان الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقول : أكابر الناس هم أهل السنة ، وأصاغر الناس هم أهل البدعة .[1]

أو أن يؤخذ العلم عمن كان بعد الأصحاب ، وتقديم ذلك على رأيهم .

أو أن الصغير : الذى يستفتى ، ولا علم عنده ، والكبير العالم فى أى سن كان .

فالجاهل صغير وإن كان شيخاً ، والعالم كبير وإن كان حدثاً .

تعلم فليس المرء يولد عالمـــاً ◆ وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لاعلم عنـــده ◆ صغيراً إذا التفت إليه المحافـــــل .

وهذا أمر معتبر لدى أهل الحديث فى قواعدهم : التفريق بين التابعى الكبير والصغير بجملة مروياته ولقاءاته ـ لابالسن وحده .

والاعتبار بالعلم المأخوذ عن الصحابة ، أو بما له سند شرعى من كتاب أو سنة أو إجماع ، وإلاّ فهو علم يقضى أول مايقضى على صاحبه ، فلا يكون حامله إماماً ولا أميناً ولا مرضياً .

كان شعبة يقول : خذوا من أهل الشرف فإنهم لايكذبون .

وأحق الناس بالعلم كذلك هم أهل الشرف والدين ، فإن العلم إذا كان عند غيرهم وجد الشيطان إلى احتقارهم السبيل ، وزهد الناس فى علمهم ، وأوقع فى نفوسهم أثره الرضا بالجهل ، أنفة من الاختلاف إلى من لاحسب له ولا دين .

وتأمل ماقاله مكحول : تفقه الرعاع فساد الدين ، وتفقه السفلة فساد الدنيا .[2]

ويلحق بهذا كل مايعين عليه ـ كإعارة الكتب مثلاً .

فقد سلك أهل الشرف فى إعارتها طريق البخل ، والضن عمن ليس لها بأهل .

---

1 ـ الميزان الكبرى 1 / 58 .

2 ـ جامع بيان العلم وفضله 1/ 157 ـ 161 .

وللعلماء قديماً فى إعارتها ممارسات منها :

امتحان المستعير ، فإن كان أهلاً أعير ، وإلاّ منع .

ومنهم من إذا وعد بالإعارة رد المستعير ، فإن عاد ولم يضجر أعاره ، وإن لم يعد كفاه أمره .

وأعلنوا : لاتعر كتاب علم من ليس من أهله .

من حق العلم إعزازه .

لاتعر كتاباً إلاّ بعد يقين أن المستعير ذو علم ودين .

ولما رأى بعض الحكماء رجلاً يبتذل كتاباً ، قال له : بينت عن نقصك ، وبرهنت عن جهلك ، فما أهان أحد كتاب علم إلاّ لجهله بما فيه وسوء معرفته بما يحويه .

ومنهم من إذا سئل كتاباً قال للسائل : أرنى كتبك ؟! .

فإن وجدها مصونة مكنونة أعاره ، . وإن رآها متغيرة منعها .[1]

ب ــ فساد الساعات الأولى :

ذهب العلماء فما بقى إلا المتعلمون ، وماالمجتهدون فيكم إلا كلاعب فيمن قبلكم .

هذا شأن المجتهدين فينا؟

فكيف بالعلماء فينا ؟

الاقتداء بالمنهج:

نبينا محمد ـ ﷺ ـ ، هو رجل الوجود الإنسانى كله .

هو رجل الزمان والمكان .

رجل الحياتين ؛ الدنيا والآخرة .

1 ـ تقييد العلم 146 ـ 150 .

شمل الجميع ، وقام به ، ووجد الكل عنده مايبحثون عنه ، وقدم تعاليمه للصغير والكبير ، والبدوى والحضرى ، فى سهولة ويسر ، بعيداً عن التعمق ، والتكلف ، والمعاناة .

ونصوص القرآن والسنة فى التأصيل لذلك وفيرة .

فمن السنة:

وصيته الدائمة ـ ﷺ ـ ، للأمراء والجنود ـ حتى باتت نهجاً عاماً ـ بالتيسير ، ورفع الحرج .

من ذلك قوله ـ ﷺ ـ **" بشروا ولاتنفروا ، يسروا ولاتعسروا "**[1]

هذا المنهج القائم على التبشير ، والتيسير ، والبعد عن الترويع ، والتعقيد ، جعل الأمر أكثر قبولاً وقرباً من الناس ، لأنه المتفق وفطرة الناس .

وآية ذلك : أن اللّه لم يكلف الناس فوق مايطيقون .

قال اللّه تعالى : **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾**[2]

ومن ثمَّ كانت الرخص والعزائم ، واللين والشدة ، ولم يكن قولاً واحداً وإلا شق على الناس الأخذ به .

ثم إن الناس ليسوا سواء ـ وماداموا كذلك فمن غير الممكن أن يكون المطلوب واحداً ، والمعطى لهم كذلك .

ولهذا كان النبى ـ ﷺ ـ يجيب على السؤال الواحد بأكثر من إجابة ، فالكبير بخلاف الصغير ، والمسافر غير المقيم . .

---

1 ـ الحديث أخرجه البخارى فى عدة أماكن من الصحيح ـ منها فى كتاب الأحكام 9/ 87 ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الجهاد : باب تأمير الأمراء 3/ 1358 ، وأبو داود فى سننه 4/ 360، جميعاً من حديث أبى برزة ، عن أبى موسى ـ واللفظ لمسلم .

2 ـ سورة البقرة آية 185 .

قال اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (1)

فتأمل " عَلَيْكُمْ " : ومايمكن أن يدخل تحتها .

فالإجابة ، والعمل بعدها بحسب مقدرة الناس ، لاقدرته ـ ﷺ ـ ، ولم يجهل الناس هذا ، ـ أو يقاوموه ، أو يعاكسوه ـ أو يعملوا على تغييره أبداً ـ فهو فطرة ، وقانون

بهذه البساطة ، والسهولة ، والوضوح أقام النبى ـ ﷺ ـ عوج الحياة ، ورد كل فرد فى المجتمع إلى مكانه ، وأصبحت البشرية طاقة زهر لاشوك فيها ، وحل الرسول الكريم ـ ﷺ ـ وحلت تعاليمه فى نفوس الناس محل الروح والقلب من أبدانهم .

وإن المرء ليعجب ، كيف حول الرسول ـ ﷺ ـ ، خامات الجاهلية تلك إلى معادن إنسانية نفيسة ؟

لقد صاغهم صياغة جديدة ، وصبهم فى قالب الإسلام صباً ، فعادوا لايشبهون أنفسهم إلا فى الأجسام ، لا فى الميول والأهواء ، أو النزعات والرغائب .

ولو دقق متأمل لما رأى فى سلوكهم أو طباعهم مأخذاً ينافى الإسلام وتعاليمه وأخلاقه ، حتى قيل : لو كان الإسلام رجلاً مازاد على أن يكون كأحدهم .

والآن . ماأحوج الأمة إلى من يعيد لها صلتها بدينها ، إلى من يرد عليها أمر دينها ، إلى من يجدد عهداً ماضياً ويوثقه بالحاضر والمستقبل !

فما السبيل .. ؟

إنه فى العودة الكلية إلى الأمر الأول .

والعلماء يقررون ، لاصلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

فإنهم يقررون بذلك ، إمكانية الصلاح وأنها قائمة وقابلة للتحقيق ، وهذا يتطلب :

أولاً : الأخذ من حيث أخذ الأولون ، وبنفس طريقة أخذهم ، معنى هذا ،

---

1 ـ سورة الحج آية 78.

الاكتفاء بالمصدر ، وتوحيد جهة الأخذ والتلقى .

الثانى : أن يكون الأداء كذلك مقصودا به عملية الاقتداء بهم ، فنؤدى بطريقتهم .

الأمر الأول يتعلق بالتحمل ، والثانى بالأداء .

ويتضح هذا بأمر آخر هو :

أن نصيغ دعاة ومربين على مقتضى ماكان عليه الأولون ، يتعاملون مع العقول حسب مقدرتها ، لايحملون الناس فوق مايطيقون ، يخاطبون الناس على قدر عقولهم .

هذا الأمر من الأمور الهامة عند إرادة الأداء والتوريث .

وأصل ذلك من القرآن قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾(1)

والمعنى : كونوا حلماء فقهاء .

فمع الحلم فقه ، فانظر هذا الاقتران ، وابحث عن كيفية الوصول إلى هذه الدرجة ، وهو أمر يتطلب أن يتخير المربى من الأخلاق أفضلها ، ومن الآداب أجملها ، ويتجنب طرائق الجهال ، وخلائق الأرذال والعوام .

وأن يحسن سيرته وسريرته ، جاعلاً أقواله وأفعاله موافقة للشرع ، فدليل الفعل أرشد .

أقول هذا تمشياً مع إطلاقات المعنى الاصطلاحى لمدلول كلمة " فقيه " قديماً ، إذ كانوا يطلقونها على جماعات من أهل العلم ، والمعرفة ، والسلوك ، والأخلاق ، والزهد ، وعلوم الآخرة ، ولهم فى ذلك أقوال .

الفقيه : الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بأمر دينه المداوم على عبادة ربه .

---

1 ـ سورة آل عمران آية 79 .

وأفقه الناس أتقاهم لربه .

الفـقـيـه حق الفـقـيـه ، لايقنط الناس من رحـمـة اللّه، ولايؤمنهم من عـذاب اللّه ، ولايرخص لهم فى معاصى اللّه ، إنه لاخير فى عبادة لاعلم فيها ، ولاخير فى قراءة لاتدبر فيها .[1]

هذا هو الفقيه حق الفقيه .

وتأتى أهمـية هذا التـعريف من حيث صدوره عن واحد من أفقه الأمة ، إنه على - رضى الله عنه .

الفقيه : الجامع مع زهده فى الدنيا بصراً فى الدين .

الحامل للناس على أجنحة الرجاء والخوف .

بلا إفراط أو تفريط .

فكلا طرفى قصد الأمور ذميم . والقانط لايعمل ، والآمن لايعمل ، فكلاهما غير عابىء ، بما يصلحه ، ولابما يفسده .

لايقنط الناس من رحمة اللّه ، ولايؤمنهم من عذابه .

ولايرخص لهم فى معاصيه .

وهو كلام خبير أصاب به كبد الحقيقة .

ومن حققه فهو الربانى .

وقيل الربانى : الذى يربى الناس بصغار مسائل العلم قبل كباره .[2]

قال ابن حجر : المراد بصغار العلم ، ماوضح من مسائلة ، وبكباره مادق منها .

1 - سنن الدارمى 1 / 89 ، جامع بيان العلم وفضله 2 / 44 .

2 - صحيح البخارى 1 / 37 .

وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، ومقدماته قبل مقاصده[1]

فانظر هذا التدرج فى الأداء ؟

وانظر معه الفساد الناشىء عن التعجل ، وتحميل الناس فوق مايطيقون ، والخلط فى الابتداء .

وتأمل كذلك الآثار المحزنة ، والفتن المترتبة على هذا الخلط .

قال على - رضى اللّه عنه - : حدثوا الناس بما يفهمون ! أتحبون أن يكذب اللّه ورسوله ؟[2]

وقال ابن مسعود : ماأنت محدثاً الناس حديثاً لاتبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة[3] .

أرأيت ؟ ماترتب على الخلط وعدم نقاء الابتداء .

لهذا ترجم البخارى فى كتاب العلم من صحيحه بما يدل على عبقريته ، وربانيته ، وروعة فقهه لبابين هما :

باب : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فيقعوا فى أشد منه .

فتأمل . . مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا فى أشد منه .

وباب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لايفهموا .[4]

ويستفاد من الترجمة :

---

1 - فتح البارى 1 / 160 .
2 - صحيح البخارى 1 / 44 ، جامع بيان العلم وفضله 1/ 134 .
3 - مقدمة صحيح مسلم 1 / 11 ، فتح البارى 1 / 135 ، جامع بيان العلم وفضله 1 / 134 .
4 - صحيح البخارى ، كتاب العلم 1/ 43 ، 44 .

ترك المصلحة لأمن الوقوع فى المفسدة ، وترك إنكار المنكر خشية الوقوع فى أنكر منه ، وأن الإمام يسوس الناس بما فيه إصلاحهم ، ولو كان مفضولاً مالم يكن محرماً ، تعليم وإخبار الناس بما يفهمون ويعرفون ، وترك مايشتبه عليهم فهمه ، وأن المتشابه لاينبغى أن يذكر للعامة .

لهذا كله ـ كره طائفة من السلف تحديث الناس بأحاديث الصفات ، وبالغريب ، وكل مايكون ظاهره مقوياً لبدعة ، وهذا الظاهر غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب .

فليس كل مايعلم يقال ، ولاكل مايقال قد جاء أوانه ـ وذلك بالنسبة للمبتدىء ـ وقالوا فى ذلك : لايجيئك الخبر الشاذ إلا من الرجل الشاذ .

الاقتصار إذاً بالمتعلم على قدر فهمه مطلوب رحمة به ، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله ، وإلا نفر وهرب ، وقد يختلط عليه الأمر ويشكل .

ومن ثمَّ قالوا ـ كلْ لكُل عقل بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه ، وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

ولما سئل أحد العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقول : « **من كتم علماً نافعاً ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار** » [1]

فقال : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى ، فقد قال اللّه : ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ**﴾[2] تنبيهاً على أن حفظ العلم مما يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق ، بأقل من الظلم فى منع المستحق .

أمر آخر فى غاية الأهمية ـ رفض السنة للأفكار والثقافات الوافدة ، وحرص النبى ـ ﷺ ـ على تحديد هوية الأمة الثقافية ، وعدم خلطها بثقافات الأمم .

---

1 ـ الحديث أخرجه ابن ماجة فى سننه 1 / 95 ، 96 ـ من حديث أبى سعيد ، قال البوصيرى فى حديث أبى سعيد ، هذا إسناد ضعيف ، فيه محمد بن داب ، كذبه أبو زرعة ، وغيره ، ونسب إلى الوضع ـ مصباح الزجاجة 1 / 86.

2 ـ سورة النساء آية 5.

قصد النبى - ﷺ - بذلك الاقتصار على المصدر الواحد ، والنبع الواحد .

قال - ﷺ - : « **لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعنى** » . [1]

قال الحافظ فى فتح البارى : إن عمر أتى النبى - ﷺ - بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه ، فغضب ، وقال : " **لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى حياً ماوسعه إلا أن يتبعنى** "

هذا النهى عن سؤالهم فيما لانص فيه ، لأن شرعنا مكتف بنفسه ، فإذا لم يوجد فيه نص ، ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم . [2]

وقال ابن عباس : كيف تسألونهم عن شىء ؟ وكتاب الله بين أظهركم ! كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ؟ وكتابكم الذى أنزله الله على نبيه - ﷺ - بين أظهركم أحدث الكتب عهداً بربه ، غضاً لم يشب، ألم يخبركم الله فى كتابه أنهم قد غيروا كتاب الله وبدلوه ، وكتبوا الكتاب بأيديهم ، فقالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم العلم الذى جاءكم عن مسألتهم ؟

والله مارأينا رجلاً منهم قط يسألكم عما أنزل الله إليكم . [3]

---

1 ـ الحديث أخرجه أحمد فى مسنده 3 / 338 ، وأبو يعلى فى المسند 4 / 102 ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد 1 / 173 ، 174 ـ باب ليس لأحد قول مع رسول الله - ﷺ - عزاه إلى أحمد ، وأبى يعلى والبزار - وقال : فيه مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد ، ويحيى بن سعيد ، وغيرهما ، وذكره كذلك فى علامات النبوة 8 / 263، باب وجوب اتباعه على من أدركه ، وقال : رواه أحمد . ، وقد عنون البخارى به فى كتاب الاعتصام 9/ 163 ، وقال الحافظ : هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه أحمد ، وابن أبى شيبة ، والبزار من حديث جابر . . ورجاله موثقون ، إلا أن فى مجالد ضعفاً ـ فتح البارى 13 / 334 .

2 ـ السابق 13/ 334 .

3 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 42 ، 43 .

التحديث عن كل أحد ، أو بكل ما سمع:

« كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ماسمع » ! (1)

ومـاذاك إلا لأنه لايسلم ، كـمـا لـم يسلم للمبتدىء أخـذه بما دق من مـسـائل العلم وكلياته

قال مـالك : إعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل مـاسـمع ، ولايكون إمـامـاً أبداً وهو يحدث بكل ماسمع .

فانظر ضياع الدرجة منه، إن هو حدث بكل ماسمع .

وكان عبد الرحمن بن مهدى يقول : لايكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ماسمع ، ولايكون إماماً فى الحديث إذا حدث بكل مايسمع ، أو عن كل أحد . (2)

وقد سلك الأئمة فى ذلك طرقاً ـ منها :

مـحـاولة الهـرب من الفـتـيـا ، والاعـتـذار عنهـا ، إلى حـد الكراهة ، أو الاحـالة ، والتمنى أن غيره قد كفاه ، فليس هـذا الأمر لمن ود أن الناس قد احتاجوا إليه ، وإنما لمن ود أن غيره قد كفاه .

الندم على ماحدث به من أحاديث .

وكانت سمة عامة أن يقول من سئل عن مسألة : لاأدرى ، سل العلماء .

وسل اللّه التوفيق ، ومنهم من يقول : لاأحسن ، ومنهم من لزم الاستغفار بدل الرد، ومنهم من جمع رؤوس الناس واستشارهم . . ومنهم من لزم الصمت وعدم الرد ـ ورأوا أن أسرع الناس رداً أكثرهم جهلاً .

ومرد ذلك كله إلى :

* حساسية النفوس المؤمنة وشدة التوقى .

---

1 ـ جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه 1/ 10 من حديث أبى هريرة .

2 ـ صحيح مسلم ، مقدمة 1/ 11 ، جامع بيان العلم وفضله 2/ 47 .

* وأن الذى يحدث الناس يجعل نفسه بين الله والناس موقِّعاً عن الله تعالى .

فإذا دخل بحديثه بين الله وعباده ، فلينظر بم يدخل ؟ وليطلب لنفسه مخرجاً قبل الدخول ، فالدخول سهل ، والخروج شديد . ولم يكن بعد النبى ـ ﷺ ـ أحد أهيب لما لايعلم من صحابته ، لاسيما الشيخان ـ أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما جميعاً ـ فإذا نزلت بالصديق قضية فلم يجد فى كتاب الله فيها أصلاً ، ولا فى السنة أثراً ، اجتهد ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمنى واستغفر الله .

والمروى عنه أيضاً أنه إن أعياه أن يجد فى الكتاب أو السنة ، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به .(1)

ثم قام عمر ـ رضى الله عنه ـ مقام الصديق ، فكان إذا وردت عليه مسألة جمع لها أهل بدر ، ثم كان كذلك عامة الصحابة ، فقد وصف الأمر أحد سادات التابعين ، ابن أبى ليلى (2) فقال : أدركت فى هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار ، ومامنهم من أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ، ولايسأل عن فتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا .(3)

هذا فى الجمع ، فإذا ماجئت إليهم أفراداً سمعت ابن مسعود يقول : الذى يفتى الناس فى كل شىء لمجنون .

وهذا مجاهد بن جبر يقول : صحبت ابن عمر إلى المدينة ، فما سمعته يحدث عن النبى ـ ﷺ ـ إلا حديثا .(4)

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : مارأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب

---

1 ـ سنن الدارمى 1 / 58 .

2 ـ عبد الرحمن بن أبى ليلى ت 83 هـ ، الإمام الحافظ الفقيه ـ له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 6/ 109 ، الحلية 4/ 350 ، تاريخ بغداد 10 / 199 ، وفيات الأعيان 3 / 126 ، سير أعلام النبلاء 4/ 262 ، تذكرة الحفاظ 1/ 55 ، تهذيب التهذيب 6/ 260 ، شذرات الذهب 1/ 93 .

3 ـ سنن الدارمى 1/ 53 ، جامع بيان العلم وفضله 2 / 163 ، سير أعلام النبلاء 4 / 263 .

4 ـ سير أعلام النبلاء 3 / 214 .

النبى - ﷺ - ماسألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن فى القرآن ، منهن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[1] ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[2] .

قال : ماكانوا يسألون إلا عما ينفعهم .[3]

ثم : توارث هذا من جاء بعدهم ، وتواصوا به .

وقد وصى بها ربيعة بن عبد الرحمن ، ابن شهاب يوم قال له : أنت تحدث عن النبى - ﷺ - ، فتحفظ فى حديثك .[4]

حتى إذا وصل الأمر إلى من بعدهم - مالك ، وابن عيينة ، وابن مهدى ، وغيرهم لزموه - قال مالك : كثير من هذه الأحاديث ضلالة ، لقد خرجت منى أحاديث لوددت أنى ضربت بكل منها سوطين وأنى لم أحدث به .

ولما قال الشافعى : إن عند ابن عيينة عن الزهرى أشياء ليست عندك!

فقال : وأنا كل ماسمعت أحدث به ، أنا إذا أريد أن أضلهم .[5]

وقال محمد بن يوسف الفريانى [6] : كنت أمشى مع ابن عيينة فقال لى : يامحمد مايزهدنى فيك إلا طلب الحديث ، قلت : فأنت يا أبا محمد ، أى شىء كنت تعمل ، إلا طلب الحديث ؟ فقال : كنت إذ ذاك صبياً لاأعقل .

قال الحافظ الذهبى : إذا كان مثل هذا الإمام يقول هذه المقالة فى زمن التابعين أو بعدهم بيسير ، وطلب الحديث مضبوط بالاتفاق ، والأخذ عن الأثبات الأئمة ، فكيف لو رأى سفيان رحمه الله طلبة الحديث فى وقتنا وماهم عليه من الهنات ، والتخبيط ،

---

1 - سورة البقرة آية 217 .

2 - سورة البقرة آية 222 .

3 - سنن الدارمى 1 / 51 .

4 - الفقيه والمتفقه 2 / 80 .

5 - ترتيب المدارك 1/ 149 .

6 - محمد بن يوسف أحد شيوخ البخارى كان ثقة ثبتاً رحل الناس إليه ، له ترجمة فى : اللباب 2/ 447، تقريب التهذيب 2/ 542 .

والأخذ عن جهلة بنى آدم . . ؟

أما الخيام فإنها كخيامهـــم ✦ وأرى نساء الحى غير نسائهـا[1]

وعن عبدالرحمن بن مهدى قال : إذا لقى الرجل الرجل فوقه فى العلم ، فهو يوم غنيـمة ، وإذا لقى من هو مثله دارسه ، وتعلـم منه ، وإذا لقى من هو دونه تواضع له ، وعلمه ، ولايكون إماماً فى العلم من حدث بكل ماسمع ، ولايكون إماماً من حدث عن كل أحد ، ولا من يحدث بالشاذ ، والحفظ للإتقان .[2]

وليس هذا بآخر الممكن ، فالثابت عن مجموعهم يفوق الحصر ، وكلها دلائل على أن التعـجل بالشىء قبل أوانه إيذان بزواله ، وأن الورع ، والخوف ، والخشـية من اللّه مفتاح لكل خير ، وأن السلامة فى التأنى ، وأن الأئمة ماستحقوا الإمامة فى الدين إلا برحمة الخلق ، والشفقة عليهم ، وأن علو الدرجة ، وفضل الرتبة قد جاءهم يبحث عنهم بعد أن استجمعوا الأسباب ، وعلموا مايصح مما لايصح ، مايحتج به ، ومالا يحتج به ، وحدثوا بالتالى الناس على أساس صحيح .

وفى كل هذا أيضاً دلالة على أن القوم كانوا عمليين .

همهم وهمتهم كما لخصها ابن مسعود ـ رضى اللّه عنه ـ : ليس العلم كثرة الرواية وإنما العلم الخشية .

وقال الحسن : تعلموا ماشئتم أن تعلموا ، فو اللّه لايأجركم اللّه حتى تعملوا ، فإن القوم همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الرعاية .[3]

ولأنهم كانوا عمليين ، وكانوا للعمل رعاة ، فقد اشتد خوفهم من أن يرووا شيئاً يفوتهم العمل به ، أو ينهضوا بتبعاته .

---

1 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 463 .

2 ـ سير أعلام النبلاء 9/ 203 ، الحلية 9/ 4 .

3 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 6 ، سير أعلام النبلاء 11/ 296 .

قال أحمد : ماكتبت حديثاً إلا عملت به ، حتى مر بى أن النبى ـ ﷺ ـ « **احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً.** [1] ، **فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً** » .

وفى المحنة التى ابتلى بها ، اختبأ ثلاثة أيام ثم خرج ، وأشفق عليه أصحابه ، فقال إن الرسول ـ ﷺ ـ مكث فى الغار ثلاثة أيام . [2]

بل كانوا يستعينون على حفظ الحديث بالعمل به .

كان وكيع بن الجراح [3] يقول : إذا أردت أن تحفظ حديثاً فاعمل به .

وقال إبراهيم بن إسماعيل : [4] كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به ، والعمل من جملة الآداب التى يتحلى بها طالب العلم ، حتى قال السيوطى : ينبغى أن يستعمل مايسمعه من أحاديث العبادات ، والآداب وفضائل الأعمال ، فذلك زكاة الحديث ، وسبب حفظه .

ونقل عن عمرو بن قيس الملائى [5] قال : إذا بلغك شىء من الخيرفاعمل به ولو مرة تكن من أهله . [6]

---

1 ـ الحديث أخرجه مالك فى الموطأ : باب ماجاء فى الحجامة 691، وأخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب البيوع : باب ذكر الحجام 3/ 82 ، وباب من أجرى أمر الأمصار على مايتعارفون بينهم 3/ 103 ، وفى الإجارة : باب ضريبة العبد 3/ 122 ، وباب من كلم موالى العبد أن يخففوا من خراجه 3/ 122 ، وفى الطب 7/ 161 ، ومسلم فى صحيحه 3/ 1204 ، والدارمى فى سننه 2/ 272 ، والترمذى فى سننه 3/ 576 ، وأبو داود فى سننه 3/ 266 ، كلهم من حديث أنس ولم يرد فيه أنه ـ ﷺ ـ أعطاه ديناراً ، وإنما أمر له بصاع من طعام ، من شعير ، بصاعين من تمر ، وأحمد فى مسنده 3/ 100 ، 174 ، 182 .

2 ـ مناقب أحمد لابن الجوزى 179 ، الميزان الكبرى 1/ 62 ، وفيه غير ماذكر مما يدل على شدة ملازمة الإمام أحمد للأثر ، تدريب الراوى 2/ 144 .

3 ـ وكيع بن الجراح بن مليح (129 ـ 175 هـ) له ترجمة فى : الجرح والتعديل 1/ 219 ، الحلية 8/ 368 ، تاريخ بغداد 13/ 466، تذكرة الحفاظ 1/ 306 ، الكاشف 3/ 237 ، ميزان الاعتدال 4/ 335 ، تهذيب التهذيب 11/ 123 .

4 ـ إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ـ ضعيف ـ من السابعة ، تقريب التهذيب 1/ 32 .

5 ـ عمرو بن قيس الملائى ـ ثقة متقن من السادسة ـ تقريب التهذيب 2/ 77 .

6 ـ تدريب الراوى 2/ 144

كان هذا حظ السلف من العلم ـ العمل به .

أما الأمة حين يكون حظها من العلم الرواية ونقل الأخبار ـ فإن شأنها الاضطراب وفقدان الثقة ، لاصلة لها بالمنهج ، وهى إلى الضلال أقرب ، وفرق كبير بين الأمرين .

واللّه سبحانه لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه . نفعنا اللّه بالعلم ـ ولا جعل حظنا منه الاستماع والتعجب .

ذكر الإمام أحمد عن عبد اللّه بن وهب [1] أنه صحيح الحديث ، يفصل السماع من العرض ، والحديث من الحديث ، ماأصح حديثه !

قيل لأحمد إنه كان يسيىء الأخذ ـ فقال قد كان ، ولكن إذا نظرت فى حديثه وماروى عن مشايخه وجدته صحيحاً .

هذا رأى أحمد وهو من هو ؟ فى ابن وهب ، عالم مصر ، وأحد رايات المذهب المالكى .

ومن قال عنه ابن القاسم : مادون العلم أحد تدوينه .

وهذا رأى ابن القاسم فيه .

وقال غيره : كنا نسمى ابن وهب ديوان العلم .

فماذا قال عن نفسه ؟ خاصة بعد أن بلغت مروياته كما قال : أحمد بن صالح المصرى [2] : حدث ابن وهب بمائة ألف حديث ، مارأيت أحداً أكثر حديثاً منه .

هذا العدد الكبير ، ورغم توثيق العلماء له ، فإن ابن وهب يذكر من أمره حيرة وقلقاً وتلبساً ، مما جعله يلجأ إلى الأئمة لإجراء تمييز بين ماسمعه ، وتوضيح ماغمض ، وبيان ماخفى .

1ـ عبد اللّه بن وهب المصرى القرشى (125 ـ 197 هـ) له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 518 ، سير أعلام النبلاء 9/ 223، الكاشف 2/ 126 ، ميزان الاعتدال 2/ 421 ، تهذيب التهذيب 6/ 71 ، طبقات الحفاظ 126 ، شذرات الذهب 1/ 347.

2 ـ أحمد بن صالح المصرى ـ الإمام الفقيه الثقة (175 ـ 248 هـ) له ترجمة فى : تاريخ بغداد 4/ 195 ، ميزان الاعتدال 1/ 102 .

قال ابن وهب : لقيت ثلاثمائة عالم وستين عالماً ، ولولا مالك والليث لضللت فى العلم !

فماسبب ذلك ؟

خاصة بعد مابلغ الرجل فى المرويات وعدد الشيوخ مابلغ ؟ وعلى أى معنى يمكن فهم هذا الضلال ؟ وما المخرج ؟

ولا شك أن السبب عائد إلى نواحى الاختلاف فى روايات الأحاديث من جهة ، ومن جهة فقد كشف ابن وهب نفسه عن السبب ، إذ قال : كنت أظن أن كل ماجاء عن النبى - ﷺ - يفعل به .(1)

وسئل مرة ، كيف ذلك ؟ قال : أكثرت من الحديث فحيرنى ، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث فيقولان : خذ هذا ، ودع هذا .(2)

ولهذا فإنه يخشى على من لم يعلم مقاصد الأحاديث وفقهها من الضلالة والفتنة ، والمخرج : أن يكون للطالب شيخ بصير ، ومرشد حكيم ، تكون مهمته بعد الحفظ والاتقان والرواية ، تمييز مايعمل به ممالايعمل به ، والتعرف إلى أبعادها ، وتأويلها ، وناسخها من منسوخها ، كما هو صنيع ابن وهب حين أكثر من الأحاديث فحيرته ، عرض محفوظاته على مالك والليث .

ولأهمية أن يكون للطالب شيخ ، قال أحمد للميمونى(3) : إياك أن تتحدث فى مسألة ليس لك فيها إمام .(4)

---

1 - انظر : هذه الأقوال فى مصادر ترجمة ابن وهب ، وفى الجرح والتعديل 1/ 22 ، تاريخ بغداد 3/ 7 ، سير أعلام النبلاء 8/ 136 ، 9/ 225 ، تهذيب التهذيب 6/ 72 .

2 - ترتيب المدارك 1/ 427 .

3 - الميمونى : عبد الملك بن عبد الحميد ت 274 هـ ، حافظ ثقة ، صحب الإمام أحمد وأخذ عنه ، وثقه النسائى ، تهذيب التهذيب 6/ 400 .

4 - سير أعلام النبلاء 11/ 296 .

وأورد الخطيب [1] بسنده إلى أبى نعيم [2] قال : كنت أمر على زفر بن الهزيل [3] من كبار أصحاب أبى حنيفة ، وهو محتب [4] فيقول : ياأحول ، تعال حتى أغربل لك أحاديثك ، فأريه ما قد سمعت ، فيقول : هذا يؤخذ به ، وهذا لايؤخذ به ، هذا ناسخ وهذا منسوخ . [5]

من تأمل هذا غاية التأمل انتفع به غاية النفع وعلم أهمية الرد إلى العلماء خاصة إذا ماعرفنا قدر الأئمة ، ابن وهب والميمونى وأبى نعيم ، وهم ممن جمع بين الحفظ والفقه ، إلا أن هذا لم يغن عن الشيوخ حتى وصل الأمر بالإمام أحمد أن يحذر الميمونى ، وهو كما وصف فقيه البدن ، وكان الإمام أحمد يكرمه ويفعل معه مالا يفعله مع غيره ، ويقول : صحبت أحمد على الملازمة .

ومع أهمية الشيخ والاختلاف إليه ، وأن هذا كان أمراً شائعاً بين أئمة الإسلام ، فإنه ينبغى أن يدرب المرء نفسه على الفهم ، فيكون جامعاً بين الحفظ ودراية مسائل الحديث ، وفيما تقدم دليل على حاجة الحفاظ إلى الفقه ، وأن الرواية لاغنى لها عن الدراية ، وأن الفهم أجل من الحفظ ، وأن تفسير الحديث خير من سماعه ، وأن الرياسة فى العلم بلا دراية رياسة نذلة .

قال مالك لابنى أخته : أراكما تحبان هذا الشأن ، وتتطلبانه - يعنى رواية الحديث .

قالا : نعم ، قال : إن أحببتما أن تنتفعا وينفع اللّه بكما ، فأقلا منه وتفقها . [6]

1 - أحمد بن على بن ثابت الخطيب ، البغدادى (392 - 463 هـ) الإمام صاحب المصنفات المفيدة ، له ترجمة فى : اللباب 1/ 453 ، وفيات الأعيان 1/ 92 ، سير أعلام النبلاء 18 / 270 ، تذكرة الحفاظ 3/ 1135 ، شذرات الذهب 3/ 311 .

2 - الفضل بن دكين عمرو بن حماد ت 218 هـ ثقة ثبت - تقريب التهذيب 2/ 110 .

3 - زفر بن الهزيل ، موصوف بالحفظ والإتقان ، ممن جمع بين العلم والعمل ، كان يدرى الحديث ويتقنه ويقول : من قعد قبل أوانه زل ، ت 158 هـ له ترجمةفى : طبقات الشيرازى 40 ، وفيات الأعيان 2/ 317، سير أعلام النبلاء 8/ 38 ، لسان الميزان 2/ 476 ، شذرات الذهب 1/ 243 .

4 - احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقه بثوب - معجم مقاييس اللغة 2/ 132 .

5 - الفقيه والمتفقة 2/ 83 ، سير أعلام النبلاء 8/ 40 .

6 - الفقيه والمتفقه 2/ 80 ، ترتيب المدارك 1/ 149 .

فمن جمع بين الأمرين فأخذ بهما معاً ، وضم إلى خبرته الحديثية ، معرفة فقهية ، وعلم مايقبل ومايرد ، ومايصلح للعمل مما لايصلح ، فإن العلم هو الفهم والبصر ، وليس الإكثار والحفظ فقط ، كذلك لاغنى للفقيه عن الحديث ، إذ هو مادته وأساسه الذى يبنى عليه فقهه ، وزاده الذى يعتمد عليه ، ورايته التى ينطلق من خلالها .

وقد عبر غير واحد من أهل العلم قال : لو كنت قاضياً لحبست كلا الرجلين ؛ من يطلب الحديث ولايطلب الفقه ، ومن يطلب الفقه ولايطلب الحديث .

وقالوا : انظروا إلى الأئمة المجتهدين ، كيف طلبوا الحديث مع الفقه ولم يكتفوا بأحدهما .[1]

فهما معاً يكملان إذا كملا ، وينقصان إذا نقصا .

بناء وأساس ، أمران متلازمان ، لايسد أحدهما مسد الآخر ولايقوم مقامه ، ولاقيمة له بدونه .

كل محدث ليس له حظ من الفقه فهو على شفى هلكه ، فالحديث مضلة إلا للفقهاء

ومن الأمور الهامة فى هذا الصدد ، التحذير من الاعتماد على الكتب وحدها ، والأخذ منها بدون وعى أو تمحيص ، والاكتفاء بها وإفتاء الناس بما فيها ، وأن ينادى الإنسان على نفسه بالعلم بمقدار مالديه من كتب ، يزن نفسه ويرفع سعره بعدد كتبه .

فالكتب تحمل أقوالاً عدة ، ربما فى المسألة الواحدة ، والاختيار منها صعب ، وفى التمييز بينها مشقة ، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول منها فقد ضل وأضل ، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من عالج الناس كلهم بما فى كتب الطب دون نظر إلى حالهم وطبيعة عللهم .

قال سحنون [2] : إنى لأحفظ مسائل ، منها مافيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من

1 ـ الميزان الكبرى 1/ 57 .

2 ـ عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب ت 240 هـ ، راية المذهب المالكى ومسنده ، وسحنون اسم طائر ، لقب به لحدة ذهنه ، طبقات الشيرازى 156 .

العلماء ، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب حتى أتخير ، فلم أُلام على حبس الجواب؟[1]

وأورد الخطيب قال : قيل ليحيى بن معين [2] : أيفتى الرجل من مائة ألف حديث ؟ قال لا : ومن مائتى ألف ؟ قال : لا ، ثلاثمائة ألف ، قال : لا ، خمسمائة ألف ؟ قال أرجو !

قال الخطيب : وليس يكفيه إذا نصب نفسه للفتيا ، أن يجمع فى الكتب ماذكره يحيى دون معرفته به ونظره فيه ، وإتقانه له ، فإن العلم هو الفهم والدراية ، وليس الإكثار والتوسع فى الرواية ولولا ضرورة التأمل والتبصر لساغ لكل من جمع جملة من الأحاديث أن يجعل نفسه قاضياً وحاكماً .[3]

وقال أحمد : إذا كان عند الرجل الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ـ ﷺ ـ ، واختلاف الصحابة والتابعين فلا يجوز أن يعمل بما شاء ويتخير فيقضى به ويعمل به حتى يسأل أهل العلم مايؤخذ به فيكون يعمل على أمر صحيح .[4]

وذكر لواحد من الحكماء أن فلاناً جمع كتباً كثيرة ؟ فقال : هل فهمه على قدر كتبه ؟ قالوا : لا قال فما صنع شيئاً ، ماتصنع البهيمة بالعلم ؟[5]

فالأخذ من الصحف والكتب غير كاف بالمرة ، لذا جاء تحذير العلماء ورفضهم الأخذ عن الوراقين ، وقالوا : لاتحملوا العلم عن صحفى ، ولاتأخذوا القرآن عن مصحفى .[6]

---

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 156 .

2 ـ يحيى بن معين بن عون ، الإمام الناقد سيد الحفاظ (158 ـ 233 هـ) ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 354 ، تاريخ بغداد 14/ 177 ، طبقات الحنابلة 1/ 402 ، تاريخ الثقات للعجلى 475 ، سير أعلام النبلاء 11/ 71 ، وفيات الأعيان 6/ 139 ، تهذيب التهذيب 11/ 280 ، تذكرة الحفاظ 2/ 429 ، ميزان الاعتدال 4/ 410 .

3 ـ الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع 2/ 174 .

4 ـ الفقيه والمتفقه 2/ 159 .

5 ـ سير أعلام النبلاء 11/ 496 ، أعلام الموقعين 1/ 44 .

6 ـ الجرح والتعديل 1/ 311 ، فتح المغيث 2/ 232 .

وتأمل ماحكاه عبد الوارث بن سعيد [1] عن ثلاثة من أقطاب العلم في زمانه.

قال: قدمت مكة فوجدت بها أبا حنيفة، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة [21] فسألت أبا حنيفة، فقلت: ماتقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ قال: البيع باطل والشرط باطل، ثم أتيت ابن أبي ليلى فسألته، فقال البيع جائز والشرط باطل، ثم أتيت ابن شبرمة، فسألته فقال: البيع جائز والشرط جائز...

فقلت: ياسبحان الله! ثلاثة من فقهاء العراق اختلفتم علي في مسألة واحدة؟

فأتيت أبا حنيفة فأخبرته فقال: ماأدري ماقالا... ثم ساق حديثاً بسنده، أن الرسول - ﷺ -، «**نهى عن بيع وشرط**». [3]، البيع باطل والشرط باطل.

ثم أتيت ابن مأبي ليلى فأخبرته، فقال: ماأدري ماقالا، وساق حديثاً بسنده إلى عائشة - رضي الله عنها -، قالت: «**أمرني رسول الله - ﷺ - أن أشتري بريرة [4] فأعتقها**» [5] البيع جائز والشرط باطل.

ثم أتيت ابن أبي شبرمة فأخبرته، فقال ماأدري ماقالا، وساق هو الآخر بسنده إلى جابر بن عبد الله [6] - رضي الله عنه -، قال: «**بعت النبي - ﷺ - ناقة وشرط لي**

---

1 - عبد الوارث بن سعيد ت 180 هـ، ثقة حجة - تهذيب التهذيب 6/ 441.

2 - ابن شبرمة: عبد الله بن شبرمة بن حسان القاضي الفقيه ت 144هـ، تهذيب التهذيب 5/ 250.

3 - أورده الطحاوي في شرح معاني الآثار 4/ 46، بلفظ: نهى عن بيع وسلف، وعن شرطين في بيعة، قال الحافظ: في إسناده مقال وهو قابل للتأويل، فتح الباري 5/ 315.

4 - بريرة مولاة عائشة، لها ذكر في الإصابة 4/ 251، تهذيب التهذيب 12/ 403، سير أعلام النبلاء 2/ 297.

5 - الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط 3/ 248، والطحاوي في شرح معاني الآثار 4/ 42، 46.

6 - جابر بن عبد الله الأنصاري، مفتي المدينة، وممن شهد بيعة الرضوان ت 78هـ، له ترجمة في: تذكرة الحفاظ 1/ 41، سير أعلام النبلاء 3/ 189، تهذيب التهذيب 2/ 42.

حملاتها إلى المدينة» [1] ، البيع جائز والشرط جائز . [2]

فإذا الأمر بهذه الكيفية من الحيرة ـ والمتصدون له بهذه الدرجة ، فهل يتصور أن الأمر سهل ، وهل يليق بمن لم يتبحر فى العلم أن يقدم على القول فى دين اللّه قبل أن يستوفى ماورد فى المسألة الواحدة ؟ وهل يكتفى بما فى الكتب فقط ؟

1 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 3/ 248، وأحمد فى مسنده 3/ 299 .

2 ـ القصة بتمامها وطرق أسانيدها ـ أوردها الحاكم فى معرفة علوم الحديث " 122 ـ 128 " ، وانظرها فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف 115 ـ 117 ، ومجمع الزوائد 4/ 85 ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط .

جنة العالم.

جنة العالم ، نصف العلم : لاأدرى.

وماذاك إلا لأن التوقف عن الفتيا ، وعدم التسرع بالوقوع فيها ، والتحرز منها ماوجد العالم إلى ذلك سبيلاً ، سمة من سمات علماء الآخرة ، لاسيما إذا سئل عما يشك فيه ، أو عما يظنه باجتهاد ، أو تخمين.

فإن توقفه والحالة هذه مالم يكن متحققاً من الإجابة ، مستنداً إلى نص من كتاب أو سنة ، أو إجماع ، أو قياس ظاهر أولى وأسلم ، وله أجره الذى لايقل عن أجر من نطق صواباً ، خاصة مع استحضار النية عند التوقف ، لأن الاعتراف بعدم العلم شديد على النفس ، ثقيل ، فإن تحمله فى الدنيا ، وإلا فكما قيل : من أخطأ لا أدرى فقد أصيبت مقاتله.

أخبر ابن عباس ، أن رجلاً أجنب فسأل ، فأمر بالغسل فمات ، فذكر ذلك للنبى - ﷺ - فقال : **« مالهم ؟ قتلوه ! قتلهم الله ! ثلاثاً ، فقد جعل الله الصعيد ، والتيمم طهوراً »**. (1)

فانظر خطورة الإقدام على الفتوى بجهل ، وكيف عرضت صاحبها للقتل ، وتعلم من نبيك وكن وريثه.

ذلك أنه لما جاء رجل إليه - ﷺ - ، فقال : يارسول الله أى البقاع خير ؟ قال : " **لاأدرى** " ، **فقال** : أى البقاع شر ؟ قال : " **لاأدرى** " قال : سل ربك ، فأتاه جبريل فقال : " **ياجبريل أى البقاع خير . ؟ قال : " لاأدرى " ، فقال : " أى البقاع شر ؟ قال : " لاأدرى ، فقال : " سل ربك " ، فانتفض جبريل انتفاضة كاد يصعق منها محمد - ﷺ -** ،

1 - الحديث أخرجه أبو داود فى سننه 1/ 125 ، وابن ماجة فى سننه 1/ 189 ، وابن حبان فى صحيحه 1/ 304، انظر الإحسان ، وهذا لفظه ، وابن خزيمة فى صحيحه 1/ 138 ، والحاكم فى المستدرك 1/ 165 ، والدارقطنى فى سننه 1/ 190، وابن حبان كما فى موارد الظمأن 76 ، والحديث ضعفه البوصيرى للانقطاع الذى فيه ، إذ هو من إرسال عطاء بن أبى رباح - مصباح الزجاجة 1/ 137.

وقال : " ماأسأله عن شيء " فقال الله ـ عز وجل ـ لجبريل : " سألك محمد أى البقاع خير فقلت : لاأدرى، وسألك أى البقاع شر فقلت : لاأدرى فأخبره أن خير البقاع المساجد ، وأن شر البقاع الأسواق . "[1]

وقد ثبت توقف النبى ـ ﷺ ـ فى غير هذا لما قال : **" ماأدرى أعزير نبى أم لا ؟ ومأأدرى أتبع ملعون أم لا ؟ "**[2]

من هنا بات الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مابين مجيب ومتوقف ، وكان من الفقهاء من يقول : لاأدرى أكثر مما يقول أدرى ، ومنهم من كره الجرأة على الفتيا والحرص عليها والسعى إليها ، والمسارعة نحوها ، والإكثار منها ، إذ ليس هذا الأمر لمن ود أن الناس احتاجوا إليه وإنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه .

فعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ، قال : أيها الناس من سئل عن علم يعلمه فليقل به ، لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول لما لايعلم ، الله أعلم .

وأن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال لنبيه ـ ﷺ ـ : **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾**[3]

وسئل الشعبى عن مسألة فقال : هى زباء[4] هلباء ذات وبر ، لاأحسنها ، ولو أُلقيت على بعض أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، لأعضلت به ، وإنما نحن فى العنوق ، ولسنا فى النوق

1 ـ الحديث أخرجه أحمد فى مسنده 4/ 81 ، والبيهقى فى سننه 7/ 50 ، والهيثمى فى مجمع الزوائد 2/ 6 ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عبيد بن واقد القيسى ، وهو ضعيف ، والحديث عند مسلم فى صحيحه مختصراً بلفظ : أحب البلاد ، إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها 1/ 464 ، ومثله عند البزار 1/ 206 ، كما فى كشف الأستار ، وأورده ابن عبد البر بتمامه فى جامع بيان العلم 2/ 52 .

2 ـ الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب السنة 4/ 218 ، والحاكم فى مستدركه 3/ 450 ، وصححه ، وأقره الذهبى ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله 2/ 52 .

3 ـ ص : 86

4 ـ زباء ذات وبر : يقال للداهية الصعبة ، والزبب كثرة الشعر ، يعنى أنها جمعت بين الشعر والوبر ـ النهاية 2/ 293 .

فقال له أصحابه : قد استحيينا لك ، مما رأينا منك ! فقال : ولكن الملائكة المقربين لم تستح حين قالت : ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [1]، [2]

وهذا مالك إمام دار الهجرة ، نجم السنة كما وصفه الشافعى : إذا جاء الأثر فمالك النجم . [3]

ولم لا ؟ وخزانته العلمية كما وصفت بعد دفنه سبع صناديق من حديث ابن شهاب ، ظهورها وبطونها ملأى ، وعنده صناديق من كتب أهل المدينة ، مما جعل الناس يقرؤن ويقولون : رحمك الله ياأبا عبد الله ، لقد جالسناك الدهر الطويل فما رأيناك ذاكرت بشىء مما قرأناه [4]

ثم إن مالكاً يسأل مع هذا مسائل كثيرة ، ويأتيه الناس ويقول فى أكثرها : لاأدرى ، ولم يكن بالمدينة بعد التابعين من يشبهه علماً وفقهاً ،

قال ابن وهب : لو شئت أن أملأ الواحى من قول مالك لا أدرى لفعلت . [5]

ولما جاءه رجل وقال ياأبا عبد الله : جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حملنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها ، قال : سل ، فسأله الرجل عن المسألة ، فقال : لاأحسنها ، قال : فبهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شىء ، فقال أى شىء أقول لأهل بلدى إذا رجعت إليهم ؟ فقال : تقول لهم : قال مالك : لاأحسن .

وهذا عقبة بن مسلم [6] يقول : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً فكان كثيراً مايسئل فيقول : لاأدرى ، ثم يلتفت إلى فيقول أتدرى مايريد هؤلاء . . ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .

---

1 ـ البقرة : 32 .
2 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 52 .
3 ـ الجرح والتعديل 1/ 14 .
4 ـ ترتيب المدارك 1/ 149 .
5 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 108 ، جامع بيان العلم 2/ 54 .
6 ـ عقبة بن مسلم التجيى ت 120 هـ تقريباً ، حدث عن عدد من الصحابة ، تهذيب التهذيب 7/ 249 .

وهذا التوقف ثابت لكثير من الفقهاء ، يطول ذكرهم .

وكان منهم القاسم بن محمد ، إذ قال لمن سأله : لا أحسنه ، فجعل الرجل يقول إني رفعت إليك ! لاأعرف غيرك ! فقال القاسم : لاتنظر إلى طول لحيتي ، وكثرة الناس حولي ، والله لاأحسنه .

فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : ياابن اخي إلزمها فوالله مارأيتك في مجلس أقل منك اليوم .

فقال القاسم : والله لأن يقطع لساني ، أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به . [1]

ولم يكن هذا حكراً ـ أو خاصاً بعلماء الشريعة من حديث وفقه ، بل تعداه إلى علماء اللغة ، فكانوا على الدرب ، وأخذوا بالتالي بما أخذ به المحدثون والفقهاء ، ذلك أنه كما قال أبو عمر الزاهد [2] كنت في مجلس أبي العباس ثعلب ، فسأله سائل عن شيء فقال : لاأدري ، فقال له : تقول لاأدري وإليك تضرب أكباد الإبل ؟ وإليك الرحلة من كل بلد ! ، فقال له ثعلب : لو كان لأمك بعدد لاأدري بعراً لاستغنت[3]

وثعلب كما وصف ، فاروق النحويين وأصدقهم لساناً ، وأعظمهم شأناً ، وأصحهم علماً، وأوسطهم حلماً ، وأتقنهم حفظاً ، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا .

وسر هذا أن المفتي موقع عن الله ، أمره ونهيه ، وأنه داخل بين الله والناس ، ومن ثم فهو موقوف ومسئول ، ومن عرض نفسه للفتيا ، فقد عرض نفسه لأمر عظيم .

---

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 53 .

2 ـ أبو عمرو الزاهد ـ الإمام الأوحد الملقب بغلام ثعلب (261 ـ 345 هـ) ، من أقواله : ترك قضاء حقوق الإخوان مذلة ، وفي قضاء حقوقهم رفعة ـ له ترجمة في تاريخ بغداد 2/ 356 ، طبقات الحنابلة 7/ 67 ، وفيات الأعيان 4/ 329 ، تذكرة الحفاظ 3/ 873 ، سير أعلام النبلاء 15/ 508 .

3 ـ تاريخ بغداد 5/ 209 .

على الحق الخالص نور ، ولكلام النبوة نور وأدلة تؤيده ، وسمات تظهره ، فكل كلام تظهر عليه ملامحه .

كذلك لزيغات أهل البدع والنفاق ، سمات وملامح ، فوجب التفريق والإنصاف .

قال معاذ ـ رضى اللّه عنه ـ : إياكم وماابتدع فإن كل بدعة ضلالة ، وإياكم وزيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق ممن جاء به فإن على الحق نوراً ، قالوا : وكيف زيغة الحكيم ؟ قال : هى الكلمة تروعكم وتنكرونها ، وتقولون ماهذا ؟ فاحذروا زيغته ، ولا يصدنكم عنه ، فإنه يوشك أن يفيىء وأن يراجع الحق ، وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة ، فمن ابتغاهما فقد وجدهما . (1)

وعنه قال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التى تقول ماهذه ؟ ولا ينبئنك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع ويلقى الحق إذا سمعه ، فإن على الحق نوراً . (2)

معادلات لاشك صعبة ، لكن يفهمها الرجال المخلصون .

الحذر من زيغة الحكيم ، فالحكيم قد يزيغ ، فضلاً عن الوقوع فى البدع والنفاق .

وجوب قبول الحق وتلقيه ممن جاء به ، وكذا البحث عنه ، والذهاب إليه ، وعدم انتظاره ـ فقد يطول .

كل علم يسأل عنه أهله .

يرتب هذا ـ أمراً آخر ـ التمييز بين العلماء وأدعياء العلم ، المتشبهين بهم ، فتعرف فضل العلماء ومراتبهم ، وحقوقهم ، وتحذر ممن مسخوا الحق وزيفوه وشوهوا العلم بتعمد ، كما تحذر الخلط بين الفريقين ، وألا يجرنا موقفنا من المتشبهين إلى سحبه وتعميمه

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 111 .

2 ـ السنن الكبرى للبيهقى 10/ 210 ، سير أعلام النبلاء 1/ 457 ، الحلية 1/ 233 .

على غيرهم أو فى كل أحوالهم .

خطورة الاستخفاف بالعلم وأهله .

قال ابن المبارك : من استخف بالعلماء ذهبت آخرته .[1]

وسئل مرة بحضرة ابن عيينة عن مسألة فقال : إنا نهينا أن نتكلم عند أكابرنا .[2]

وجاءه رجل من بنى هاشم ليسمع منه ، فأبى أن يحدثه ، فقال الشريف لغلامه : قم بنا فإن أبا عبد الرحمن لايرى أن يحدثنا .

فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه ، فقال ياأبا عبد الرحمن : تفعل هذا ولا ترى أن تحدثنى ؟

فقال : أذل بدنى ولا أذل الحديث .[3]

فانظر هذا ، وكن على يقين أن من استخف بالعلم ، استخف به العلم .

قالها شعبة بن الحجاج ، لجابر الجعفى [4]أحد الشيوخ الثقات العدول المأمونين حتى قال سفيان : مارأيت أروع منه فى الحديث ، وقال عنه شعبة : صدوق ، ماشككتم فى شىء ، فلا تشكوا أن جابر الجعفى ثقة .

ثم قال الشعبى : لن تموت ياجابر حتى تكذب على رسول الله ـ ﷺ ـ .

قال إسماعيل ابن أبى خالد [5] فما مضت الأيام والليالى حتى اتهم بالكذب ، وقد أطال الذهبى الكلام عن جابر ، وعن أسباب هذا التحول البغيض والأمر فيه كما قال خلف بن سالم [6] : من استخف بالحديث استخف به الحديث .[7]

نســــأل اللــــه السلامــــة . . .

1 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 408 .

2 ـ المصدر السابق 8/ 420 .

3 ـ المصدر السابق 8/ 404 .

4 ـ جابر بن يزيد الجعفى ، له ترجمة فى : المجروحين 1/ 208 ، ميزان الاعتدال 1/ 279، تهذيب التهذيب 1/ 46 .

5 ـ إسماعيل ابن أبى خالد ـ كوفى تابعى ثقة ت : 146 هـ ، تهذيب التهذيب 1/ 291 .

6 ـ خلف بن سالم المخرمى ـ أبو محمد ، ثقة حافظ ، صنف المسند ، تقريب التهذيب 2/ 225 .

7 ـ المدخل إلى كتاب الإكليل 63 .

الفصل السادس

مزرعة النوائب

● أجمع الحكماء والعقلاء على أن النعيم لايدرك إلا بترك النعيم ، وأن من رافق الراحة فارق الراحة فى دار النعيم والراحة ، وأن شجر المكاره يثمر المكارم ، وأن من تعجل بالشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، ولن تنال ماتريد إلا بترك ماتشتهى ، ولن تبلغ الذى تحب إلا بترك ماتكره.

عيشها نكد ، وصفوها كدر .

وشعب الدنيا كثيرة ، وحظوظها وفيرة .

وكل ما للإنسان فيه حظ قبل الموت فهو من الدنيا ، خاصة إذا فنى واعتراه الزوال والاضمحلال ، ولم يسلم من عيب ، وأعقب ندماً وحسرة بزواله ، أو بذهاب الإنسان عنه .

أما إذا بقى وسلم من العيب ، وأعقب فرحاً وسروراً فى العاجل براحة النفس ، وسكينة القلب ، وهدوء البال .

وفى الآجل بالجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، فهو وإن كان فى الدنيا فليس منها .

وحظوظ الدنيا مع تشعبها ووفرتها فبين شعبها نوع تتابع وترابط وتنوع ، إذ يدعوا بعضها بعضاً ، ويشد بعضها بعضاً .

ويندرج تحتها جميع المهلكات والفتن ؛ ويجمعها « فتنة المحيا والممات » من جاه ، وظلم ، واستبداد ، وخلاف ، وكمال وهمى ، ومال ، وولد ، وحريم ، وشهوة ، وشبهة ، وجهل ، وجهالات ، ضلال ، وضلالات . . وكل ما يعرض للإنسان مدة للإنسان مدة حياته من فتن ، والتى آخرها ما يتعلق بأمر الخاتمة ، كآخر عهد للمرء بالدنيا .

تعريف فتنة الممات .

هى الفتنة عند الموت ، وقد أضيفت إليه لقربها منه ، ويكون المراد بفتنة المحيا ، ما قبل الموت .

ويجوز أن يراد بفتنة الممات : فتنة القبر .

وقد ورد هذا صريحاً فى السنة : « **إنكم تفتنون فى قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال** » (1)

---

1 ـ جزء من حديث تقدم تخريجه 24 .

وقيل أراد بفتنة المحيا : الابتلاء مع فقدان الصبر .

وبفتنة الممات : السؤال فى القبر مع الحيرة ، وهذا من العام بعد الخاص ، لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات ، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا . [1]

الدور التى يمر بها الإنسان

الدورالتى يمر بها الإنسان ثلاثة :

دار دنيا ، وأخرى ، وبينهما برزخ .

والعاقل من يعطى كل دار ما يناسبها ، ويعمل لها بمقدار مكثه وبقائه فيها .

فيترك الدنيا قبل أن تتركه ، ويعمر قبره قبل أن ينتقل إليه ، ويرضى ربه قبل لقائه ، والعمل لكل دار بما يناسبها هو ما دلت عليه الشرائع ، والفطر السليمة ، والعقول الصحيحة ، وإن كان الواقع بخلافه ، فما سنتركها ، انهمكنا فيها ، وعشنا لها ، وخربنا بالتالى ما سننتقل إليها .

ولذلك يهولون الأمر ؛ أمر المطلع ، والمرتقى صعب فنندم ولا ينفع ، ونتمنى الرجوع إلى الدنيا لتدارك الأمر والعمل على التصحيح .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ [2]

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [3]

ولو أبصر المرء حقيقة الأمر لتدبر ، ولقال لنفسه ها أنت فى الأمنية فافعلى قبل أن

---

1 ـ فتح البارى 2/ 319 .

2 ـ سورة المؤمنون آية 99، 100 .

3 ـ سورة فاطر آية 37 .

يحال بينك وبين الإجابة ، ثم يعالجها بالتخيير والإلزام ، كما قال إبراهيم التيمى[1] لما تمثل الأمر على هذا النحو :

" مثلت نفسى فى الجنة ، آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ومثلت نفسى فى النار ، آكل من زقومها وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها .

ثم قلت : يا نفسى أى المنزلتين تحبين ؟

قالت : أحب أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً فأدخل الجنة .

قال : ها أنت فى الأمنية فافعلى " .

فمن يقوم بالدور ؟

وإبراهيم بن يزيد التيمى هو الذى قال لجيله : "كم بيننا وبين القوم ؟ أقبلت عليهم الدنيا فهربوا ، وأدبرت عنكم فاتبعتموها" [2]

فما قوله لأبناء جيلنا ؟

قدر الدنيا

من أعظم ما وصفت به الدنيا ، أنها زائلة وفانية .

فهى عرض ، لابقاء له ولا استقرار .

قال الفضيل : " لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى " ؟

---

1 ـ إبراهيم بن يزيد التيمى ، الإمام الفقيه ـ العابد الكوفى الثقة ، كبير القدر ت 92 هـ ، كان يقول : ما عرضت قولى على عملى إلا خفت أن أكون مكذباً ـ وقال : إذا رأيت الرجل يتهاون فى التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه ، طبقات ابن سعد 6/ 28 ، سير أعلام النبلاء 5/ 60 ، تهذيب التهذيب 1/ 176 .

2 ـ سير أعلام النبلاء 5/ 61 .

ومع فنائها فهى قليلة ، مهينة ، لا تساوى شيئاً .

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ (1) .

وهى سجن المؤمن ، مضرة بالآخرة ، إذا كانت هى الغاية ، لا تصفو لمسلم ، ما إن تضرب بيدك فى ركن من أركانها إلا ويسبقك الفجار والأشرار .

فى طلبها مذلة للنفوس ، لا تصيب منها شيئاً إلا نقص من درجتك غداً عند الله .

وهذا من شؤمها وبلائها .

ففى السنة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى إناء الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة** » (2)

وقال حكيم الأمة : " من هوان الدنيا عند الله ، أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها " .

وقال المسيح عليه السلام : « **يا معشر الحواريين ، ارضوا بردىء الدنيا كما رضى أهل الدنيا بردىء الدين** » .

من ثمَّ أجمع الحكماء والعقلاء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم ، وأن من رافق الراحة فارق الراحة فى دار النعيم والراحة ، وأن شجر المكاره يثمر المكارم ، ومن تعجل بالشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، ولن تنال ما تريد إلا بترك ما تكره .

قال عيسى عليه السلام : « **وإن من خبث الدنيا ، أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا** » .

هذا قدر الدنيا عند الله وهى له ، خلقاً وملكاً وتصريفاً ، فما ينبغى أن يكون قدرها عندك وهى ليست لك ؟

---

1 ـ سورة النساء آية 77 .

2 ـ الحديث أورده ابن رجب فى جامع العلوم والحكم 278 ، وحكم بصحته .

طلاب الدنيا :

لو أبصر المرء حقيقة الدنيا لعدها حقيرة ، ولهانت عليه وخرج منها لا عليه ولا له ، إلا أن الأمر بخلاف ذلك .

فقد أخبرت السنة النبوية أن طلاب الدنيا فى ازدياد مستمر ، وأن من الناس من يقدمها ، بل يؤثرها على دينه ، وربما تنازل عن دينه بالشيء اليسير منها .

قال ـ ﷺ ـ « **ليغشين أمتى من بعدى فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل** »(1)

وعند أحمد كما فى المسند : « **يبيع أقوام أخلاقهم بعرض من الدنيا يسير . . . أو بعرض من الدنيا** » ، قال الحسن : والله لقد رأيناهم ، صوراً ولا عقول ، أجساماً ولا أحلام ، فراش نار وذباب طمع ، يغدون بدرهمين ، ويروحون بدرهمين ، يبيع أحدهم دينه بثمن العنز . (2)

أرأيت ؟ كيف تم البيع والشراء ؟

وما تم هذا إلا بسبب حب الدنيا ، والاتفاق على حبها ، وتلك فضيحة . اصطلحنا فى حب الدنيا ، والقوم حينما يصطلحون يفتضحون ، اصطلحوا فافتضحوا .

وهذا كله من البلاء والفتن .

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن .

إن طلب الدنيا خروج بالإنسان عن مهمته التى خلق لها ، ووضع للأمر فى غير موضعه .

فوجب الرضا منهما بالقليل ، وارتفاع الهمة عنها ، والزهد فيها .

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ❖ فسوف لعمرى عن قليل يلومها

---

1 ـ أخرجه الحاكم فى المستدرك 4/ 438 ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

1 ـ أخرجه أحمد فى المسند 4/ 372 .

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ❖ وإن أقبلت كانت كثيراً همومها .

قال بعض الحكماء : " كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وحل " .

وقال يحيى بن معاذ : " الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيىء فى طلبه فيأخذك " .

يا مخــدوعـا قــد فـتــن ❖ يا مغــروراً قــد غبــن

من لك إذا سـوى عليك اللبن ❖ فى بيــت قــط ما سكــن

سلــب الـرفيــق نـذيــر ❖ والعــاقل فـطــن

*****

أنــت فـى دار شتــات ❖ فتأهــب لشتــاتــك

واجعــل الدنيــا كيــوم ❖ صمــته عن شهــواتـك

وليكــن فطــرك عنــد ❖ الله فى يــوم وفاتــك

*****

إياك والدنـيا فإن حــب الدنــيا مبتــوت ❖

واقنـع منهــا باليســير فما يعــز القــوت

ياقــوت النـدم يغنــى عن القــوت ❖

واحذر منها فإنها أسحر من هاروت وماروت (1)

فإن صرفها الله عنك فلكرامتك عليه ، وإن زواها عنك فمن باب اللطف بك ، واعلم أن نعمه عليك فيما صرف عنك ، أعظم من نعمته فيما صرف إليك . .

قال وهب : " إن الله ـ عز وجل ـ قال لموسى عليه السلام ، إنى لأزود أوليائى عن

1 ـ المدهش لابن الجوزى 242 .

نعيم الدنيا ورخائها ، كما يزود الراعى الشفيق إبله عن مبارك القرى ، وماذلك لهوانهم على ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى موفراً ، لم أعجل لهم شيئاً فى الدنيا لم تكمله " . [1]

ويشهد لهذا ما ثبت فى السنة « **إن الله إذا أحب عبداً حماه عن الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء . .** » [2]

وقال الفضيل : " ليست الدنيا دار إقامة ، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة ، آلا ترى كيف يزويها عنه ، ويمررها عليه بالجوع ، بالعرى ، بالحاجة ؟ كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها تسقيه مرة حضضاً [3] ، ومرة صبراً ، وإنما تريد بذلك ما هو خير له " . [4] .

مساومة :

قال بعض السلف : "ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الاخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً "[5] .

" اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر ، فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا ، فينتظمه ، ثم يزول معك أينما زلت [6]

قال عمر : لولا أن أن تنقص من حسناتى لخالطتكم فى لين عيشكم ، ولكن سمعت الله عير قوماً فقال : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ [7]

---

1 ـ جامع العلوم والحكم 278 .

2 ـ أخرجه الترمذى فى سننه 4/ 381 وقال : حسن غريب .

3 ـ عصارة شجر معروف مر المذاق يتداوى به ، ويشبه الصبر ، هامش سير أعلام النبلاء 8/ 435 .

4 ـ سير أعلام النبلاء 8/ 434 .

5 ـ الوابل الصيب 43 .

6 ـ المصدر السابق 43 .

7 ـ سورة الأحقاف آية 20 .

قد كانوا يملكون الطيبات إذا ، ولكنهم استنفذوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئاً ، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساباً ، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش ، أو حرام ، ومن ثَمَّ كانت لهم دنيا ، ولم تكن لهم آخرة ، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض ، بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله [1] .

هو إذاً من الرصيد ، إن أكثرت أو أقللت ، هو من رصيدك .

ولأن مفاتن الدنيا براقة خلابة ، ولأنها أنواع ، وضروب مؤثرة ، منها ما يتعلق بالعقيدة والسلوك ، أو بالنظام الاجتماعى . . فقد جاءت آيات القرآن ، وأحاديث النبى - ﷺ - مزهدة فيها ، وما تخوف النبى - ﷺ - على الأمة من شىء تخوفه من الدنيا ، أن تبسط عليها فيقع التنافس ويعقبه الهلاك ولابد .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[2]

وقال عمر - رضى الله عنه - " لا تفتح على قوم الدنيا إلا ألقى الله بينهم العداوة إلى يوم القيامة " .

نظرة القرآن إلى الدنيويين .

من خلال النظر فى آيات القرآن ندرك بعداً يجب تأمله :

صفة من يعتز أو يغتر بدنياه ، العامل لها ، ومن ثَّم ندرك حقيقة الافتتان بها ، من ذلك :

* مخالفة الميثاق مع الله ، والاعتماد على الدهاء ومواثيق الأرض ، ويترتب على ذلك قتل النفس ، وإخراج الناس من ديارهم ، والتعاون على الإثم والعدوان .

---

1 - فى ظلال القرآن 26/ 3264 .

2- سورة يونس آية 7، 8 .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (1)

* إهمال قواعد الإسلام وآدابه فى العلاقات والمعاملات ، وذلك بالتسرع فى الحكم، وأخذ الناس بالظن ، وعدم التثبت والتبين .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (2)

* الاستخفاف بالدين والتلاعب به ، ومثله كل من لا يجعل لدينه وقاره باتخاذه قاعدة حياته ، اعتقاداً ، وعبادة ، وخلقاً ، وسلوكاً ، وشريعة ، وقانوناً .

قال الله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾(3)

* الوقوف عند حد الحياة الدنيا ، وعدم إدراك أن الآخرة من ضرورات النظام الربانى ، ولذا فهم ينسون لقاء الله ولا يرجونه .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا

1 ـ سورة البقرة آية 83 ، 84 ، 85 ، 86 .

2 ـ سورة النساء آية 94 .

3 ـ سورة الأنعام آية 70 .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ (1)

وقال سبحانه : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٣٤ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾(2)

* كفر النعمة ، نعمة إرسال الرسول بالكتاب ، وهى نعمة كبرى يعجز الإنسان عن شكرها .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ (3)

﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (4)

* التولي والإعراض عن ذكر الله ، وعن القرآن ، والدعوة . . . ومن ثَمَّ عدم الانتفاع به ، وقد أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ وهو أمر لكل مسلم بإهانة من كان هذا حاله .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾(5)

* البغي والاعتداء والطغيان وتجاوز الحد ، والحق ، والهدى ، والجرى وراء الأهواء ، البدع .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾(6)

1 ـ سورة يونس آية 7 .
2 ـ سورة الجاثية آية 34، 35.
3 ـ سورة إبراهيم آية 2، 3.
4 ـ سورة النحل آية 106، 107 .
5 ـ النجم 29، 30.
6 ـ النازعات 37: 39 .

هذه بعض الأبعاد ندركها وندرك من خلالها صفات الدنيويين كما فى القرآن ، فلا تجلب لنفسك الغفلة عن عاقبة أمرك والزم الأدب ، وفارق حب الدنيا ، والهوى ، والغضب ، واعمل للسلامة منها ، فإن من أحب دنياه وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه .

هذا وجميع ما ورد فى الدنيا من ذم فإنما مرده إلى أفعال بنى آدم الواقعة فيها ، لاسيما إذا وقعت على غير الوجه الذى تحمد عاقبته ، وإنما وقع على ما تذم عاقبته ، لا أن الذم راجع إلى الزمان من الليل والنهار ، فإن الله جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً .

لذا وجب إحسان السير عليهما إلى الآخرة ، فهما مطيتان .

إنما الدنـيا إلى الجنـة والنـار طـريـق ❖

والليالى متجـر الإنسان والأيـام سـوق

كما أن الذم ليس عائداً إلى مكان من الأرض ، وما أودعه الله فيها ، فذلك كله من نعم الله تعالى على عباده ، ولهذا فسرت فتنة الدنيا بفتنة الدجال ، وهذا ثابت كما فى الصحيح فى دعاء النبى ـ ﷺ ـ « **اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ـ يعنى فتنة الدجال ـ وأعوذ بك من عذاب القبر** » [1]

وجاء التحذير من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، والمعنى بهجتها ، ونضارتها ، وحسنها .

قال ابن بطال : " فيه أن زهرة الدنيا ينبغى لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها ، وشر فتنتها ، فلا يطمئن إلى زخرفها ، ولا ينافس غيره فيها " .

وفيه أن الفقر أفضل من الغنى ، لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى ، والغنى مظنة الوقوع

---

1 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الدعوات : باب التعوذ من عذاب القبر 8/ 97 ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء : باب التعوذ من العجز والكسل 4/ 2079 .

فى الفتنة التى قد تجر إلى هلاك النفس غالباً ، والفقير آمن من ذلك . [1]

ففى الحديث : « **إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض** » قيل : ومابركات الأرض ؟ قال : « **زهرة الدنيا** » ، فقال رجل : هل يأتى الخير بالشر ؟ فصمت النبى ـ ﷺ ـ حتى ظننت أنه ينزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه ، فقال : **أين السائل** ؟ قال : أنا ، قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك ، قال : « **لا يأتى الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ،وإن ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم** [2] **إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ، فاجترت ، وثلطت ، وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع** » [3]

قال الحافظ : " يؤخذ منه أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير ، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه ، والإسراف فى إنفاقه فيما لم يشرع ، وإن كل شىء قضى الله أن يكون خيراً فلا يكون شراً ، وبالعكس ، ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له فى الانفاق فيه ما يجلب له الشر .

وفى الحديث مثلان : أحدهما : للمفرط فى جمع الدنيا ، المانع من اخراجها فى وجهها ـ أى الذى يقتل حبطاً .

والثانى : المقتصد فى جمعها وفى الانتفاع بها ـ وهو آكلة الخضر " .

قال الحافظ : " ويؤخذ من الحديث ، التمثيل لثلاثة أصناف : لأن الماشية إذا رعت الخضر للتغذية إما أن تقتصر منه على الكفاية ، وإما أن تستكثر ، الأول الزهاد ، والثانى إما أن يحتال على إخراج ما لو بقى لضر ، فإذا أخرجه زال الضرر ، واستمر النفع ، وإما

---

1 ـ فتح البارى 11/ 245 .

2 ـ يقتل حبطاً أو يلم : الحبط انتفاخ البطن من كثرة الأكل ، يقال حبطت الدابة تحبط حبطاً فأصابت = =مرعى طيبا فأمعنت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت .

3 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب ما يجد من زهرة الدنيا والتنافس فيها 8/ 112 ، ومسلم فى صحيحه ،زكاة ، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا 2/ 727 ، وابن ماجة فى سننه ، كتاب فتنة المال 2/ 1323 ، وأحمد فى مسنده 3/ 27، 21، 91 .

أن يهمل ذلك ، الأول العاملون فى جميع الدنيا بما يجب من إمساك وبذل ، والثانى العاملون فى ذلك بخلاف ذلك " [1]

نخلص إلى أن زهرة الدنيا والمال فتنة ، فخرجا عن كونهما خيراً حقيقياً لما يحدثانه من اشتغال ، وعدم إقبال على الله تعالى .

ومن مراجعة تراجم البخارى لأبواب كتاب الدعوات نلحظ أن الذم راجع إلى أفعال بنى آدم ، لا إلى الزمان ، ولا إلى المكان .

وإلى القارىء بعضاً منها .

التعوذ من جهد البلاء ، التعوذ من الفتن ، التعوذ من غلبة الدين ، التعوذ من فتنة المحيا والممات ، التعوذ من الجبن والكسل ، التعوذ من البخل ، التعوذ من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا ، التعوذ من فتنة الغنى ، التعوذ من فتنة الفقر ، التعوذ من فتنة الدنيا .

وفيها جميعاً دلالات كما تشعر الترجمة بقضايا واقعةفى الدنيا من أعمال العباد .

" محبة الدنيا محنة ، عيونها بابلية ، كم تفتح باب بلية ، ولا حيلة كحيلة ، من عين كحيلة ، كم أفردت من أردفت ، كم أخمدت من أخدمت ، كم فللت من ألفت ، كم افقرت من رافقت كم فارقت من رافقت كم قطعت من أقطعت ، فعلها فى التكدير كله هكذا ، فإن آثرن الصفا ، فما فى الزهد أذى ، وإن أردت القذى ، فألقى ذا . " [2] .

المال حواز القلوب :

فتن الدنيا كثيرة الشعب ، واسعة الأطراف ، والمال أعظم فتنها لأنه ألصق شىء بالدنيا ، وأظهر شىء فى مدلول الفتنة ، ولأنه لا غنى لأحد عنه ، ولابد منه ، فى وجوده آفة ، وفى فقده فاقة ، فى وجوده طغيان وترف ، وفى فقده آفات ، وغوائل ، فمن عرف غوائله أمكنه الاحتراز منه .

---

1 ـ فتح البارى 11/ 247، 248 .

2 ـ المدهش لابن الجوزى 154 .

والمال له صفة الميل ، والانحناء ، والانعطاف إلى الفناء ، فما سمى المال مالاً إلا لكونه مائلاً زائلاً .

قال الراغب : " ولذلك سمى عرضاً ، غير ثابت ، وعلى هذا دل قول من قال : المال قحبة تكون يوماً فى بيت العطار ، ويوماً فى بيت بيطار " . (1)

وأيضاً فالناس يميلون إلى صاحبه ، ومن لا عنده مال ، فعنه الناس قد مالوا ، فيميلون عنه عند فقده له .

ومع هذا فالمال سبيل الوصول إلى غايات ، ولا شك أن بلوغ هذ الغايات لاسيما ما فيه صلاح ، من الفروض والواجبات ، بل من مقاصد الشرع حفظه ، وتنميته ، لأنه سبب موصل إلى غاية ، ولأنه سبب بقاء المرء ، ومن عوامل قوامه ، وعليه تتوقف حياة الإنسان وحفظ المال إنما يكون بما يثبت أركانه ويقيم قواعده ، وحمايته من الاختلال الذى يمكن أن يطرأ عليه بعد وجوده .

والمال عصب الحياة ، وأحد الضرورات ، وهو داء أو دواء الأمة ، كما أن العالم طبيبها ، والدواء يؤخذ بقدر ، وبدون إفراط ، وعلى قدر الحاجة ، والمال منبهة للكريم ، وغنى عن اللئيم ، به يكف المرء وجهه ، ويؤدى أمانته ، ويصون عرضه ، وهو عون على الدين .

والغنى من العافية ، وصلاح المعيشة من صلاح الدين ، وصلاح الدين من صلاح العقل والقلب .

والقصد أن المال يجب أن يطلب من حله ، ويؤدى حقه ، وأن يطاع الله فيه ، ويستعان به على مرضاته ، ويتقى غضبه .

من فقه السلف :

من السلف من نفى عن نفسه كراهية جمع المال ، وميز بين ذلك وبين حب الدنيا ، كابن عمر إذ قال : " لو كان عندى أحد ذهباً ، أعلم عدده ، وأخرج زكاته ما كرهت ذلك، أو خشيت أن يضرنى " (2)

1 ـ المفردات 478 .

2 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 14 .

لكن فى كلامه ما يشعر باحتمال الضرر .

ومن السلف من خاف الحساب ، كأبى الدرداء لما قال : " أهل المال يأكلون كما نأكل ، ويشربون كما نشرب ، ويلبسون كما نلبس ، ويركبون كما نركب ، ولهم فضول أموال ينظرون إليها ، وننظر إليها معهم ، وحسابهم على الله ، ونحن منها براء " .

وعنه قال : " الحمد لله الذى جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت ، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذ ، وما أنصفنا إخواننا الأغنياء ، يحبوننا على الدين ، ويعادوننا على الدنيا . . . " (1)

ومن السلف من أحب أن يخلف ثروة ولو حاسبه الله عليها ، كسفيان الثورى إذ قال : " لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبنى الله عليها ، أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس " .

وقال : "كان المال فيما مضى يكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن" .

وسئل : يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير ؟ وكانت بيده ، قال : "اسكت فلولاها لتمندل بنا الملوك" (2) .

ومنهم غير واحد قالوا : " ليس من حبك الدنيا طلبك ما يصلحك فيها ، وعدو من فقه الرجل المسلم ، استصلاح معيشته ، وإن صلاح المعيشة من صلاح الدين" ، وقالوا : "السعة عون على الدين ، ونعم العون على التقى : الغنى " واتخذواالأسباب الموصلة إلى ذلك " .

فأثر عن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ ، قوله : " يا معشر القراء : استبقوا الخيرات ، وابتغوا من فضل الله ، ولا تكونوا عيالاً على الناس " .

وقال أبو قلابة (3) : " قال لى أيوب : إلزم سوقك فإن فيها غنى عن الناس ،

1 ـ سير أعلام النبلاء 2/ 350 .

2 ـ المصدر السابق 7/ 241 ، طبقات الحنابلة 1/ 159 .

3 ـ أبو قلابة الجرمى : عبد الله بن زيد ، أحد الأئمة الأعلام ت 104 هـ ، ذكر عند ابن سيرين فقال : ذاك أخى حقاً ، وهو ممن ابتلى فى بدنه ودينه ، أريد على القضاء فهرب إلى الشام ، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره ، وهو مع هذا حامد شاكر له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 183 ، الحلية 2/ 282 ، طبقات الشيرازى 89 ، سير أعلام النبلاء 4/ 468 ، تذكرة الحفاظ 1/ 88 ، تهذيب التهذيب 5/ 224 ، شذرات الذهب 1/ 126 .

وصلاحاً فى الدين " [1].

لذا لا تعجب وأنت تطالع أخبار السلف ، وما خلفه بعضهم من مال ، ومنهم ابن مسعود ، فقد مات وترك سبعين ألف درهم .

وعمر ، وأبو بكر ، وعبد الرحمن بن عوف [2] وغيرهم .

بل إن عبد الرحمن قد خلف ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً ، وكان لكل امرأة من نسائه بعد موته مائة ألف [3]

ومن جيل التابعين سعيد [4] ترك أربعمائة دينار ، وقال : " إنى والله ما تركتها إلا لأصون بها عرضى ، أو وجهى " .

وأورد ابن عبد البر بسنده : ، أن عبد الرحمن بن شريح [5] وعمرو بن الحارث [6] جمع بينهما الصف فى المسجد ، فلما سلم الإمام ، قال ابن شريح لعمرو بن الحارث : " يا أبا أمية ما تقول فى رجل ورث مالاً حلالاً ، فأراد أن يخرج من جميعه إلى الله ، زهداً فى الدنيا ، ورغبة فيما عنده ؟ قال : لا يفعل ! قال ابن شريح : فقلت لعمرو ، سبحان الله ! لا يفعل ، لا يزهد فى الدنيا ؟ فقال عمرو بن الحارث : ما أدب الله به نبيه ـ ﷺ ـ أفضل من ذلك ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا**

---

1 ـ جامع بيان العلم وفضله 2/ 14 .

2 ـ عبد الرحمن بن عوف ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ت 32 هـ ، حلية الأولياء 1/ 98 ، وسير أعلام النبلاء 1/ 68 ، تهذيب التهذيب 6/ 244 ، شذرات الذهب 1/ 38 .

3 ـ سير أعلام النبلاء 1/ 92 .

4 ـ سعيد بن المسيب بن حزن ، عالم المدينة وسيد التابعين فى زمانه ت 93 هـ ، من أقواله : لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة السيب أوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم كيلا تحبط أعمالكم ـ طبقات ابن سعد 5/ 119 ، طبقات الشيرازى 57 ، وفيات الأعيان 2/ 375 ، سير أعلام النبلاء 4/ 217 ، تذكرة الحفاظ 1/ 51 ، تهذيب التهذيب 4/ 84 .

5 ـ عبد الرحمن بن شريح المغافرى ت 167 هـ كان صاحب عبادة وفضل ، وثقة ابن حبان ، شذرات الذهب 1/ 263 .

6 ـ عمرو بن الحارث المصرى ، الفقيه ت 148 هـ ، أحفظ الناس فى زمانه ، لم يكن أحفظ منه ، شذرات الذهب 1/ 223 .

تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[1] ولكن يقدم بعضاً ويمسك بعضاً " .

فانظر هذا وتأمله جيداً ، وانظر معه مدى التراحم والتواصل بين العلماء ، وهو أحد وظائف المال ، وضرب من معرفة حقه وتأدية واجبه .

فصيانة الوجه تتعدى وجه صاحب المال إلى غيره من أهل الشرف والإخوان .

أرسل ابن المبارك إلى أبى بكر بن عياش [2] بألف درهم ، وقال : " سد بهذه فتنة القوم عنك " .

فهذا الجانب يجب أن يتيقظ من جديد فى قلوب أبناء الأمة ، خاصة العلماء ، ومن قال فيهم الثورى : " المال داء الأمة ، والعالم طبيب هذه الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه ، فمتى يبرىء الناس " ؟ [3]

فانظر الموازنة الدقيقة ، تلك التى اقتضت سد كل أبواب الفتن ، وعدم الاحتياج إلى الناس ، وصيانة الوجه ، فيما بينهم كرابطة أخوية جمعت العلماء

وتأمل معنى آخر فى كيفية صيانة الوجه ، لما سأل أحد تلامذة الإمام أحمد قال : إن فلاناً ربما سعى فى الأمور ، مثل المصانع ، والمساجد ، والآبار

قال أحمد : " لا نفسه أولى به " .

وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه [4] .

أو لما استشار رجل الإمام الثورى فى الحج ، قال : " لا تصحب من يكرم عليك ، فإن ساويته فى النفقة ، أضَّربك ، وإن تفضل عليك استذلك "[5]

---

1 ـ سورة الإسراء آية 29 .

2 ـ أبو بكر بن عياش مختلف فى اسمه ، كان صاحب قرآن وصبر ، ت 192 هـ ، لم يأت فاحشة قط ، وكان يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم له ترجمة تهذيب التهذيب 12/ 36 ، تذكرة الحفاظ 1/ 265 ، سير أعلام النبلاء 8/ 495 ، ميزان الاعتدال 4/ 494 .

3 ـ سير أعلام النبلاء 7/ 243 ، جامع بيان العلم وفضله 2/ 11 .

4 ـ طبقات الحنابلة 1/ 159 .

5 ـ سير أعلام النبلاء 7/ 241 .

أرأيت ؟ كيفية الحفاظ على ماء الوجه ، وصيانته عند نقص الأموال ، وإرادة عمل الخير ، وما يحتاج إلى المزيد منه ، وهو أمر قديم معتمد ضمن أساسيات الفقه ، والعمل الإسلامى ، وأولويات المنهج الدعوى .

فنفس المرء أولى من بناء المساجد والمصانع . .

حتى إنهم نفوا الخيرية عمن لم يكف بالمال وجهه عن الناس .

قال سعيد : " لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ، يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطى حقه" .

ولما تعجب الفضيل من صنيع ابن المبارك ، حيث كان يأمر بالزهد والتقلل من الدنيا ويطلب منهم التخفف .

قال الفضيل : " أنت تأمرنا بالزهد ، والتقلل ، والبلغة ، ونراك تأتى بالبضائع ، كيف ذا؟

قال : يا أبا على ، إنما أفعل ذا لأصون وجهى ، وأكرم عرضى ، وأستعين به على طاعة ربى .

قال : يا بن المبارك ، ما أحسن ذا ، إذا تم ذا "[1]

فعليك طالب العلم بالاجتهاد فى جمع المال للغنى عن الناس ، فإنه يجمع لك دينك ، فما رأينا فى الأغلب منافقاً فى التدين ، والتزهد ، والتخشع ، ولا آفة قد طرأت على عالم إلا بحب الدنيا ، وغالب ذلك الفقر [2] .

وقال يوسف بن أسباط [3] : " ما كان المال فى زماننا أنفع منه فى هذا الزمان ،

1 ـ تاريخ بغداد 10/ 160 ، سير أعلام النبلاء 8/ 387 .

2 ـ صيد الخاطر 223 .

3 ـ يوسف بن أسباط ، الزاهد من سادات المشايخ ، ومن أقواله : إذا رأيت الرجل قد أشر ، وبطر ، فلا تعظه ، فليس للعظة فيه موضع ، لى أربعون سنةما حك فى صدرى شىء إلا تركته ، الجرح والتعديل 9/ 218 ، سير أعلام النبلاء 9/ 169 ، الحلية 8/ 237 ، ميزان الاعتدال 4/ 412 .

والخير كالخيل ، لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر " (1) .

ففى كل هذا دليل على أن العبرة فى كل شىء إنما تكون فى توظيفه ، والتوجه به ، وأن المال أو الدنيا المذمومة ما قصدت للدنيا ، فإن طلبت للدين ، والتوصل إلى الآخرة فإنها لا تذم .

أو كان ملهياً عن طلب الآخرة وإرادتها ، وما لا يلهى فليس كذلك .

قال يحيى بن معاذ : "كيف لا أحب دنيا ، قدر لى فيها قوت أكتسب بها حياة ، أدرك بها طاعة ، أنال بها الآخرة ؟" (2)

وقد جمع ابن عبد البر المسألة فى عبارة شافية ، تأملها وكن عند حسن ظنه ، قال بعد أن أورد الكثير من النصوص ، والأخبار ، عن الكثير من سلف الأمة ، فى التدليل على مذهبه فى أن طلب المال من حله ، وتأدية حقه ، ليس من الدنيا المذمومة ، ولا من الأمور المنهى عنها .

قال : "إنما أورد هذا هنا ، لئلا يظن ظان جاهل بما يقرأ فى هذا الكتاب ، أن طلب المال من وجهه للكفاف والاستغناء عن الناس ، هو طلب الدنيا المكروه الممنوع منه ، فإنه ليس كذلك" (3) .

تخوف وخشية :

فإذا كان الأمر كذلك فلأى معنى تخوف النبى - ﷺ - على الأمة من المال؟

فقد ثبت عنه أنه قال : « **ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم** » (4)

---

1 - عدة الصابرين 301 .

2 - جامع العلوم والحكم 280 .

3 - جامع بيان العلم وفضله 2/ 15 .

4 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الجزية 4/ 119 ، وكتاب المغازى 5/ 108 ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد 4/ 2274 ، والترمذى فى سننه ، كتاب القيامة 4/ 640، وابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن 2/ 1324 .

وقال ـ ﷺ ـ « **إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى الغنى** »[1]

وكان ـ ﷺ ـ : « **يستعيذ بالله من شر فتنة الغنى**» .[2]

وفتنة الغنى : الحرص على جمع المال ، وحبه ، حتى يكسبه من غير حله ، ويمنعه من واجبات إنفاقه ، وحقوقه[3] .

وتأمل أهمية التصريح عند فتنة الغنى بذكر الشر « **شر فتنة الغنى** » .

فإن كان هذا فهل مضرة المال أكثر من مضرة فقده ؟

أم أن هذا صـــدر من النبى ـ ﷺ ـ على سبيل التغليظ كى لا يغتر أحد فيغفل عن مفاسده ؟ أو أن هذا صدر من النبى ـ ﷺ ـ على سبيل التنبيه إلى أن صورة المال لا يكون فيها خير ، بخلاف الفقر ، فقد يكون فيه خير ؟

وقد يؤدى الغنى إلى الترف ، والبطر ، والفسق مما هو سبب فى قتل المواهب ، وطمر الملكات، وتعطيل الفرائض .

وقد يجر صاحبه إلى المعاصى ، والطغيان ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾[4] .

هذا التجاوز ، سببه الاستغناء الناتج عن القوة المادية التى ما إن يشعر بها صاحبها إلا ويعمل على إذلال غيره ، وتسخير الآخرين لمشيئته .

والما ل نوع من القوة ، يحرك داعيه إلى ارتكاب الفجور ، واقتحام الشهوات ، والشبهات ، ولا يسلم صاحبه من مباشرة حظوظه . ومن المال تثور العداوة والصداقة ،

---

(1) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ،كتاب الزهد 4/ 569 من حديث كعب بن عياض ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وأحمد فى مسنده 4/ 160 من حديث كعب ، والحاكم فى المستدرك 4/ 318 وصححه ، ووافقه الذهبى .

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه 8/ 98 ، 100 ـ ومسلم فى صحيحه 4/ 2078 ، والترمذى فى سننه 5/ 525 ، وابن ماجه فى سننه 2/ 1262 .

(3) فتح البارى 11/ 177 .

(4) سورة العلق آية 6، 7 .

وينشأ التنافس ، والحسد والرياء ، والانبات عليه .

وقد يعجز المرء عن استدامته ، فيتوصل إليه بالظلم ، والاستعانة بالظلمة .

ومن بلاياه الانشغال بتنميته ، وثميرة ، وإصلاحه، وحفظه .

وقد يحصل بسبب هذا من الهموم ما يملأ القلب ، والعقل ، ثم الخوف مما قد يعتريه، ودفع الناس عنه ، إلى غير ذلك مما هو سبب فى انصراف المرء عن غايته الكبرى، ونسيانه لوظيفته الحقيقية ، وبْعده عن ربه ، وحرمانه منه .

قال عيسى عليه السلام . " فى المال ثلاثة آفات ؛ أن يأخذه من غير حله ، فقيل إن أخذه من حله ، فقال : يضعه فى غير حقه ، فقيل : إن وضعه فى حقه ، فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى "[1]

والمال زينة للإنسان ، وشهوة من شهواته العنيفة ، والإقبال على سد هذه الشهوة لا يزيدها إلا تأججاً وتوسعاً ونهماً .

قال الله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [2]

فليس الأمر فى المال مجرد الميل والتوصل إلى المطلوب، و إنما يدل قوله تعالى : ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ إلى حالات النهم والجشع الموصل الى تكديس الذهب والفضة هذا التكديس فى ذاته شهوة فوق ما يحققه المال من شهوات أخرى .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر المال فى موضع الذم : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [3]

وأحيانًا يذكره كفتنة ، وعامل من عوامل الابتلاء : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[4]

---

(1) إحياء علوم الدين 3/ 237 .

(2) سورة آل عمران آية 14 .

(3) سورة العلق آية 6

(4) سورة التغابن آية 15 .

وقال الله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (1)

استدراج ، وأخذهم من الجهة التى لا يشعرون أن بها أخذاً .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(2)

نهى عن اللهو بالأموال والأولاد عن طاعة الله .

وفى معرض الاغترار بالمال ، والتفاخر به ، والتكاثر يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (3)

فإذا جاء وعد الله ، لم تسد هذه الأموال من الله شيئاً ، أو تدفع عنهم عذاباً .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (4)

فالأموال لا تقرب هؤلاء من الله شيئاً ، إذا تجردت من الإيمان والعمل الصالح وكثرتها وقلتها سواء لمن كان هذا شأنه .

والمال متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (5)

---

(1) سورة المؤمنون آية 55، 56 .

(2) سورة المنافقون آية 9 .

(3) سورة آل عمران آية 10 .

(4) سورة سبأ آية 35 : 37 .

(5) سورة الواقعة آية 45 .

وقال النبي - ﷺ - لعمر - رضى الله عنه - : « **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة** »(1)

كما ذم الله تعالى محب المال فقال سبحانه : ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ (2)

ومن تمنى الدنيا والغنى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ (3)

ولقد صان الله أحبابه ، ومنع ما منع عنهم من المال ، لطفاً وعطفاً ، وتطهيراً ورفعة ، وأعلمهم ربنا أن فى البسط فتنة ، وفى الغنى طغياناً ومحنة ، وأن الزيادة فى جمعه وتحصيله ابتلاء واختبار ، لا محبة وكرامة ، والمطلوب إزاء هذا كله :

فهم فائدة المال وأنه آلة سلوك الطريق ، وزاد المسافر ، فإن أخذ المسافر فوق ما يزيد فلربما أثقله وأعياه ، فلم يبلغ مقصده ، والزيادة على قدر الحاجة لا حظ للعبد فيها ، إنما هى حظ الشيطان ، لأنها من الإسراف وهو حظه ، ومنفذ من منافذة ، وفى الزيادة دعوة إلى المعاصى فإنها تمكن من المعاصى ، وفيها دعوة إلى التنعم .

قال ابن القيم : "كل ذى لب يعلم أن لا سبيل للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات :

أحدها : التزيد والإسراف ، فيزيد على قدر الحاجة ، فيصير فضلة ، وهى حظ الشيطان ، ومدخله إلى القلب .

الثانية : الغفلة ، فإن الذاكر فى حصن ، فمتى غفل فتح باب الحصن ، ولجه العدو .

الثالثة : تكلف الإنسان ما لا يعنيه " . (4)

كما أن فى الزيادة سيطرة على النفس ، وتصويراً لها أن المال هو القيمةالحقيقية ، بل

1 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير 6/ 194 ، وابن ماجة فى سننه ، كتاب الزهد 2/ 1390

2 - سورة الفجر آية 20 .

3 - سورة القصص آية 80 .

4 - الفوائد لابن القيم 191 .

كل شيء ، ولا يقف أمامه شيء ، ولا يعجزه شيء ، ولو كان الموت فهو قادر على دفعه ورده : ﴿ **الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخلَدَهُ**﴾ (1)

ومع الزيادة كذلك بخل واستغناء عن كل شيء ، ولو كان هدى الله سبحانه ، وتصديق بدعوته ، وفى النهاية تردى وسقوط فى العثرات ، وتعسير للأمور. : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ**﴾(2)

هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ؟ (3)

وقد كان النبى ـ ﷺ ـ كثيراً ما يستعيذ بالله من فتنة الفقر ، وشر فتنة الفقر (4)

وتقييد فتنة الفقربالشر ، دليل خلوه من كل خير قل أو كثر .

وفتنة الفقر ويراد به الفقر المدقع الذى لا يصحبه خير ، ولا ورع ، حتى يتورط صاحبه بسببه فيما لا يليق بأهل الدين ، والمروءة ، ولا يبالى بسبب فاقته على أى حرام وثب ، ولا فى أى حبالة تورط . (5)

وهو والحالة هذه خطر على كل شيء ، العقيدة ، السلوك ، الفرد ، المجتمع ، الأسرة ، الفكر . .

ولذلك عمل الإسلام على علاجه ، والقضاء عليه بوسائل كثيرة .

وقد يراد بفتنة الفقر: : فقرالهمة .

---

1 ـ سورة الهمزة آية 2، 3 .

2ـ سورة الليل 8: 11 .

3 ـ جزء من حديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الزهد 4/ 552 ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، والحديث فى سنده محرر بن هارون ، قال الحافظ فى التقريب : متروك ،2/ 231.

4 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 8/ 98 ، ومسلم فى صحيحه 4/ 2078 ، والترمذى فى سننه 5/ 525، وابن ماجة فى سننه 2/ 1262 .

5ـ فتح البارى 11/ 177 .

فم التنين :

يحتمل أن يكون معنى تخوف النبي - ﷺ - في قوله : « **ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا** » ، أن الخشية مقيدة بما إذا كان الغنى بعد الفقر ، فإذا صار الحفاة العراة ، أصحاب ثروة ورأس مال وتحكموا فى الناس ، فسد نظام الدين والدنيا معاً ، ومن مظاهر الفتنة ، وقد قال بعض السلف : "لأن تمد يدك إلى فم التنين فيقضمها ، خير لك من أن تمدها إلى يد غنى قد عالج الفقر" .

وللمبرد:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ◆ وأصبحت فيها بعد عسر أخا يسر

لقد كشف الإثراء عنك خلائقا ◆ من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر (1)

نير المصائب

المرأة ذات كيد واحتيال ، واستدراج ، فكيدها عظيم ، تجمع بين الضعف والقوة كلامها سكر ، وتحت لسانها سحر ، ولذا فهى فتنة .

* هى فتنة حين عطلت أمومتها ووظيفتها ، وجعلت من نفسها أداة فساد ، ودعاية ، وغواية .

* فتنة حين صارت عنوان جنس ، ورمز إثارة .

* فتنة حين باتت محط كل عين نهمة ونفس مريضة عفنة ، مما هو سبب خلل النفس والمجتمع .

* فتنة بما تحدثه من تأثير وميوعة ، ووسائل خبيثة مهيجة للغرائز .

* هى فتنة السراء ، والصبر عليها صعب لخطورة مداخلها ، حتى قال معاذ ابن جبل ، أحد من ضبط عن النبى - ﷺ - أمور الفقه : « **إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وإنى أخاف عليكم فتنة السراء ، وإن من أشد ذلك عندى النساء إذا تحلين الذهب ولبسن**

1 ـ آداب العشرة : 54 .

رِيْط الشأم[1] **وعَصْب أيمن**[2] **فأتعبن الغنى وكلفن الفقير ما لا يجد »**[3]

فتنة النساء من أشد فتن السراء عند سيدنا معاذ .

وهى كذلك أشد من كل فتنة ، وأضر من غيرها ، ولخطورتها بدأ ربنا بها فى قوله تعالى : ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ [4]

فجعلهن من حب الشهوات ، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع ، وفى هذا إشارة إلى أنهن الأصل فى ذلك .

* هى فتنة حين شغلت بال كل عاقل ومفكر ، وتناولها كل قلم ، وتحدث عنها كل متحدث ، وتكلم عنها كل فقيه ، وروجت بها السلع ، واعتمد عليها أصحاب الدعايات ، وأصبحت المرأة وقضاياها فتنة تبحث فى كل مكان ويلغ فيها كل لسان .

* هى فتنة فى عوجها إذا تركت ، فتنة عند إرادة تقويمها ، الصبر عنها خير من الصبر عليها ، والصبر عليها خير من الصبر على النار .

* هى فتنة بتكوينها ونقص عقلها ودينها .

هى فتنة إذا خرجت متبرجة بزينتها ، فأمرها مبنى على الستر ولو لم يتحقق قال سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ : " النساء عورة فاستروها بالبيوت ، وداوا ضعفهن بالسكوت " ، وفى الحديث : « **المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان** » [5] ولهذا شرع لها أن ترخى ثيابها ولا يجوز لها كشف شىء من بدنها إلا لضرورة .

ومن عوامل تزكية القلب ، وطهارة النفس إجراء الحديث معها من وراء حجاب .

ومعنى استشرفها الشيطان : رفع بصره إليها ليغويها ، ويغوى بها ، فيوقع الرجل فى فتنتها ، ويوقعها فى فتنة الرجل أو يوقعهما جميعاً .

---

1 ـ الرِيْط : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة .

2 ـ العصب : برد يصبغ غزله ثم ينسج .

3 ـ عيون الأخبار 4/ 1130 .

4 ـ سورة آل عمران آية 14

5 ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الرضاع 3/ 476 وقال : هذا حديث حسن صحيح .

* هى فتنة عند سفرها إذا خرجت بدون محرم .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ◆ وتتقى مربض المستأسد الحامى [1]

* هى فتنة إذا تعطرت ، ففى الحديث : « **إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهى زانية** » [2]

* فتنة عند الخلوة بها ، فالعفة حجاب يمزقه الاختلاط ، ولهذا لا ينبغى لأحد أن يثق بنفسه فى الخلوة بمن لا تحل له .

والنساء معراج الشرف بعفتهن ، ونير المصائب بابتزالهن .

* هى فتنة حين تكون مطاعة فى غير طاعة الله ، قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : " أكثروا لهن من قول لا ، فإن نعم تضر بهن على المسألة " .

* هى فتنة حين يكون الأمر إليها ، قال الحسن : " والله ما أصبح أحد يطيع امرأته إلا كبه الله فى النار ، فكم أهلكت الرجال حين أطاعوا النساء " .

* هى فتنة حين تكثر الطلب ، وترهق الرجل بما فوق الحاجة ، وما لا تدعو الضرورة إليه فبإرهاقه بما لا يطيق إساءة إلى نفسها ، وإلى رجلها ، وربما ألجأه هذا إلى طلب الحرام، ونيل العيش بسخط الله ، وفى هذا هلاك الاثنين معاً .

قال بعض السلف : " فى النساء فتنتان ، وفى الأولاد فتنة واحدة .

فأما اللتان فى النساء :

فأحدهما :

أن تؤدى إلى قطع الرحم ، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأخوات وثانيهما ؛ يبتلى بجمع المال من الحلال والحرام . .

---

1 ـ للنابغة ، انظر عيون الأخبار 4/ 109

2 ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الأدب 5/ 106 وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والنسائى فى سننه ، كتاب الزينة 8/ 153 ، والدارمى فى سننه ، كتاب الاستئذان 2/ 279 ، وأحمد فى مسنده 4/ 400، 414 ، 418، من حديث أبى موسى الأشعرى .

وأما البنون فالفتنة فيهم واحدة ، وهو ما ابتلى بجمع المال من أجلهم " .

* هى فتنة حين تحمل الرجل على تعاطى ما فيه نقص العقل والدين ، كشغله عن طلب أمور الدين ، وحمله على التهالك وطلب الدنيا ، وذلك أشد الفساد .

* هى فتنة عند النظر إليها ، فالنظر يزرع فى القلب شهوة ، وكفى بها خطيئة .

لذا قالوا : " لا يزنى فرجك ما غضضت بصرك " .

" احتفظ من العين ، فإنها أنم عليك من اللسان " .

" العين تظهر ما فى القلب أو تصف " .

" أما تبصر فى عينى عنوان الذى تبدى " .

" لذة المرأة فى شهوتها ، وغيرتها على قدر محبتها " .

* هى فتنة حين تشتط فى غيرتها ، وتنساق وراء الظنون والشبهات ، وتبالغ فى الارتياب ، والتعنت ، واستطلاع بواطن الأمور .

والغيرة بهيمة ، أو ضرب من البخل .

وتأمل وصية ابى الأسود[1] لابنته : " إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وعليك بالزينة ، وأزين الزينة الكحل ، وعليك بالطيب ، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء ، وكونى كما قلت لأمك فى بعض الأحايين : "

خذ العفو منى تستديمى مودتى ◆ ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب

فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى ◆ إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب[2]

* هى فتنة عند المشاورة ، قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : " خالفوا النساء ، فإن مخالفتهن بركة " .

---

1 ـ أبو الأسود : ظالم بن عمر الدؤلى ، ولد فى أيام النبوة ت 69 هـ ، له ترجمة فى : طبقات ابن سعد 7/ 99 ، وفيات الأعيان 2/ 535 ، سير أعلام النبلاء 4/ 81 ، تهذيب التهذيب 12/ 10 .

2 ـ عيون الأخبار 4/ 77 .

* وقال غيره : " إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، وإكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت ألا يعرفن عليك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها ، وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تعد بكرامتها نفسها ، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها ولا تطل الخلوة مع النساء فميللنك وتملهن ،واستبق من نفسك بقية ، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك باقتدار ، خير من أن يهجمن عليك على إنكسار ، وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيح منهن إلى السقم . (1)

* هى فتنة فى كيدها ، ومكرها ، وحيلها ، وخداعها ، هى هكذا فتنة وأى فتنة ؟ بعدما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ؟ فاتقواالدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء** » (2)

وفى الجمع بين الدنيا والنساء دلالة ، ويدخل فى ذلك عموم النساء ، وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهن ، وابتلاء أكثر الرجال بهن ، وفى الحديث : « **ما من صباح إلا وملكان يناديان ، ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال** » (3)

وقال ـ ﷺ ـ:ـ « **ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء** » (4)

ولهذا الحديث ترحم البخارى بقوله : باب : ما يتقى من شؤم المرأة ! وهى ترجمة تخلع القلوب.

وفى الاعتصام والتحرز والتصون من ذلك كله صعوبة ومشقة ، وأى اعتصام وموجات العرى ، وغارات الجنس والاستغلال السيىء ، والدعايات المغرضة لا تتوقف؟

---

1 ـ عيون الأخبار 4/ 79 .

2 ـ الحديث أخرجه مسلم في صحيحه 4/ 2098 ، وأحمد فى مسنده 3/ 22 .

3 ـ الحديث أخرجه ابن ماجة فى سننه 2/ 1325 ، وإسناده ضعيف .

4 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، نكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة 7/ 11 ، ومسلم فى صحيحه 4/ 2097 ، وابن ماجة فى سننه ، فتن 2/ 1325 ، والترمذى فى سننه ، أدب : 5/ 103، وأحمد فى مسنده 5/ 200 ، 210 .

حتى أصبح هذا شغل الكثيرين الشاغل ، بل لقد غدت ممارسته والإغراق فيه عمل أجهزة ومؤسسات ، حتى استحال التحول فى أى مكان دون أن تصاب بناره أو تلاحقك آثاره .

قال بعض الحكماء : "النساء شر كلهن ، وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن" .

إن النســاء كأشجــار نبتن معا ❖ منها المرار وبعض المر مأكــول

إن النساء متى ينهين عن خلــق ❖ فإنــه واقـــع لابــد مفعــول .

وفيه إشارة إلى قول القائل : "ما نهيت المرأة عن شيء إلا أتته " . ، وفى هذا فتنة فهل تستقيم لك على طريق ؟ .

كيد امرأة :

تأمل كيد امرأة العزيز لنبى الله يوسف عليه السلام .

تغليق الأبواب ، دعائه إلى نفسها ، وكيدها له بقولها : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (1)

مكايدته بالمراودة أولاً ، وبالكذب عليه ثانياً ، ولهذا قال الشاهد لما تبين له براءة يوسف عليه السلام : ﴿ **إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ (2)

كيدها له حيث جمعت له النسوة ، وأخرجته عليهن ، تستعين بهن عليه ، وتستعذر إليهن من شغفها .

كيد النسوة له حتى استجار بالله تعالى من كيدهن ، فقال : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾(3)

ولهذا لما جاءه الرسول بأمر الخروج من السجن قال له : ﴿**ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا**

1 ـ سورة يوسف آية 25 .

2 ـ سورة يوسف آية 28 .

3 ـ سورة يوسف آية33، 34 .

﴿ بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (1)

قال الشيخ الإمام ابن القيم : فإن قيل فما كان مكر النسوة اللاتى مكرن به وسمعت به امرأة العزيز ، فإن الله سبحانه لم يقصه فى كتابه ؟

قيل : بل قد أشار إليه بقوله : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (2)

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر :

الأول : قولهن : ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ ولم يسموها باسمها ، بل ذكروها بالوصف الذى ينادى عليها بقبيح فعلها ، بكونها ذات بعل ، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها .

الثانى : إن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها ، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

الثالث : أن الذى تراوده مملوك لا حر ، وذلك أبلغ فى القبح .

الرابع : أنه فتاها الذى هو فى بيتها ، وتحت كنفها ، فحكمه حكم أهل البيت بخلاف من طلب ذلك من الأجنبى .

الخامس : أنها هى المراودة ، والطالبة .

السادس : إنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها .

السابع : أن فى ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى ، حيث كانت هى المراودة الطالبة ، وهو الممتنع عفافاً وكرماً وحياءً ، وهذا غاية الذم لها .

الثامن : أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار ، و الوقوع حالاً واستقبالاً ، وأن هذا شأنها ، ولم يقلن : راودت فتاها ، وفرق بين قولك فلان أضاف ضيفاً ، وفلان يقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويحمل الكل ، فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته .

---

1 ـ سورة يوسف آية 50 .

2 ـ سورة يوسف آية 30 .

التاسع : قولهن : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح ، فنسبن الاستقباح إليهن ، فحيث استقبحن منها ذلك ، كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور ، وأنه مما لا ينبغى أن نساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه .

العاشر : أنهن جمعن لها فى هذا الكلام بين العشق المفرط ، والطلب المفرط ، فلم تقتصد فى حبها ولا فى طلبها ، أما العشق فقولهن : ﴿ **قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ أى وصل حبها إلى شغاف قلبها ، وأما الطلب فقولهن ﴿ **تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ والمراودة الطلب مرة بعد مرة ، فنسبوها إلى شدة العشق ، وشدة الحرص على الفاحشة ، فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه ، فهيأت لهن متكأ ، ثم أرسلت إليهن ، فجمعتهن ، وخبأت يوسف عليه السلام عنهن [1] .

خائنة القلوب .

لا يتوقف أثر افتنان المرأة على ما يظهر منها أو يبدو على جوارح الرجل من فتنة النظر وعشق الصورة ، وإظهار الزينة ، وكل ما يجمل المرأة فى عين الأجنبى ، فيتلذذ به ، ويستمتع برؤيته ، أو شمه ، أو ملامسته ، أو سمعه بأذنه .

وما أكثر ما يبعثه اللسان من فتنة ، مما يشير إليه قوله تعالى : ﴿**إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ [2]

ـ وربما سكت اللسان ، وقامت حركات أخرى أشد تأثيراً فى السمع وهو ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى : ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [3]

ـ وقد تقوم امرأة بما هو أخطر وأشد فتنة ، حين تباشر امرأة أخرى ، ثم تصفها لرجل كأنه قام فنظر إليها ، وفى الحديث « **لا تباشر المرأة المرأة حين تصفها لزوجها كأنه ينظر إليها**» [4]

---

1 ـ اغاثة اللهفان 2/ 114 ـ 116 ، والتفسير القيم 314 ـ 315 .

2 ـ سورة الأحزاب آية 32 .

3 ـ سورة النور آية 31 .

4 ـ الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، نكاح 7/ 49 ، وأبو داود فى سننه 2/ 246 ، والترمذى فى سننه 5/ 109 .

لما فى ذلك من الفتنة والإسلام لا يحتمل هذا ، بل يعده خيانة قلبية ، ونمطاً من الزنى المعنوى ، مما هو علة العلل فى إثارة الفتنة .

وإذ القانون لا يعاقب المرء على مثل هذا ، فإن النظام الأخلاقى يجرمه ، ويحرم كل ميل جنسى مخالف ، متى وقع خارج دائرة الزواج ، باعتباره فى حكم الزنى من حيث النية ، والإرادة ، والخاطر ، وباعتبار تمتع العين بجمال الأجنبية وتلذذ الأذن بحسن صوتها ، والتكسر ، والخضوع فى قولها ، وتلوي اللسان فى كلامها ، والسعى الذهنى ، وتحرك القدم ، واشتهاء النفس ، وتمنى القلب ، مما هو مقدمات الزنى ، بل هو عينه باعتبار معانيه ، ورصد الإسلام والقانون الأخلاقى عقوبة عليه .

وإليه الإشارة بقوله - ﷺ -: « **كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى فمدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنى وزناهما النظر ، والأذنان ، وزناهما الاستماع ، واللسان يزنى وزناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه** » (1)

ومن ذلك حديث : « **إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهى زانية** » وقد تقدم .

ومعنى الحديث : أن الزنا لا يختص بالفرج ، بل يطلق على ما دونه من نظر وغيره وأن الزنا منه الحقيقى ، ومنه المجازى .

وإنما سمي النظر ، والنطق زنا ، لأنه يدعو إلى الزنا الحقيقى ، ويؤدى إليه .

ولذلك قال : « **والفرج يصدق ذلك ويكذبه** » أى قد يحقق الزنا بالفرج وقد لايحقق .

وبهذا ترجم البخارى للحديث ، باب : زنى الجوارح دون الفروج .

واختلف العلماء ، فيما لو قال : زنت يداك هل يحد ؟ فمنهم من قال يحد ، وهو قول الشافعى ، وخالفه بعض الأصحاب .

1 - الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه 8/ 67 ، 156 ، ومسلم فى صحيحه 4/ 2046 ، وهذا لفظه ، وأبو داود فى سننه 2/ 246 ، 247 ، وأحمد فى مسنده 2/ 276 ، 317 .

ومن احتج للشافعى قال بأن الأفعال تضاف إلى الأيدى لقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [2] .

قال الحافظ : وليس المراد فى الآيتين جناية الأيدى فقط ، بل جميع الجنايات اتفاقاً ، فكأنه إذا قال ز نت يداك ، وصف ذاته بالزنا لأن الزنا لا يتبعض . . [3]

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " إن الشيطان من الرجال والنساء فى ثلاثة منازل : النظر ، والقلب ، والفرج " .

نسأل الله السلامة

1 ـ سورة الشورى آية 30 .
2 ـ سورة الحج آية 10 .
3 ـ فتح البارى 11/ 26 .

الشعور النفسى الفطرى نحو الأولاد ، وإبراز ما أودعه الله فى قلوب الآباء من حب، وعاطفة قلبية ، ركيزة أساسية فى النفس الإنسانية .

فالأبناء زينة الحياة الدنيا ، ومن نعم الله التى أمتن بها على عباده ، قال الله تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ (1)

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (2)

وقال الله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (3)

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (4)

وهم كذلك قرة عين المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (5)

وفيهم بقاء الذكر ، وامتداد النوع ، وترويح النفس ، وإيناس الطبع ، ومحادثة ومجالسة ، وتعزز من ذلة ، واستكثار من قلة . . وهذا كله تقرير للواقع ولا ينازع فيه أحد .

فالولد محبب مزين ، وفى كل إنسان ميل له ، لهذا لم يرد فى القرآن وصية الآباء بالأبناء ، فهم لا يحتاجون لذلك ، وطالما الأمر هكذا ، فالواجب تحييد النظر ، وتقنين العاطفة ، والتعامل مع الأمر بلا استغراق ، أو شطط ، حتى لا تطغى العاطفة على الغاية الشريفة النبيلة .

لابد من معرفة طبيعة وحدود الزينة والميل ، حتى يتم وضع كل شىء فى مكانه الذى لا يتعداه ، وإلا فسد بالتعدى ما هو أكرم وأعز من الولد ، وتحولت الزينة رذيلة ، والنعمة

1 ـ سورة آل عمران آية 14 .
2 ـ سورة الكهف آية 46 .
3 ـ سورة الإسراء آية 6 .
4 ـ سورة نوح آية 12 .
5 ـ سورة الفرقان آية 74 .

نقمة ، والعطية بلية ، ويصبح الأمر كما قال القائل :

أرى ولد الفتى ضرراً عليه ◆ لقد سعد الذى أمسى عقيما

من صور الإفتتان بالولد :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (1)

وقال سبحانه : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (2)

بلاء وشغل عن الآخرة ، وكفى بها فتنة .

وهو إخبار من الله ـ عز وجل ـ أن الأولاد مما نفتن به ، وهذا عام شامل لجميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بطلب الحلال ، وقد لا يجده ، وقد لا يتيسر له خاصة فى هذه الأزمان التى عز فيها وجود الطيب ، وندر الصالح .

شيئان ليس فى الأرض أعز منهما ، لا يزدادان إلا قلة ، أخ فى الله يسكن إليه ، ودرهم حلال يوضع فى حق .

لا أعز من هذين ، درهم طيب ، ورجل يعمل فى سنة .

كان يونس بن عبيد يقول : " ولا أستطيع أن أقول لمائة درهم أصبتها إنه طاب لى عشرة وأيم الله لو قلت : خمسة لبررت ، قالها غير مرة " . (3)

ففى الولد توسع فى الطلب ، وحمل على الإكثار ، وفيه مداخل من اتباع الهوى ، وتحقيق رغبات الأولاد وقل من يسلم .

فإن سلم ، فلا شيء يعدله ، ولا شيء يقع موقع الكسب على العيال ، ولا الجهاد فى سبيل الله .

فإصلاح أمر معاشهم عبادة ، متى صفت النية وسلمت من التخليط ، وإلا فقد غبط النبى ـ ﷺ ـ من خف ظهره .

---

1 ـ سورة التغابن آية 15 .

2 ـ سورة الأنفال آية 28 .

3 ـ حلية الأولياء 3/ 17 .

جاء فى السنة أن النبى - ﷺ - قال : « **إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ** [1] **ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر ، وكان غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك ، ثم نفض بيده فقال : عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه** » [2] .

فخفة الظهر من العيال ، واحدة من صفات أحبها النبى - ﷺ - وهى مع الغموض ، وخمول الذكر ، والرضى بالقليل ، والقناعة باليسير ، وحسن العبادة ، والطاعة فى السر ، أمور قل أن تتوفر فى جمع من الناس ، فهى مشعرة بالغربة ، والتفرد عن الأقران ، لذا عجلت منيته لئلا يطول مقامه بين الناس غريباً .

واشترط قبل كل هذه الصفات خفة الظهر ، لئلا يشغله الكسب لهم عن أداء وتحقيق ما وصف به .

لهذا قيل : " العيال سوس المال " .

" فى كثرة العيال فضيحة الرجال " .

ما أيسر ذو عيال وإن كان بحسن حال " .

ولما عوتب ابن عيينة على قبوله عطاء السلطان ، قال : " صاحب العيال لا يفلح "[3]

وحين عوتب الكسائى [4] عالم اللغة فى ترك التزوج : " قال وجدت مكابدة العزبة أيسر من مكابدة العيال " .

ومنهم من قال : " يخبز فى بيتى كل يوم ألف رغيف ، وكلهم يأكله حالاً غيرى ، وكان يأكل رغيفاً واحداً ويقول : يقولون فلان رب البيت وإنما هو كلب البيت " [5] .

---

1 - خفيف الحاذ : الحاذ والحال واحد ، أى خفيف الظهر من العيال ، النهاية 1/ 457 .

2 - الحديث أخرجه الترمذى فى سننه 4/ 575 ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، والخطابى فى العزلة 120 .

3 - العزلة 126 .

4 - الكسائى عالم اللغة البارع : محمد بن إبراهيم بن يحيى ت 385 هـ سير أعلام النبلاء 16/ 465 ، ميزان الاعتدال 3/ 450 ، لسان الميزان 5/ 26 ، شذرت الذهب 3/ 117 .

5 - عيون الأخبار 4/ 81 ، 87 .

وقال عمر بن عبد العزيز : " زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم[1] قالت : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى بنته ، وهو يقول : « **إنكم تبخلون، وتجبنون ، وإنكم لمن ريحان الله** »[2] .

والحديث عند الخطابى فى كتاب العزلة ، بصيغة القسم « **والله إنكم** » قال أبو سليمان : " يريد أنهم يحملون الرجل على البخل ، والجبن ، ويدعونه إلى الجهل حباً وشفقة عليهم " .[3]

هذا واقع ، فالقلب لا يخلو من الانشغال بهم .

كذلك اللهو ، وقضاء الوقت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[4]

فانظر كيف قرن بين الأولاد ، والأموال ، وحذر من أن يكونا من عوامل الإلهاء عن ذكر الله ؟

فالأولاد والأموال ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده ، والتى منها ، كمال محبة الله ، والشوق إليه ، فهو سبحانه أحق بكمال الحب ، والعبودية ، ودوام الذكر الذى يساعد على هذا كله ، وسبب فيه ، ومن أنفع ما للعبد عند الله .

ولهذا أمر ربنا به ، ونهى عن ضده ، وعلق الفلاح عليه ، وجعله سبباً للاتصال بالله ، ومن يغفل عن هذا فهو من الخاسرين .

وكل ما يؤدى إلى الخسران فهو خسران ، ومن أشد أنواعه أن يخسر الإنسان نفسه ، فمن خسر نفسه فقد خسر كل شيء ، ومن خسر نفسه فهو لما سواها أخسر ، مهما كان مالكاً من مال وولد .

---

1 ـ لها ترجمة فى : طبقات ابن سعد 8/ 158 ، سير أعلام النبلاء 2/ 260 ، تهذيب التهذيب 12/ 415.

2ـ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه 4/ 317 وفيه انقطاع ، فإن عمر لم يثبت له سماع من خولة بنت حكيم .

3ـ العزلة 127 .

4ـ سورة المنافقون آية 9 .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (1)

العداوة : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ (2)

نزلت الآية فى رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ رأوا الناس قد فقهوا ، فهمّوا أن يعاقبوهم ، كأن يقول أحدهم : لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلن ولأفعلن .

فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3)

ويحمل سبب النزول على هذا بيان سبب العداوة ، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته ، إنما لفعله ، فإذا فعلت الزوجة والولد فعل العدو وقاموا به ،كانوا أعداء ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين طاعة ربه ، هذا عند من يرى أن الآية نزلت على سبب خاص وأن العبرة بخصوصه ، لكن الآية أعم وأشمل من قصرها على هذا السبب ، وأبعد أثراً ، ففيها تحذير من كافة الأزواج والأولاد ، وتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً ، كالشمول فى الآية بعدها : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(4)

وتتمثل العداوة فى كونهما ملهاة ومشغلة ، كما أنهما قد يكونان من عوامل التقصير فى القيام بما يرتبه الإيمان من واجبات ، وقد يحتمل العنت فى نفسه ، ولا يحتمله فى أهله ليبخل ، ويجبن ليوفر لهم ، كما أنهم قد يقفوا دون جهاده ، ولهذا كرر التحذير بأسلوب آخر وصورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد .

الفتنة فى الآية اختبار ، يحتاج إلى عزم ، وهمة ، ويقظة ، وتجرد للخلاص منها .

---

1 ـ سورة نوح آية 21، 22 .

2 ـ سورة التغابن آية 14 .

3 ـ سورة التغابن آية 14 .

4 ـ سورة التغابن آية 15

والمعنى أن الأموال والأولاد فتنة تؤدى إلى المخالفة والمعصية ، فوجب الحذر ، ومن ثَمَّ اقتضت هذه الأحوال إثارة الضمير واليقظة فى القلوب ، فجاء الأمر بعدهما : **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [1] .

ومنها العجز عن التأديب ، والتربية وعدم درء أسباب الانحراف أو العجز عن معالجتها ، أو ملء الفراغ الذى يتحكم فى الأولاد ، وعدم انتقاء الأصحاب والإخوان ، فمخالطة رفقاء السوء تكسب الولد أحط العادات .

إن العجز عن التربية ، أو التخلى عن التوجيه ، من أكبر الفتن ، وعوامل الضياع وفى السنة : « **كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول** » [2] .

وقد شاع فى الناس أمر الهرب من مسئولية الأولاد ، والتقصير فى القيام بحقوقهم ، والله تعالى يقول : **﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾** [3]

قال على ـ رضى الله عنه ـ : "قوا أنفسكم بفعالكم فى أنفسكم ، وأهليكم بوصيتكم إياهم" [4]

فتأمل ما ألمح إليه سيدنا على ـ رضى الله عنه ـ بفعالكم فى أنفسكم ، وأهليكم بوصيتكم إياهم ـ كملوا أنفسكم أولاً ، ثم ادعوا غيركم .

ومن ثم وجب أن يصلح المرء نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله ، إصلاح الراعى لرعيته .

وفى الحديث : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » [5]

---

1 ـ سورة التغابن آية 16 .

2 ـ الحديث أخرجه أبو داود فى سننه 2/ 132 وعنده « من يقوت » بدل يعول ، وأحمد فى مسنده 2/ 160 .

3 ـ سورة التحريم آية 6 .

4 ـ أحكام القرآن لابن العربى 4/ 1852 .

5 ـ أخرجه البخارى فى أماكن من صحيحه ، منها كتاب الجمعة 2/ 6 ، والجنائز 2/ 100 ، والاستقراض 3/ 157 ، وعتق 3/ 197 ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الإمارة 3/ 1459 ، وأبو داود فى سننه إمارة 3/ 130 ، والترمذى فى سننه ، جهاد 4/ 208 ، وأحمد فى مسنده 2/ 5 ، 54 .

وفى ذلك مصلحة للجميع .

والرجل كما يؤدب ولده لمصلحته ، ويتابع ذلك ، يجب أن يدرك أن الجوانب والصوارف كثيرة وخطيرة ، والنفس تهوى وتتمنى ، والإغراق فى ملاعبة الأولاد ، والتنقل بهم من مكان إلى آخر ، فيقضى الرجل وقته فى ليله ونهاره ، ولا يتفرغ لدينه وآخرته ، فيخسر نفسه ويقضى على ولده بعوامل الإدلال المفرط ، والتربية الخاطئة ، وما يتولد بسببه من عوامل خطيرة ، وانحراف نفسى وخلقى ، والذى يؤدى فى النهاية إلى إحساس الولد بمركب النقص ، ونظرته العدوانية الحاقدة على الحياة والأحياء .

ويمارس الولد أول ما يمارس هذا مع والديه ، فيكون العقوق ، ونكران الجميل ، وقد يصل الأمر إلى حد القتل .

وكم من ولد قد جر على أبيه الويل ، بل كم من أبناء قدموا صوراً شائهة ، ونماذج محزنة ومخزية ، عجيبة وغريبة ، وممارسات غير إنسانية ، بل كم من آباء ذاقوا حتفهم على يد أبنائهم . ؟

وكلها فتن مضلة مؤلمة ، كما قيل : " ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاء غير ولد جحود "

ـ نسأل الله السلامة من مضلات الفتن .

وقد استعاذ نبى الله داود من ولد يكون عليه وبالاً ، فقال : " اللهم إنى أعوذ بك من جار السوء ومن مال يكون على عذاباً ، ومن ولد يكون على وبالاً ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب ، ومن خليل ماكر عينه ترعانى ، وقلبه يشنئونى ، إن رأى خيراً أخفاه ، وإن رأى شراً أفشاه " (1)

قال الله تعالى : ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (2)

---

1 ـ العزلة للخطابى 124 .
2 ـ سورة التوبة آية 55 .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [1] .

جهد البلاء

كم تعود النبي ـ ﷺ ـ من جهد البلاء ؟

ففي الصحيح للبخاري ، أنه عليه السلام « **كان يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء** » .

قال سفيان : " الحديث ثلاث : زدت أنا واحدة ، لا أدري أيتهن " .[2]

وقال ابن بطال : وجهد البلاء ، " كل ما أصاب المرء من شدة مشقة ، وما لا طاقة له بحمله ، ولا يقدر على دفعه " .

أو المراد به : قلة المال ، وكثرة العيال ، كذا جاء عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : والحق أن ذلك من أفراد جهد البلاء . [3] .

وقيل : هو ما يختار الموت عليه .

وهذا الأخير مع ما قاله ابن بطال مفيد للعموم ، داخل تحته كل أنماط الأذى وأصناف العقوق وما يلحقه الأبناء بالآباء .

وإنما تعوذ النبي ـ ﷺ ـ من ذلك تعليماً لأمته ، فإن الله تعالى ، كان آمنه من جميع ذلك .

ويحتمل أن يكون استعاذ بربه من وقوع ذلك بأمته .

قال الحافظ : " وفي الحديث دلالة على الاستعاذة من الأشياء المذكورة ، وأجمع على ذلك العلماء في جميع الأعصار والأمصار [4] .

---

1 ـ سورة التوبة آية 85 .
2 ـ صحيح البخاري 8/ 93 ، ومسلم 4/ 2080 ، والنسائي في سننه 8/ 269 .
3 ـ شرح النووي على صحيح مسلم 17/ 35 .
4 ـ فتح الباري 1/ 19 .

أن تلد الأمة ربتها [1]

من علامات الساعة .

وفى بيان تحديد المعنى المراد أقوال عدة .

والخلاف فى تحديده قديم .

والمعنى الرابع : أن يكثر العقوق فى الأولاد ، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته ، من الإهانة بالسب ، والضرب ، والاستخدام .

فأطلق عليه ربها مجازاً لذلك ، أو المراد بالرب المربى ، فيكون حقيقة .

قال الحافظ فى الفتح : "وهذا أوجه الأوجه عندى ، لعمومه ، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة ، ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور ، بحيث يصير المربى مربياً ، والسافل عالياً " [2]

1 ـ جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى أماكن من صحيحه ، منها كتاب الإيمان1/ 191 ، وتفسير سورة لقمان 6/ 143 ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الإيمان 1/ 39 ، والترمذى فى سننه 5/ 6 ، وابن ماجة فى سننه مقدمة 1/ 24 ، وفتن 2/ 1342 ، وأحمد فى مسنده 1/ 319 .

2 ـ فتح البارى 1/ 122 .

وأخيـــــراً

فى ختام الجزء الأول والتمهيد للثانى .

ماذا نريد . . ؟

نريد أن نعى حقيقة الفتن .

وأن ندرك بداياتها .

وكيفية تشعبها وتنوعها .

وأن لها نطاق انطلاق .

وتتابع وتوالد .

وأنها ثالبة ، ثالمة .

محفوفة بالشهوات .

معجونة بماء الشبهات .

علل ، وأمراض .

قرينة الهوى .

بل هى الهوى ، وأخته ، وأمه ، وأبوه .

براقة ، خداعة .

ذات إغراء ، وإغواء .

وأسر ، وقيد .

مع هذا ـ تراها ضعيفة ، جبانة .

تحذر المواجهة .

وتخشى يقظة المؤمن ، وصحوته .

وثباته وصموده ، عقله وإيمانه ، فهمه وفقهه .

اعتصامه والتزامه .

ويتم هذا كله بفقه نبوى ، واستنارة بأنوار السنة عند مواجهة الفتنة ، أو حلولها وورودها .

فللسنة عند كل بارقة فتنة بيان ، وأدب ، وفطنة ، وهداية ، ورشد ، أمان ، ونجاة ، وسلامة ، أضواء لها خاصية الإحراق .

وأنوار نبوية لها سمة الأشراق .

واستشعار بأنك لست وحدك فى الطريق وإن كنت فرداً .

فاستشعر المعنى ، واعلم أنك فى سلسلة بدايتها رسول الله ـ ﷺ ـ ، ونهايتها المسيح عليه السلام .

أمر بدايته نبى كبير من أولى العزم من الرسل .

ونهايته كذلك ، فما الظن به ؟ .

قال النبى ـ ﷺ ـ : « **ليدركنا المسيح أقواماً ، أنهم لمثلكم أو خير ـ ثلاثاً ـ ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها** »(1)

فاستبشر وأمل خيراً .

وإلى لقاء .. ؟

تم بحمد الله وعونه وتوفيقه

الخميس ليلة النصف من شعبان 1419 هـ

3 /12 1998 م

(1) فتح البارى 7/ 6 وعزاه إلى ابن شيبة ، وحسن اسناده .

• فهرس الكتاب •

• فهرس الكتاب •

• فهرس الكتاب •

• فهرس الكتاب •

الموضـــوع	الصفحة

• فهرس الكتاب •

الموضوع	الصفحة